NDU Spirit
دوريّة حول علامات الحياة
في عالم جامعة سيّدة اللويزة

هاتف | 6-208994 09
هاتف/فاكس | 214205 09
www.ndu.edu.lb/research/ndu-press/spirit

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
ماريو نجم

متابعة
ليديا زغيب

تصوير
ع. بجّاني، م. بو شبل، ن. نصر

تصميم
NDU | DBGO Design & Brand Guardian Office

تنفيذ
مطابع معوشي وزكريّا

التّغييرُ سُنّةٌ من سُنَنِ الحياةِ. وما أحوجَنا إليه في لبنانِنا الحبيبِ، من قواعدِ أهراماتِه إلى القمّات!

لكنْ، هل يَحدثُ بكُنْ فيكونُ؟

لا.

ولا يَحدثُ بالنّيّاتِ والشّعاراتِ.

إنّه فعلٌ. دأبٌ يوميٌّ تراكميٌّ. تدرّجٌ موضوعيٌّ من الجُزئيِّ إلى الجِذريِّ بعزمٍ وصبرٍ شجاع.

وهل يُروى عطشٌ بالماءِ عَبّا؟!

إنّ الدّواءَ قليلُه نافعٌ، وكثيرُه يُضِرُّ.. ولا يَشفي إلاّ تواترًا وتواليا.

فمن لزوم ما يَلزمُ أن نواظبَ، سلوكيًّا، على التّغيير، بخططٍ وخطىً وئيدةٍ مطّردةٍ متبصّرةٍ فطنةٍ كفيّةٍ حقًّا، وبعيدةٍ حتمًا من الغوغائيّةِ والتّخريفِ والشّعوذة.

التّغيير،
هو أن نغيّرَ أوّلاً ما بأنفسنا؛ أن يصيرَ هذا التّغييرُ أسلوبَ عيشٍ ونمطَ حياة؛ أن نحياه فعلاً في كلِّ شيءٍ، بقناعةٍ والتزامٍ وثبات!

وإلاّ إلاّ..

سيكونُ مغامرةً ومقامرةً وقفزًا في الفراغ.. تطييرَ طيّاراتٍ من ورقٍ فوق الرّؤوسِ.. استبدالَ غزلانٍ بقرود!!



PRESS

ABSTRACTS خلاصات
www.ndu.edu.lb/research/ndupress

FOR INFORMATION للاستعلام
Zouk Mosbeh | Lebanon P.O.Box: 72 Zouk Mikael
Tel. | +961 9 208994 - 6
Tel.\Fax | + 961 9 214205
email | **ndu_press@ndu.edu.lb**

**إنّ الآراء الواردة في الـ NDU Spirit تعبّر عن كتّابها والمشاركين، وليس بالضّرورة عن المحرّرين.*

المحتوى

كلمة ٤

مدارات ٧

وجوه ٦٠

ملفّات ٦٥

أبحاث ٨٥









مقالات ١٠٢

قصّة ١٢٥

شعريّات ١٢٩

جديد منشوراتنا ١٣١

كلمة

جورج مغامس



«ثورةُ» اللامبالاة

مَن لا تُعرَفُ قَومتُه من قَلبتِه، ولا طبعَ له ولا طعم، الغاشي الماشي شَدقًا متراخيًا، لا يَعتريه همٌّ في شيء، ولا يعيرُ انتباهًا لشيء، أو يحرِّك ساكنًا فيه أيُّ شيء..
هذا الّذي على ما تقدِّرُ الأقدارُ، وتَكثرُ فيه الأوصافُ ما بين «البوكرفايس» و«الفاتر»، وخانه التّقديرُ والمعيارُ..

هو اللامبالي!

فهو اليومَ جَمهرةٌ حالةٌ عارمةٌ، عندنا وفي بلدانٍ جَمّة، حيثُ الأزماتُ والمآزقُ طاحنةٌ بعنفٍ عميمٍ وخبثٍ سَمّام.. بطيش «السّلاطين» فاجِرينَ ماكرينَ مارقينَ وتجّارا..

وفي المشهودِ بمرآةِ الأحوالِ أنْ، وكما شَهِدَ القرنُ الفائتُ تيّارَ الإلحادِ، وصار له منظّرون ومريدون، قرنُنا هو كذلك، يَمضي يَشهدُ تيّارَ اللامبالاةِ..

ولَعمري أنّ ظُلمةَ ذوي اللامبالاةِ أشدُّ مَضاضةً على العصرِ من ظُلمةِ ذوي الإلحادِ! إنّها الظّلمةُ الّتي أشبهُ بالصِّفرِ منفردًا، لا قَبلُ ولا بَعد..

بل هي كالثّقبِ الأسودِ في الفضاءِ، تأتّى من انفجارِ أجرامٍ ابتلعت وولّدت أجراما!!

■■■■

واللامبالاةُ،
إنْ هي..،
أوليست هي وليدةَ اليأسِ المطلَقِ المطبِقِ: من مطلقيّةِ حكّامٍ يَظلِمون ويَقهرون ويُذِلّون، يزيّفون ويزوّرون، يَعِدون ولا يَفون، يزايدون على أهلِ الشّكوى بشكواهم؛ ومن مسؤولين ومسؤولين، في قطاعاتٍ وقطاعات، يَكذِبونَ يَسرقون يَسخرون.. يُسخِّرونَ الأماناتِ للأنانيّاتِ وعبثِ الأهواء؟!

أوَلم تَصِرِ اللامبالاةُ عقيدةً.. هذه العقيدةُ: حَصادُ الفسادِ كثيرٌ، وإنّما النّاسُ يتوالدونَ لهذا الحَصاد؟!

حقًّا، باتتِ اللامبالاةُ عقيدةً: كلُّ شيءٍ فاسدٌ.. كلُّهم فاسدون: فلا يُصلِحُ فاسدٌ فاسدًا أو يبدِّلُ في الأرضِ فسادا!!

إذًا،
ثَمّةَ لا جدوى.. لا رَجوة.. لا أفقَ ولا ميناء..،
فلا سببَ إذًا للإيمانِ بشيءٍ، لتوخّي شيءٍ، للاتّكالِ على شيءٍ، للتّطلّعِ إلى شيءٍ، لانتظارِ أيِّ شيءٍ.. كلُّ شيءٍ في عُهدةِ الأقدار!

بلى، مَن يَشعرُ أنّه لا يستطيعُ شيئًا، تدورُ عجلةُ الأيّامِ من دونِه وعليه، لا يقدّمُ

ولا يؤخّر.. يتأخّر؛ يَطمى بجرفِ المعلوماتِ لا تُعَدُّ، ويوميّاتِ الاستهلاكِ لا تُحصى، وحُمّى التّرويجِ لسلعِ الموتِ وأعداءِ الحياة.. قُطّاعِ الأرحامِ والأوصالِ وطرقِ الآمال..

بلى، مثلُ هذا يصيبُه دُوارُ الفراغِ وانعدامِ الجاذبيّة، يَسقطُ في مَتاهةِ البرّيّة.. في دوّامةِ اللافرقيّة.. في اللاشيئيّةِ العدميّة.. في هوّةِ اللامبالاة: لا يعودُ يعنيه من الحياةِ شيءٌ، لا تعودُ الحياةُ تعني له شيئًا، وقولُه القولُ أبدًا: لا أعرف ولا يَهمُّني.. وسِيّانَ قيلَ بَعدُ إنّ اللهَ موجودٌ أو قيلَ غيرُ موجود..،

لأنّه المبتلى بداءِ النَّفيِ خَدرًا شَللاً.. تَصلّبًا منثورًا (سْكليروز أون بلاك)!

■■■■

اللامبالاةُ،
ليست من وَحَمٍ ولا من رَحِم؛

إنّها من مجتمعٍ استنقعَ في الانحطاط.. في الإحباط، بفعلِ انهيارِ منظوماتِ القيمِ والأخلاق، وسيادةِ نسبيّةِ الأنظمةِ والقوانينِ وتطبيقاتِ شَرْعِ الأرضِ والسّماء، وسدِّ كلِّ منافذِ النّورِ والهواء...

لكأنّها من ثَمّ «ثورةُ» التّسليمِ والاستسلام، هذا الاعتراضُ الضّمنيُّ السّلبيُّ الخاملُ على الما كُتِبَ قد كُتِبَ أمرًا واقعًا حَلْقةً مُفرغةً حجرَ الرّحى في الأعناق.. ما يُنذِرُ بمزيدٍ من الانهيار.. يحتِّمُ يعمِّمُ الأُوارَ نهّابًا وأكّالا!

■■■■

«دقّ المَيّ مَيّ»..، والموتُ الموتُ للصّغار.. في لعبةِ الكبار!!
في لعبةِ الكبار: ما فوقَ الطّاولةِ هو غيرُ ما تحتَها، وما على اللّسانِ هو غيرُ ما في الأروقةِ السّودِ وفي سُوَدِ المخطّطات.. والقولُ فيهم قولٌ مصيبٌ: ليتَهم لم يزنوا ولم يتصدّقوا! فما الّذي يستطيعُه الصّغار؟

إنّهم تحت المطارق، ومن الدّلفِ إلى المزراب!
فهذا العالمُ إذًا مقتولٌ مقتول، وفي أحشائه يختلجُ الانفجار!!
«الكبارُ» هم آباءُ اللامبالاةِ والأمّهات؛

ونحن بناتهم والبنينَ إماءً وغلمانًا، مشرّدون على الأرصفةِ وفي الطّرقات،.. كردَستَنا حبالُ الصُّرّةِ على نعوشِ المثوى الأخير..،
فكيف كيف نُتَّهمُ ونلامُ نحن الضّحايا؟!
ومن أيِّ وقتٍ، من أيِّ دمٍ، بأيِّ عظمٍ..، بماذا بمن نَستعينُ ننهضُ نواجهُ نقاوِمُ.. نُحدِثُ التّغيير؟!

إنّ مَن بأيديهم حجارُ الزّاويةِ رذلوها، وعلى مصائرِنا ساوموا تواطؤوا، واقترعوا على أمانينا..، أجهضوا «ربيعَ» الخبزِ والحرّيّةِ والكرامةِ الانسانيّةِ بالتّكرتُلِ المسموم.. وبأسيافِ الكرائهِ والمكارهِ ودفائنِ الأحقادِ في الصّدورِ وصُفرِ التّواريخ، صادروا اللّهَ وقسّموه جماعاتٍ أحزابًا وأقواما...
وحيث يَفسدُ الملحُ؛ لا تَسلْ: تَفسدُ الأرضُ بوطأةِ الإلحادِ أم تَفسدُ بسَبخةِ اللامباليين!!

■■■■

ثمّ..
ومعًا جميعًا في ذا الموطنِ الصّغير، ونحن من محنةٍ إلى محنة،
ها إنّنا، مثلاً، نَنعى أنّنا نُعاني، يومًا بعد يوم، من اقتحاماتِ اليدِ العاملةِ الأجنبيّة، أيًّا تكنْ، لأسواقِ العملِ اللبنانيّة؛
أما هو هذا إلاّ ما جنيناه، نحن، على أنفسِنا، بأيدينا؟!

وهل أحدٌ يَقتحمُ متجرَك، مصنعَك، مطعمَك، فندقَك، مستشفاك، بيتَك، مدرستَك، جامعتَك، وحتّى دوائرَك الرّسميّة، غصبًا وبالقوّة؟
نحن نحن مَن نَستدعي العمالةَ الأجنبيّةَ إليها.. نحن مَن نستخدمُها!

ثمّ نروحُ نَشكو ونُعلي الصّراخ.. نَكيلُ الاتّهامات، ونُلقي اللومَ، ونفتري، ونَتجنّى،.. نُبدي تزمّتًا وتعصّبًا.. خَشيةً على الأرواحِ والأرزاقِ ومن الآتي الأعظم...
والحقُّ أنْ لا أحدَ يُجبرُنا على شيء.. لا أحدَ يَفرضُ تشغيلَ أو إيواءَ هذا أو هذاك.
بأيدينا نسلّمُ مفاتيحَ أبوابِنا؛ من سِوانا نقيمُ عليها النّواطيرَ..

فنحن إذًا، لا ندخلُ إلى مكانٍ، أيِّ مكانٍ، إلاّ وتطالعُنا وجوهٌ وألسنةٌ غريبة..
فلقد بِعنا أنفسَنا لشياطينِ قِصَرِ النّظر!
بلى. العلّةُ فينا، والحلُّ بأيدينا.

■■■■

فقليلاً من الحياء، ولنَكفَّ عن التّباكي..
عن التّكايد.. عن التّناحر.. عن سفحِ مقوّماتِ التّربيةِ والاجتماعِ والاقتصادِ وسَفكِ قيمِ الحياة.. عن مقايضةِ الوطن.. عن تكفينِ الوطنِ بإلحادِ اللامبالاة.. عن وأدِ الانسانِ بهذا النّحرِ الرّهيبِ أو بالانتحارِ البليد!!

قليلاً من التّبصّر
قليلاً من الحرص
قليلاً من التّضامن
وكفانا أنْ نتكلّمَ باللّغوِ ونشتغلَ باللّغو، وحبالُ النّارِ معقودةٌ فوقَ رؤوسِنا ما بينَ الحدود.. من الحدودِ إلى الحدود!

ألا فلنتّعظْ أنْ يومَ يُؤكلُ منّا «ثورٌ» تُؤكلُ سائرُ الثّيران.

الحقَّ الحقَّ
إنّ عصا اللامبالة أغلظُ على الرّقابِ من عصا الإلحاد..
إنّها عصا النّحرِ أو عصا الانتحار!!


المجد لله في
العلى وعلى
الأرض السّلام
والرّجاء الصالح
لبني البشر

مدارات

الأَباتي طربيه في افتتاح السّنة الدراسيّة:

نتابع مسيرةَ البناء والتقدّم، لا يُثنينا لا خوفٌ ولا يأسٌ

*تلاقى أهلُ الجامعة في قدّاس افتتاح سنتهم الدراسيّة، ظهرَ ١٠ تشرين الأوّل ٢٠١٤، وأصغوا إلى كلمة الرئيس العامّ للرهبانيّة الأمّ الأباتي بطرس طربيه، تحت عنوان: «**أبي يعملُ في كلِّ حين وأنا أعملُ مثله**» (يو ٥/ ١٧)، مؤكّدًا، بعد بيانه مفهومَ العمل ودورَه وغايتَه في ضوء الإنجيل، أنّ الجامعة على تقدّمها وطنيًّا وأخلاقيًّا وأكاديميًّا وفي دراسة أوضاع الأساتذة والموظّفين وتأمين المساعدات للطلاّب...*

قال الأباتي طربيه:

الحيّ فقط باستطاعتِه أن يعمل، وإلهُنا الحيّ يعملُ وعملُهُ خلقٌ وفداء.

والإنسانُ المخلوقُ على صورةِ الله مدعوٌّ للعمل، لأنّ وصيّةَ الخالقِ منذ البدءِ للإنسان «بعرقِ جبينِكَ تأكُلُ خبزَكَ» (٢ تس ٣/ ١٠) «وأقامَ الربُّ الإنسانَ في جنّةِ عدنٍ ليحرثَها» (تك ٢/ ١٥)

فالعملُ هو وسيلةٌ للقداسة، وهو أيضًا إستمراريّةٌ لعملِ الخالقِ على الصعيدِ الجسديّ، ولعملِ الفداءِ على الصعيدِ الروحيّ.

يقولُ الربُّ: «الآبُ يحبُّ الابنَ ويُريه كلَّ ما يعمل وسيُريه ما هو أعظم». (يو ٥/ ٢٠) عندما يعملُ الإنسانُ يرى مجدَ الربّ، فانظروا إلى خدّام عُرسِ قانا، كانوا أوّلَ من رأى الآيةَ الّتي حقّقها يسوع. العملُ هو وسيلةٌ لتمجيد الله «ومجدُ الله هو الإنسان الحيّ».



نحنُ نسعى في الجامعةِ لنعملَ على بناءِ الإنسان، كلِّ الإنسان، بأبعادِه الفكريّة والروحيّةِ والجسديّة.

فمن خلال العلمِ نُساعدُه أن يصلَ إلى الحقيقةِ، ومن خلالِ الحياةِ الروحيّة نُذكّرُهُ بأنّه ابنُ الله، أمّا من خلال البُعدِ الجسديّ فإنّنا نُذكِّرُهُ أنّهُ مواطنٌ في هذه الأرض، وهو مدعوٌّ ليبنيَ ملكوتَ الله.

وبأن نحبَّ ما نقوم به، نرسم طريق خلاصنا؛ فربّنا يسوع أحبَّ ما قام به، ويعلّمُنا أنّه بدون الحبّ لا معنى لشهادتِنا المسيحيّة.

أيّها الأحبّاء

رغم الظروف القاسية، السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة، الّتي يمرُّ بها لبنان، فإنَّ جامعتَكم، برعاية أمِّنا العذراء، تتابعُ مسيرةَ البناءِ والتقدّمِ، لا يُثنينا عن ذلكَ خوفٌ أو يأس.

أعودُ بالذاكرةِ إلى سنة ١٩٨٧: يومَها كان لبنان يمرُّ بظروفٍ صعبةٍ، قد



يتذكّرها البعضُ منكم؛ يومَها، استحصلنا على رخصةِ تأسيسِ جامعة، وبدأنا مسيرةَ البناءِ والتطوّرِ، ولم نخف.

اليوم، نعيد الكرّة:

الجامعة تتقدّم، المستوى يرتفع، الأعداد تتزايد، الاسم العلميّ الأكاديميّ يتضاعف إشعاعًا، وأنتم أُسرةَ الجامعة، الأساتذةَ والموظّفين والطلاّب، تُتابعون هذه المسيرة، بعزيمةٍ وإرادةٍ صلبة.

الرهبانيّة الّتي أرأس، والّتي تتولّى رعايةَ الجامعة، تؤكِّدُ لكم اليوم، في افتتاحِ السنةِ الجامعيّةِ ما يلي:

١. الأحداثُ المؤلِمة، لا تَزيدنا إلاّ تأكيدًا على أنّ الجامعة هي جامعةٌ لكلِّ لبنان، بكلِّ طوائفِهِ وفئاتِهِ ولا نميّز. هدفُها الأوحد أن تكون منارةَ معرفة يقصدها كلّ الرحّالة في بحر الحقيقة.

٢. رغم عاصفةِ «الإفادات»، أؤكِّدُ لكم أنّنا لن نتهاون في المستوى الأكاديميّ، وأطالبكم أن تكونوا مسؤولين عن ذلك. أنتم ونحن، لا إهمالَ لمستوى الشهادات الّتي تمنحها جامعة سيّدة اللويزة. إنّ هدف الجامعةِ الكاثوليكيّة هو تنشئةُ رجالٍ ونساء قادرين على التمييز والفكرِ النقديّ، لديهم مستوىً عالٍ من الاحتراف، ولكن أيضًا أغنياء بالإنسانيّة، مستعدّون لوضعِ مهارتهم لصالح الخير العامّ. جاء في Ex corde Ecclesiae «لهذا على الجامعةِ الكاثوليكيّةِ أن تكون شجاعةً في إعلان الحقائق المُزعجة الّتي قد لا ترضي الرأي العامّ، لأنّها أساسيّةٌ في حفظِ الخير الأصيل في المجتمع».(١)

٣. القيادةُ في الجامعة هي جمَاعيّة. لكلٍّ حريّة رأيه: نناقش، نتحاور، نتعارض، ولكن في الختام نتخذ القرار؛ وقرارُ رئيس الجامعة ليس تفرُّدًا، بل هو ثمرةُ هذه النقاشات الّتي نحرص دائمًا على أن تكون بنّاءةً ومفيدة. وأطلب من الأب الرئيس الّذي أُقدِّرُ نجاحاتِهِ ونشاطاتِهِ، أن يأخذ آراء جميع العاملين في هذه الجامعة، الآباء والعلمانيّين، بعين التقدير والاعتبار. كما أطلب منهم، هم بالذات، الالتزام بقرارات الرئيس ونظام الجامعة وتوصيات مجلسها الكريم.

٤. إنّ كثرةَ الجامعات، في هذه المنطقة، كما في كلِّ لبنان، تحتِّم علينا الانتباه، والسعي أكثر فأكثر، إلى رفع المستوى والتمييز. وهذا ما آمله، وبجديّة أكثر، من خلال العمل الدؤوب للحصول على الاعتماد Accreditation، الّذي بدأتم طريقه منذ سنوات.

٥. استكمال البناء الأكاديميّ ببناء مستشفى جامعيّ حديث في المنطقة، والاستحصال على الترخيص لكليّة الطبّ. وقد أصبحت الخرائط والمستندات جاهزة لهذا الغرض.

٦. التأكيد على أنّ هذه السنة ستكون سنة «الطالبِ الجامعيّ». وسنحاولُ خلالها، معكم جميعًا، أن نحقِّقَ رسالةَ الجامعةِ من حيثُ إعدادِ مواطن مثقَّفٍ، أخلاقيٍّ، مؤمن، حرّ ولبنانيّ أصيل. أُناشدكم جميعًا وضعَ كلِّ إمكانيّاتِكم لتحقيقِ هذا الهدف، في إطار التعاون التربويّ. لا يمكن للتعليم أن يكون مجرّد عمليّة نقل معرفة أو تنشئة، ولكنّه إرشادٌ لاكتشاف الطالب مواهبه، وتطوير كفاءتِهِ المهنيّة، وتحضيره

(١) Ex corde Ecclesiae, no 32

لمسؤوليّات مهمّة، فكريّةً كانت أم سياسيّةً أم اجتماعيّة. وأكثر من ذلك: التعليم هو دعم الشباب في البحث عن الحقيقة والجمال، وما هو حقٌّ وخير. ويأتي سموّ العمل الجامعيّ من رؤيةٍ مُشتركةٍ للقيم بين كلّ العاملين في المؤسّسة الجامعيّة، سواءَ انتموا للهيئة التعليميّة أو لا؛ وكونُها جماعةً لا تعلّم بقدرِ ما تتعلّم.

٧. قد تكون الصعوباتُ الّتي تواجه الجامعات الكاثوليكيّة المتعلّقة بالغد كثيرةً، لكنّ الحبر الأعظم البابا فرنسيس يحثّنا أن نجدّد فينا شغف التعليم. يقول: «إنّ التعليم ليسَ بمهنةٍ، لكنّه موقفٌ وطريقةُ وجود: كي نعلّمَ، علينا أن نخرجَ من ذواتِنا وأن نكون بين الشباب نسير معهم ونرافقهم في مراحلِ نموّهم. أعطوهم الرجاء، التفاؤلَ في مسيرتِهم في العالم. علّموهم رؤيةَ الجمال والخير في الخليقةِ وفي الإنسان الّذي لا زال يحملُ ختمَ الخالق. ولكن قبلَ كلِّ شيء، كونوا شهودًا في طريقةِ عيشكم لما تعلّمون. إنّ المربّي ينقل المعرفة والقيم من خلال كلماتِه، ولكنّه يؤثّر بالشباب حين يعيش ما يتكلّم به».

٨. إنّ الوضعَ الاقتصاديّ العامّ في لبنان لم يسمح لنا برفعِ الأقساطِ الجامعيّة، إلاّ بصورةٍ ضئيلةٍ جدًّا، ولكن هذا لا يمنعنا من التركيز ماليًّا على ثلاثةِ أمور:

١. دراسة أوضاع الأساتذة وتعويضاتِهم، بصورةٍ تسمحُ لهم بحياةٍ كريمةٍ، ولاسيّما بعد التقاعد.

٢. دراسة أوضاع الموظّفين بما يسمح بتأمين المساواة والعدالة والحياة اللائقة.

٣. السّعي، من خلال وضع الموازنة، إلى تأمين مساعداتٍ ماليّة ومِنح دراسيّة، من أبوابٍ مختلفة، وبالتعاون مع مجلس أمناء الجامعة.

لن أدخل في تفاصيل كثيرة. أتركُ للأب رئيس الجامعة، لنوّابه، لجميع الآباء والعمداء والمسؤولين، وضع خطّة العمل المناسبة لتحقيق هذه الأهداف، وكلّي ثقة بقدرتهم على ذلك.

أختمُ بالطلب، من الربِّ يسوع، وبشفاعةِ سيّدةِ اللويزة، أن تكونَ هذه السنة مباركةً، وأن يُبعِدَ الشرور والمصائب، وأن يُنقذَ لبنان من الإرهاب والآلام، ويُعيدَ إلى النفوسِ الطمأنينةَ والسلام.

يومَ أقفلتِ الجامعةُ أبوابَها على الوديعةِ وامتشقت جوارحَها على الأبوابِ حرّاسا

- في سعيد عقل من خبرِ الرّحيلِ إلى التحافِ الأبدِ-

*الجمعة في الثّامن والعشرين من تشرين الثّاني، جاءنا الخبرُ من مكتب رئيس الجامعة **الأب وليد موسى**: سعيد عقل في ذمّة الله!*



وكان لقاءٌ، قال فيه الرئيس: إنّ الجامعةَ التي علّمَ فيها الأستاذ سعيد، وخصّت تراثَه بكرسيٍّ، ثمّ ائتمنها على إرثِه، وفي غدٍ على اسمه تُنشئُ مؤسّسةَ التّخليد،.. هي ستستقبلُ جثمانَه للصّلاةِ والوداعِ يومَ الاثنين.

وكان الاثنين: شمسٌ كانونيّة، أعلامٌ، سعفٌ، شالاتٌ حمرٌ، عزفُ موسيقى، نثرُ ورودٍ، ذرفُ دموعٍ، رفعُ بخورٍ ودعاءٌ ووقعُ عينٍ على الغفوةِ في الأنوار..

النّعشُ الرّخامُ مَخدّدًا بأمواجِ العمرِ، تكلّلت بأسماءِ كتبه بَتلةً بَتلة، ضفرتها يدُه الشّاعرة: رودي رحمه،.. طافت به الأكتافُ كسفينةٍ على ضلعٍ من الأرزِ في الزّمن، وعلى منصّتِه استراحَ وسْطَ الذّهولِ وخشعةِ مهاباتِ الجلال..

ثمّ أقامَ المحبّون الصّلاةَ..

وصار، بَعدُ، بعضٌ يعزّي بعضًا، حتّى كان غروبٌ،..



فأقفلت الجامعةُ أبوابَها على الوديعةِ، وامتشقت جوارحَها على الأبوابِ حرّاسا.

وفي اليوم الخامسِ الموافقِ الثّلاثاءَ، ترافقَ السّعيدُ والشّمسَ صوبَ بيروتَ، وصعّدَ صوبَ زحلةَ يسابقُ الأنجمَ والقمرَ..
والتحفَ الأبدَ...



.. وفي عَودٍ على بدءٍ، بعد تأبين بطريركيٍّ بليغ المعاني والمغازي بالغِ الإحاطاتِ، فاستقبالٍ زحليٍّ وفيٍّ سخيٍّ عارمٍ شاملٍ، وبينهما محطّاتٌ مدرسيّةٌ شعبيّةٌ تحيّي،..

في هذا العَودِ هذي وقائعُ وقّعتها أصواتٌ في الجامعة- «جامعتِه المريميّة»:



*في عظة القدّاس اعتبر الرئيس العامّ **الأباتي بطرس طربيه** مرورَ سعيد عقل في الجامعة نعمةً مميّزة.. قال:*

«تُعَظِّمُ نَفْسِيَ الربَّ وتبتهجُ روحي باللهِ مُخَلِّصي» (لو ١/٤٦-٤٧).

إنَّ نشيدَ مَريَمَ العذراء الرائع، يُشَكِّلُ مُلَخَّصًا لِكُلِّ تاريخِ الخلاص، لِجَوابِ الإنسانِ الأَمين عَلى مَحبَّةِ الله ودعوَتِه. البتولُ، أَمامَ ما صَنَعَهُ الربُّ في حَياتِها، بل في حياتِنا نحنُ البَشَر، إِذْ تَجَسَّدَ وَرَفَعَنا، أَضْحَتْ كائِنَ تَمْجيدٍ وعِبادَةٍ لِهَذا الإلهِ الّذي عِنْدَما تُدْرِكُهُ لَنْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَهْرُبَ مِنْ مَحبَّتِهِ، لأَنَّهُ إِلَهُ الحياة، ومُعطي الحياةَ مَعْناها، «وهُوَ هُوَ أَمْسِ وَاليَوم وَإِلى الأَبَد».

نُعَظِّمُ الرَبَّ، مَعَ مَرْيَم، ونَبْتَهِجُ به، لأَجْلِ عَظائِمِه. ونُشْكُرُهُ لأَجْلِ الإنسانِ الْمُؤمِنِ، الأَديبِ، الْمُفَكِّر والعَبْقَرِيّ سعيد عقل. نُوَدِّعُهُ اليومَ، ونَحْنُ نَتَذَكَّرُ مَن كانَ، أمامَ الله والبَشَر، الإنسانَ الْمُمَيَّزَ الْمُدهِشَ بِتَفْكيرِه وتَصَرُّفِهِ ورُؤاه. بِفِطْرَةٍ إِنسانِيَّةٍ روحِيَّة، عَرَفَ هذا الرجلُ أَنْ يَتَعَدَّى مَحدودِيَّةَ البَشَر، لِيَتوقَ دائمًا إلى غَيْرِ الْمَحدود ويَسْعَى إِلَيه. لَمْ تَكُنْ نَفْسُهُ لِتَكْتَفِيَ بالقليلِ وبالعادِيّ، لأَنَّ آفاقَهُ اللاحُدُود. أَحَبَّ الكِتابَةَ شِعْرًا وَنَثْرًا، فَأَبْدَع، أَحَبَّ لُبنانَ فَفَكَّ عِقْدَةَ صِغَرِهِ وأَعْطاهُ أَبْعادَ الكَون، وَأَحَبَّ اللهَ الثالوثَ الأَقدسَ والعذراءَ، فَنَمَتْ مَعْرِفَتُه في العُشْقِ الإلَهِيِّ وتَبَنَّى الْخَيْرَ، قالَبًا وَقَلْبًا، وَنَبَذَ الشَرَّ صَراحَةً، وَكَرِهَ الزيْفَ بِثَبات. إِنَّهُ الصِنْديدُ الْجَريءُ الّذي يَعْمَلُ ولا يَتْعَب، يَحْيا ولا يَنْتَهي، يَرْقُدُ ويَمْلأُ الحاضِرَ ذِكريات وَكَأَنَّهُ حَيٌّ يُرْزَق.

يَتَكَلَّمُ فَتَجِدُ ذاتَكَ أَمامَ أَساطِيرَ، إِذا تعمَّقتَ بها تَجِدُها حَقيقَةً وَحَياة. يَكْمُنُ سِرُّ نَجاحِهِ في الإيمان. فَقَدِ اغتَذَى مِنْ كَلِمَةِ الله، وَأَبْدَعَ فِكْرًا روحِيًّا، قَلَّ نَظيرُه، إِذْ جمَعَ بَيْنَ العَقيدَةِ وَالْجَمال، وَرَأَى في الكِيانِ البَشَرِيِّ الْمُخَلَّصِ رائِعَةَ الأُلُوهِيَّةِ وَتَتْميمَ تَدْبيرِ الْخَلاص. سَلَبَتِ العذراءُ مريمُ قَلْبَه، فَتَغَنَّى بها وَكَرَّمَها. عاشَ البُنُوَّةَ لَها، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُنْتَمِيًا إلى كَنيسَةِ ابنِها، مُلَبِّيًا دَعْوَةَ الِابْنِ لَه: «هَا هِيَ أُمُّكَ» (يو ١٩/٢٧). إنّه الْمُحدِثُ وَالْمُحَفِّزُ في جامعة سيّدة اللويزة، وقَدْ زَيَّنَ مَنابِرَها لِسنينَ بِفِكْرِهِ وَتَأَمُّلاتِه، وَعَلَّمَ العَقْلَ حُسْنَ السَبيل، والقَلْبَ سِرَّ الحياة، ناظِرًا إلى مَريَم. تَرَكَ لَنا مِيراثًا، نَسْتَقْبِلُهُ في تَواضُعِ مَريَم، مُعتَبِرينَ مُرورَ سَعيد عَقْل مِنْ هَهُنا نِعْمَةً مُمَيَّزَةً لَنا كَجامِعَةٍ رُهبانِيَّةٍ مَريَمِيَّة







هِيَ ابنَةُ الكَنيسَةِ الْمارونِيَّة وَالكَنيسَة الْكاثوليكيّة. ارْقُدْ بِسَلامِ يَسوع يا سَعيد عقل، وَلْتَكُنْ سَعادَةُ الآبِ حَظَّكَ الأَوْفَر، وَلْيَكُنِ الْجَمالُ الإِلَهِيُّ شَغَفَ عَقْلِكَ مَدى الأبد.

يا مَرْيَمُ، أَيَّتُها الساهِرَةُ، سَيّدَةَ اللويزة، احْفَظي ابنَكِ سَعيد في عبورِهِ إلى دارِ الْخُلود، وَلْيَكُنْ نَصيبُهُ مَعَ الأبرارِ في الفَرَحِ الأَبَدِيِّ بِمُشاهَدَةِ وَجْهِ ابْنِكِ الكلمةِ الإِلَه، مُنْشِدًا: تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَبَّ وَتَبْتَهِجُ رُوحي بِاللهِ مُخَلِّصِي. آمين.

■■■■



*وكان **الأب فادي بو شبل** المرشد العامّ في الجامعة، قال في صلاة الاستقبال وتسجية الجثمان بالأصالةِ وبالإنابةِ عن رئيس الجامعة:*

«في أيّامِ شبابي... طلبتُ الحِكمةَ عاليًا في صلواتي، أمامَ الهيكل تضرّعتُ لأجلِها، وإلى آخر أيّامي التمستُها... وما إن أمَلتُ أُذُني إليها قليلاً حتّى كوفئتُ بكثيرٍ من المعرفة، وكان لي فيها نجاحٌ عظيمٌ، فالإكرامُ كُلُّه لِمَن أتاحَ ليَ الحكمة» (سي ٥١/١٣-١٧).

اليوم، وهنا، في جامعة سيّدة اللويزة، الّتي كان الأستاذ سعيد يُحِبُّ أن يُسَمّيَها «جامعتي المريميّة»، اجتمَعنا.

اجتمَعنا للصّلاةِ والتأمُّل. اجتمَعنا لِنُقدّمَ للربِّ شُكرَنا عن كُلِّ نعمةٍ حَباها لفقيدِنا الغالي، وعلى كُلِّ نعمةٍ نلناها نحنُ الّذينَ نرغبُ في الوصولِ إلى الحقيقةِ والجمالِ والمحبّة.

فمع الكبير نُردِّد: «ما أجمَل من يسوع إلاّ رؤية يسوع».

الأستاذ سعيد، من يستطيعُ أن يُدرِكَ كيف كان يستقبلُ يسوعَ القربان، وبأيِّ حُبٍّ وحرارةٍ إيمانيّة؟

فهو الّذي انقطعَ في أواخرِ أيّامِهِ عن تناول الطّعام، ظلَّ مواظبًا على تناولِ القربان، فكان ما أن يسمَعَ أنّ الكاهنَ يحمِلُ إليهِ جسَد الربِّ حتى يفتحَ فمَهُ ليقبلَه في كيانه.

الأستاذ سعيد، مَن يستطيعُ أن يتجاهَلَ تلكَ المواقفَ، الّتي بها عَبَّرَ عن عَيشِهِ لكلامِ الله؟

فهو أدركَ أنّ «مَن واضعَ نفسَهُ ارتفَع، ومَن رَفَعَ نفسَهُ اتّضَعَ» (لو ١٨/١٤)؛ ولذلكَ كان يريدُ، لو استطاعَ، أن يكتُبَ قاموسًا، يدعوهُ قاموسَ السّماء، فيهِ يجدُ الإنسانُ طريقَ التّواضُعِ والوداعةِ والمحبّة. وفي هذا القاموس، ليسَ من مكانٍ لكلماتٍ لا تنتمي أو لا تُنْمِي بعالمِ السّماء، عالمِ النّقاءِ والبهاء، عالمِ البراءةِ والقداسةِ والفرحِ المطلق.. على ما أسرّت، بخَفَرِ الأمانةِ، «المكرّسةُ» لعقودِهِ الأخيرةِ وجُملةِ أسرارِهِ وخفايا تراثِه: السيّدة الفاضلة ماري روز.

عجبٌ، كيف وكم كان هذا الرّجُل يُحِبُّ القداسةَ، وقد قالَ لي يومَ منحني جائزتَه عن خدمتي في زيارةِ تريزا للبنان: إنّ «القداسةَ مِثلُ الكَرَم»، معتبرًا أنَّ الكَرَمَ أُمُّ كلِّ الفضائل، ويأتي من القداسة؛ ومضيفًا: لا أحد يتكارم إلاّ القدّيسون، لأنَّ القدّيسَ يُعطيكَ حياتَهُ...

وهنا، لا بُدَّ من الإشارةِ إلى علاقتِهِ البنويّةِ بمريمَ العذراء، الّتي اعتبَرَها حالةً فريدة بين القدّوسِ والقدّيس؛ فمريمُ بوصفِها مخلوقةً هي أقلُّ من القدّوس، ولأنّها أمُّ يسوعَ الكلمةِ المُتجسِّدِ فقد فاقت كلَّ القدّيسين. والحقُّ أنّه ناداها في لحظاتِهِ الأخيرة، بأعلى صوتِهِ، وكرّر دُعاءَهُ بصوتٍ أعلى فأعلى مهلّلاً: «مجدُ مريم يتعظّم في المشارقِ والغروب».

اليوم، أيّها الكبيرُ بتواضُعِكَ، أيّها الشّامخُ بوداعتِكَ، أيّها المرفوعُ الرأسِ بمحبّتِكَ، نريدُ أن نقولَ لكَ:

شُكرًا أستاذ سعيد، لأنّكَ أبدعتَ ما أبدعتَ من شعرٍ فخمٍ مُعجزٍ في فِكرٍ وصُورٍ وتوقيعِ أنغام.. ذَهَّبَ تاجًا على مجدِ لبنان!

شكرًا، لأنّكَ مع الفكرِ والإيمانِ نشدتَ الحقيقةَ وأنشدتَها حلّةً بيضاء!

شكرًا، لأنّكَ أحببتَ جامعتَنا ومَنَحتَها ثروتَكَ الفكريّة.. لأنّك أحببتَ رهبانيّتَنا المريميّة وعَزَزتَ رهبانَها!

شكرًا، لأنّكَ أحببتَ الكلمةَ، والكلمةُ كان عندَ الله، وكان الكلمةُ الله... به كان كلُّ شيءٍ وبغيرِهِ ما كان شيءٌ ممّا كان. فيهِ كانت الحياةُ، والحياةُ نورُ النّاس (يو ١/١-٤)... والكلمةُ صارَ بشرًا وعاشَ بيننا فرأينا مَجدَهُ مجدَ وحيدٍ من الآبِ (يو ١/١٤).

واليوم، معكَ نستطيعُ أن نَصرُخَ أمامَهُ وأمامَ العالمِ كلّه «ليسَ أجمَل من يسوع إلاّ رؤية يسوع»، الإلهِ الكلمةِ المُتجسِّد. آمين.

■■■■



وعند الحبيب المسجّى وقفَ الأحبّةُ يقولون بالنّظرةِ والدّمعة.. وبالكلماتِ التي قد تُختصرُ بكلمةِ صديقٍ رفيقٍ هيّأ للعريسِ العرسَ وأعدَّ المراسم.. فهتفَ سهيل مطر:



مرفوعَ الجبين كأنّه صنّين ها قد وصل!

مشوار جينا عالدني... مشوار وها هو في مشواره الأخير إلى هذه الجامعة.

ها قد وَصَل!
ها هو يعود: مخمّرًا بالقيم والجمال، مضمّخًا بعطرِ الأرز، متوّجًا بغارِ الحبّ، مبتلاً بدموعِ الحنين سكبناها، البارحة، على صباح..

مرفوعَ الجبين كأنّه صنّين
ها قد وصل!
مشوار جينا عالدني... مشوار
وها هو في مشواره الأخير إلى هذه الجامعة.

آلاف المشاوير، منذ خمس وعشرين سنة، كان يقوم بها، كلَّ صباح، إلى هذه الجامعة: يدخل الصفوف، يبتسم للطلاّب، يصلّي معهم، يخاطبهم، يحاورهم، يرتفع بهم، ويترك عطرَ أشعاره والصدى مرشوشًا في الزوايا، وفي عيون الشباب والصبايا.

وفي هذه القاعة بالذات، كم سمعناه، يخاطب الجميع بلغة الكبار:
في كلّ حرفٍ رمى كان الكُبارا، كأنْ   من جُودةٍ وحدَه، والناسُ من عدمِ.

تتذكّر المرّة الأخيرة، منذ سنتين، وهو جالس على ذلك الكرسيّ، وجنبَه عملاقٌ آخر، وديع الصافي، وتحتار الجامعة: أيّهما الملك؟

اليوم، نحن نتكرّم به:
هو من سَجّى جثمان الأخطل الصغير، منذ خمس وأربعين سنة في الجامعة اللبنانيّة؛
وهو الذي كان يردّد: هذه جامعتي، أوصيكم بها.
نحن، يا معلّمي، يا سيّد، نحن للوصيّة أوفياء!

جامعتك، اليوم، تبكي بفرح، تودّعك وتودعك أجمل الأماني والصلوات.

وفي نعش من صخر لبنان، في نعش من كتب وحبر وشعر، في نعش صنعه الحبّ، نودّعك..
ونردّد معك:
أقولُ: الحياةُ العزمُ، حتّى إذا أنا
انتهيتُ، تولّى القبرُ عزمِيَ من بعدي.

ولن تنتهي! فالكبار المتمرّدون لا يسعُهم نعش، ولا تسجنهم قبور، ولا يغيبون بإغماضة عين. مع كلّ رندلات بلادي، مع يارا، مع إغنار، مع رشا، مع الزنابق والورد والبخور، مع دمعة البردوني، ودموع الشام وعمّان والقاهرة وبغداد، مع دموع مكّة والقدس- زهرة المدائن، مع انحناءات أعمدة بعلبك، ننحني ونقول:

من زهر لبنانَ خذْ عرشًا ومن قيم
لا زهرُ لبنـانَ منّانٌ ولا القيمُ.

■■■■



وهذي مختاراتٌ من مُدَوَّناتِ المعزّين (رجالَ دين نوّابًا وزراءَ سفراءَ نقباءَ قضاةً أدباءَ فنّانين إعلاميّين عسكريّين ومحبّين مريدين كُثرًا..)، استُلَّت اتفاقًا لا احتسابًا:

د. يوسف كمال الحاج:
سعيد عقل: قُرَّةُ وفاء في عين الله.. غُرَّةُ إباء على جبين لبنان.. دُرَّةُ بهاء في ثريّا الكلمة...

المحامي صلاح مطر:
.. عالٍ على الموتِ مثلَ الأرزِ في عَلَمي   خلّدتَ لبنانَنا، قال الرّحيمُ: «نَمِ»

د. عبدو يونس:
كتبتَ لبنانَ شعرًا خالدًا   ونحن نثرًا لو قدرنا كتبناكَ

الشاعر أنطوان رعد:
القصيدة العربيّة بعد رحيل سعيد عقل أرملة، والشعر يتيم؛ فالنسر الذي شكّ راية طموحه في ملاعب النجوم، وترك وشم منقاده على جباه الشموس، طوى جناحيه في طريق العودة إلى ثرى مسقط رأسه...

الشاعر جورج شكّور:
كلُّ الزّعاماتِ مرهونٌ بها زمنٌ   إلاّ زعامةَ فكرٍ عمرُها الدّهرُ

الشيخ سامي أبو المنى:
.. كبيرٌ برسالته الوطنيّة بأدبه وشعره وحضوره، عظيمٌ بصوته من أجل أن يبقى لبنان مجدًا ورمزًا وعطرًا يضوّع الوجود.

الأب بطرس عازار:
«لبنان إن حكى».. حكى أنّ سعيد عقل، ليس فقط المعلّم، بل هو مدرسة في الشعر والأدب والوطنيّة والقيم والايمان والتبادع...

القاضي الأوّل جان فهد:
إلى القامة التي أظهرت أجمل ما في لبنان من بهاء واختزنت أسمى ما فيه من قيم، إلى عظيم قد لا يتكرّر، إلى من حمل في قلبه همّ لبنان وبنيه، نقطع العهد بأن نستمرّ نحمل أمانة الانتماء إلى هذا الوطن العظيم.

الشيخ عبّاس الجوهري:
سعيد عقل صورة لبنان التي لا تموت...

الشيخ حسين أحمد شحاده:
لن يطول الزمان حتّى تُكتب قصائد سعيد عقل وأيقوناته الشعريّة والأدبيّة على جدران مكّة ودمشق والنجف الأشرف.

الأب جان مارون مغامس:
بكلماتك يا شاعرَ الأرضِ والسماء، تركت للانسان ثروة أدبيّة وثقافيّة تنتقل من جيل إلى جيل...

الوزير منير الحاج:
شممٌ وقوفٌ على القمم، هذا هو سعيد عقل.
ما وطئَ، عمرَه سفحًا ولا نزل وهدا
واليوم إذ يَهوي، إنّما يهوي «صُعُدا».
وقعُه في الدنيا سيبقى له دويٌّ، «كوقعِ الهنيهةِ في المطلق».
سيبقى وسنبقى، ولبنانُ سيبقى لأنّا المؤمنون به، ولأنّ ما أترعه به من مجدٍ عصيٌّ على الزوال.

الوزير عادل قرطاس
.. سعيد عقل، بين كلّ الشعراء، هو المثقّف بالدرجة الأولى؛ وهذا ما يميّزه...

العماد القائد جان قهوجي:
شاعرَ لبنان العظيم، سوف نظلّ نذكرك صديقًا وفيًّا للجيش إلى الأبد، بقصائدك وأغانيك الخالدة على مرّ الزمن...

الأب كميل مبارك:
.. سعيد عقل له منّا الوعد أن نحمل المشعل الذي أراده نورًا لعظمة لبنان ولكبر كلّ لبنانيّ...

د. عصام خليفة:
لقد تعلّمنا الوطنيّة اللبنانيّة وعلّمناها من خلال شعرك وأدبك.

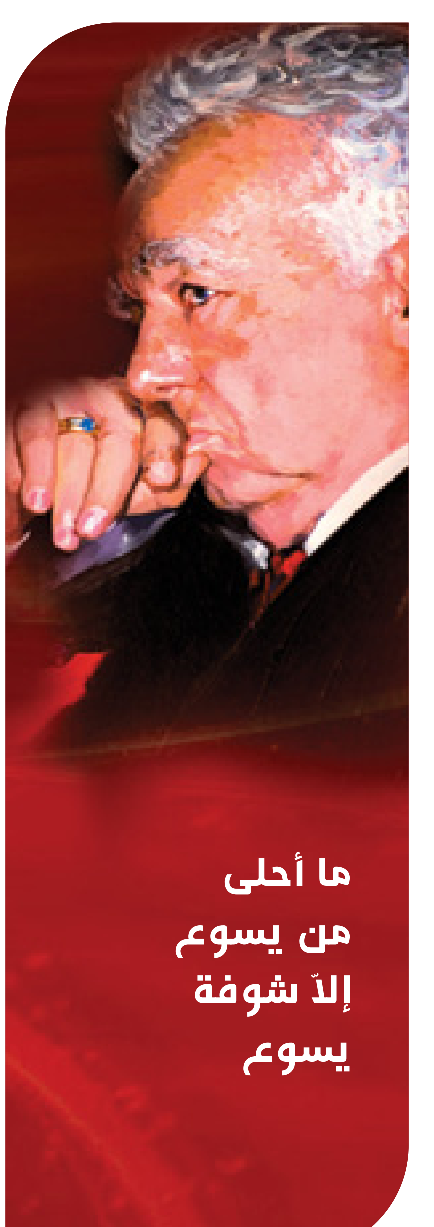
عبّود يوسف فضّول:
.. هو الخلودُ لما أعطى وما كتبَ   أكرِمْ بوحي أميرِ الشّعرِ والكَلِمِ...

وفي المناسبة، رأى د. أمين ألبرت الريحاني أنّ سعيد عقل أتى إلينا ليبقى، فقال:

حين جلست لأكتب عن سعيد عقل سبقت الأسئلةُ كلَّ جمل السرد أو التقرير. فأيّ معنى لرثاء عبقريّة يصعب أن تتكرّر؟ وهل من الضروريّ أن أرثي سعيد عقل كي أشعر بأنّني قمت بواجب منتظر منّي؟ ما قيمة الرثاء في مثل هذا الموقف؟ أليس الرثاء بابًا أدبيًّا، أو غرضًا شعريًّا، قد اندثر؟ وهل يحتاج سعيد عقل إلى رثاء منّي أو من سواي؟ هل يحتاج حضوره إلى كلام يؤكّد هذا الحضور؟

سعيد عقل الجسد انتهى منذ أيّام ليبدأ سعيد عقل الفعل والروح والعقل. حياته الأولى وصلت إلى نهايتها الراضية المرضيّة بسلام الأنبياء وهناءة الأطفال لتبدأ حياته الثانية ليس على المقلب الآخر من هذا العالم وحسب، بل لتبدأ حياته الثانية أيضًا في قلب هذا العالم. فسعيد عقل الشاعر أسّس البارحة ليبدأ اليوم. وسعيد عقل شقّ البارحة طريقَ الحداثة في قلب الشعر العربيّ الكلاسيكيّ ليكملَ اليوم هذه الطريق. وهو شقّ البارحة طريقَ الرمزيّة في الشعر العربيّ المعاصر ليكملَ اليوم تلك الطريق. أسّس البارحة لمعاني الطموح والعنفوان اللبنانيّين ليُكملَ اليوم معالم تلك المعاني وخصائصَها والميّزات.

اليوم يفتتح سعيد عقل حياتَه الجديدة وأيّامه المتألّقة التي يتباهى فيها شعره المتفرّد، كما يضيء فيها نثره المشرق المتأنّق. ولئن طالت حياته الأولى وفاقت المئةَ سنة، فلسوف تمتدّ حياته الثانية إلى ما لا نهاية. نحن جيل سعيد عقل أصحاب حظّ في كوننا قرأناه ورافقناه ورأيناه وسمعناه وتابعناه وجالسناه فاشتركت حواسُّنا، كلُّ حواسّنا، في الاحتفال الدائم به وبنتاجه الذي يصعب أن يتكرّر. أمّا الأجيالُ القادمة فسوفَ تسعدُ بكونها صاحبةَ حظّ في اكتشاف سعيد عقل، كلّ يوم، شاعرًا فذًّا يخاطب الآتي قبل أن يخاطبَ الحاضر؛ يخاطب الزمان قبل أن يخاطبَ المكان؛ ويخاطب الغيب قبل أن يخاطبَ مَن يراهنون على الغيب. سعيد عقل زوّدنا بمادّة مشرقة ثريّة نستطيع أن نضيء بها فعل التبادع، شعرًا ونثرًا مئاتٍ من السنين القادمة. ولئن حظينا نحن بـ«مادّة» سعيد عقل طوال قرن كامل، فلسوف تحظى الأجيال القادمة بـ«جوهر» سعيد عقل لقرون طويلة آتية، لأنّ جوهره المتجدّد من جيل إلى جيل سوف يقدّم لنا وللتاريخ صُوَرًا لامتناهية من حقيقة سعيد عقل المنفتحة على الآتي والمتجدّدة مع الأيّام. إنه آتٍ إلينا، هذه المرّة، ليبقى؛ آتٍ ليحفّزَ أجيالَنا القادمة كيف تكونُ العبقريّة، وكيف تُمارسُ العبقريّة فتُعطي عطاءها غيرَ المسبوق وغيرَ القابل لأن يتكرّر.





وتحت عنوان: سعيد عقل إكليل غار على جبين وطن!، وفي لقاء مع طلّاب الجامعة في دير القمر، قالت أستاذة مقرّرات اللغة العربيّة د. سوسن النجّار:

لم نكن لنصدّق أنَّ «الأستاذ» سيغيب عنَّا؛ وكأنَّ تلك السنوات التي تجاوزت القرن ليست بكافية، فنحن لا زلنا عطاش زاده، وكنَّا لا زلنا ننتظر المزيد... ولكنَّه، يحقّ له، وقد دخل ملكوت البقاء، أن ينام قرير العين؛ فلقد تجاوز الفناء بخلود كلمةٍ ستبقى أبدًا مدينة لأستاذها ومعلّمها، وعاجنها... وصانعها ومُلَعّبها!

«أنا لا أبدأُ أبدًا، بلْ أُكمل»... هكذا كان يقولُ الشاعرُ الكبيرُ سعيد عقل عن إبداعهِ الشعريّ، وحسبُنا اليومَ، وقد فارقَنا جسدًا ليبقى النموذجَ الحيّ لنهرٍ فوّارٍ لا ينضب من العطاء والفنّ والسموّ الفكريّ والأدبيّ، أن نكمل؛ لأنَّ ما قيلَ، وسيُقال في سعيد عقل لا نهايةَ له، بل هو بدايةٌ مستمرّةٌ استوحَتْ انبثاقَها من صاحب الأعوام الاثنين بعد المئة، وفي قلبهِ ضجيجٌ دائمٌ يتفجّرُ بألفِ ينبوعٍ وينبوع ليروي به الأنام.

لعلَّ هذا الطفلَ الوحيدَ على شقيقتين لم يعرفْ وهو يبصرُ النورَ في بيتِ ذويه الفخم المتربّع في صدرِ عروسةِ البقاع «زحلة» في ٤ تمّوز من عام ١٩١٢، بأنَّه سيكتبُ للتاريخِ فصولاً، وسيقودُ الفنَّ الإبداعيَّ في صولاتٍ وجولاتٍ، يخرجُ فيها دائمًا خروجَ المنتصر، المتوّجِ بإكليلِ الغار، والعازفِ دائمًا وأبدًا عن المساومة على حسابِ الحقّ والجمال والحرّية.

حُلُمُه الأوّلُ كان أن يصبحَ مهندسًا، وكان ولعُهُ بالأرقام والرياضيّات كبيرًا جدًّا، لكنَّ الأقدارَ كانت له بالمرصاد، فتحوَّلَ الحُلُمُ، بفعلِ ظروفٍ ماليّةٍ قاسيةٍ ألمّتْ بالبيتِ العريق، إلى صفحاتٍ تمتلئُ عزفًا من روحٍ خصّها الله بفرادة فكريّة، فتوهّجت ألقًا يفيضُ برائع الكلام وأجودِه، وهو بعدُ في الخامسةَ عشرةَ من عمرِه.

رحلتُهُ الأولى عبرَ الصحافةِ والتعليم، امتدَّ جزرُها في الثلاثينيّات ليصلَ إلى أبوابِ كبرياتِ الصحف والمجلّات التي تتزعّمُ تيّارَ الكَلِمِ في العاصمة بيروت آنذاك، فدخلها دخولَ الفاتحين، إذ سبقتْهُ شهرتُهُ الفريدة، والتي حصّنها علمًا ومعرفةً وتعمّقًا في كلّ العلوم، وأشدِّها احتكاكًا بالإنسان، والخلق، والوجود، بعد أن كرَّس من السنواتِ ما يزيدُ عن الثلاث في استقصاء المعلومات من خلال أمّهاتِ الكتبِ القيّمة التي تمكّن من الاستغراق فيها في مكتبة أحد الضبَّاط الفرنسيّين. وفي هذا يقول: «لماذا قرّرتُ الانتقالَ إلى الأدب، مع أنَّ الأدب ليس ميلي ولا طبيعتي؟ لسبب بسيط: اكتشفتُ أنَّ الأدبَ هو الحقلُ الوحيدُ الذي يمكنُ أن أدرسَه لوحدي وأقومَ بتحصيله فيما أنا أعمل. عندها صمّمتُ أن ألجَ عالَمَ الأدبِ مثقّفًا ضليعًا فيه، والطريقةُ الوحيدة: أن أطالع الأدبَ العالميّ كي أعرفَ من أوّل الطريق ما الذي يجب أن يكونَ في رأس الأديب ليكونَ خلاَّقًا».

وهكذا، زيَّن اسمُ سعيد عقل، بوقار العارف، وتمكّن العالِم، صفحاتِ «البرق» و«المعرض» و«لسان الحال» و«الجريدة» ومجلَّة «الصَّيّاد». وتابع رسالة التعليم، فدرّس في مدرسة الآداب العليا، وفي مدرسة الآداب التابعة للأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة، وفي دار المعلّمين، والجامعة اللبنانيّة. كما درّس تاريخ الفكر اللُّبنانيّ في جامعة الرُّوح القُدُس، وألقى دروسًا لاهوتيَّةً في معهد اللاّهوت في مار أنطونيوس- الأشرفيّة، وكان لجامعة سيِّدة اللويزة أيضًا من فكره وإبداعه نصيبٌ خلال السنوات الطوال المنصرمة.

استطاع سعيد عقل، وبفترة زمنيّة قياسيّة أن يصبحَ الرقمَ الصعبَ في المعادلة الأدبيّة والفكريّة، وفي تغيير بعض السلوك الذي كان متّبعًا منذ عهود، فكان أن أنشأ مدرسةً في فنّ الكتابة، أو صناعة الكتابة، كما يقول (تطوّرت إلى مقرّر جامعيّ درّسه بنفسه، وهو بعنوان: «كيف تُبدع؟»)، انضوى تحت لوائها كثرٌ من أصحاب الأقلام الفذَة، والأعمال المجيدة التي لهم بها تاريخُنا وإرثُنا يشهد، [أمثال: الأخطل الصغير، وأمين نخلة، وبطرس البستانيّ، وخليل وسعيد تقيّ الدين، وفؤاد افرام البستانيّ، وبولس سلامة، وأنطوان قازان، وغيرهم]. ما دفع صلاح لبكي، وهو واحد من مؤسّسي «الجامعة الأدبيّة» إلى جانب فؤاد افرام البستانيّ وشارل قرم وتقيّ الدين الصلح للقول: «يوم يبدأ هذا الشاعر بنشر قصائده، سنكسر أقلامنا»!

نعم، كان صدى قلمِ سعيد عقل المبريّ بحُلُمِ تحقيق «ورشة إبداع في لبنان» مدوّيًا، خفّاقًا في الأعالي، وها هي النتاجات الشعريّة والأدبيّة ترى النور، فكانت «بنت يَفتاح» المأساة الشعريّة، وقصيدته التاريخيّة الوطنيّة المطوَّلة، بل الملحمة: «فخر الدين»، وتلتها «المجدليّة» فـ«قدموس»، والمجموعة الشعريّة الرائعة «رِندلى»، و«مُشكلة النخبة»، تلاه كتاب «كأس لخمر» و«لبنان إن حكى»، والديوان الشعريّ «أجمل منك؟ لا...»، ثُمَّ «يارا»، و«أجراس الياسمين»، و«كتاب الورد»، و«دُلزى»، و«كما الأعمدة»، و«خُماسيَّات»، و«خُماسيّات الصبا»، وديوان شعر باللّغة الفرنسيّة أسماه « الذَّهب قصائد»، هذا عدا المقالات والإبداعات التي كانت تخرج عن دفّتي الكتب لتَلقى مكانَها مباشرة في قلوب محبّيه وقرَّائه ومستمعيه.

ولم تقف قصائده عند حدود الإيقاع الشعريّ، بل تعدّته لتتّحدَ بالألحان، وبصوت السيِّدة «فيروز» الملائكيّ، فكانت: «ردّني إلى بلادي»، «غنّيتُ مكّةَ»، «شام يا شام»، «من أين؟»، «أمّي يا ملاكي»، «شال»، «يارا»، «مشوار»، «بحبَّك ما بعرف»، «مرجوحة»، «لمين الهديّة»، «فتّحهن عليِّ»، «دقّيت طلّ الورد عالشبَّاك»، وغيرها ممَّا يضيق المجال في إيراده الآن.

هذا، وسعيد عقل يترجمُ دائمًا مبادئَه وأفكارَه بنتاجه الشعريّ والأدبيّ، عازيًا إلى الشاعر خلقَ الثالوث العظيم: «الشعب- المرأة- القارئ». فالشعب عنده وطنٌ، وعدالةٌ، ووعيٌ، لذا فحبُّه لوطنه يتخطّى دائمًا الكلماتِ المخطوطةَ، فقال في لبنان: «لو لم يكن لي ربٌّ أعبدُه، لكان لبنانُ هو ربّي». دافع عن لبنان وتاريخه وأهمّيته إلى ما لانهاية، وأثمل قصائده بشعاع النور الذي أشرق عليه من هذا «اللبنان» الذي ترابه زُرع في الجنّة، وأرزه في عرش الربّ العظيم!

أمَّا المرأة، فلها عند سعيد عقل المكانة «الممتنعة»، المكتنزة عفّةً وشموخًا، فقرّبَها من الجمال الأسمى، مستندًا إلى دورها المبدع كواهبةٍ للحياة، كأمّ، وكزهرة تتفتّح طيبًا وعطرًا، لأنَّ العطرَ من ذاتها، ومن إبداعها، مؤمنًا بثالوث شعره في قدموس: «الحقّ، والخير، والجمال»، والذي يتلاقى مع ثالوث العقل المسيحيّ: «القدرة، والمعرفة، والمحبَّة». وفي هذا المعنى يقول شعرًا، في كتابه «خُماسيَّات»:

«بكتب، ثلاثة بيخطرو عالبال:
وجّ اللي هزّتلي وغنِّت همس،
وأوّل بنت لفّيت عنقا بشال،
والشمس، صورة هالخلقني وقال:
ابداع، انتخي، عطيهن... وضلّ الشمس»!

وإذا كان الشعرُ لدى سعيد عقل هو «افتعالٌ لأجلِ هدف معيَّن»، فإنَّ تنشئةَ القارئ هي فرعٌ من هذا الهدف؛ لأنَّ دورَ الشاعر هو البناءُ والاعتلاء. فالقارئُ المثقّفُ نتاجُ الشاعر المثقّف المتقنِ لصنعته وإبداعه. ولهذا، وضع سعيد عقل جائزةً ماليّة باسمه (في ٤ تمّوز عام ١٩٦٢، وتوقّفت قسرًا عام ١٩٧٥) تُمنح لمن يبدع، أو يفيد بإبداعه لبنان والإنسان والإنسانيّة جمعاء، فكانت أن مُنحت لـمئةٍ وستّين شخصيّةً، لبنانيّةً وغير لبنانيّة، على مدى تلك السنوات.

المشوارُ مع سعيد عقل طويل جدًّا، ولا يمكنُنا أن نحدَّه بصفحاتٍ معدودات، ولكنّنا آثرنا في هذا اللقاء الوجدانيّ الحالم أن نعطي لمحةً، وإن موجزةً عن هذا المبدع الكبير من لبنان، آملين بأن يجدَ فيه طلاّبنا الأعزَّاء قدوةً ومثالاً في اجتراح المآثر، بفعل الإرادة والتمسّك بالإيمان الصادق، وأن يتعلّموا من هذا العملاق الذي لم تقعدْه السنوات عن إتمام رسالته كإنسان، ولم يثنِه القدر عن السير في معترك الحياة بكلّ إباء وفخر كونه إنسانًا، إذ يقول:

«أقولُ: الحياةُ العزمُ، حتَّى إذا أنا ... انتهيتُ تولّى القبرُ عزمي من بعدي»

فمنه تعلّمنا ولا زلنا، بأن تكونَ أحلامُنا راقيةً، حدودُها الفضاء، وبأن نكونَ كبارًا، فالحياةُ خُلقت للكبار!

فلروح هذا الكبير ألف تحيّة، وعهدٌ بأن نبقى أوفياء لأدبه الفذّ، وهو الظاهرة المبدعة التي يصعب أن تتكرّر، ولتكن روحه في السماء محلّقة في حضرة وجه حبيبه الأوحد:

«مرّة سمعت عصفور شو مهموك
مسلطن، وعميخطب ويتجلَّى
يقلُّو لإبنو طير وتعلَّى
فتافيت خبز قلال بيقدّوك
بس السما رح تلزمك كلاَّ»

■■■■



ومن زحلةَ جاءنا صوتٌ آخرُ، صوتٌ بلديٌّ بردونيٌّ جليُّ الدّأبِ في صنعةِ الأدبِ، هو د. راني جوزف الغصين، فرفعَ يمين الشّهادةِ يقولُ:

سعيد عقل مَلِكٌ على سُدَّةِ الشِّعر بتاجٍ وصولجان!

ترجَّل الفارس عن صهوة جواده ورحل خلف الآفاق ومطاوي الزَّمن. هوى المارد وأسلم الرُّوح بعد نيِّفٍ وأربع سنوات بعد المئة، بعد أن «ملأ الدُّنيا وشغل النَّاس» فكان خِدْنًا للمتنبِّي أمير الشِّعر العربيّ، وسيظلُّ إلى آلافٍ ومئينَ يشغل الخواطر والضَّمائر ويهزُّ أسنَّة القوافي والأبيات والقصائد.

هل هي خَسارةٌ لزحلة ولبنان به؟ أم أنَّها خَسارةٌ للشَّرق والغرب، وقطعٌ لِوتر الشِّعر المُرِنِّ في آذان العصور؟

رأيته طودًا يَجبه العواصف والأعاصير،

يُنقِّب في تاريخ لبنان عن العظائم الَّتي لا يضارعُها مثيلٌ في حضارات شعوب الأرض قاطبة.

عرفته وأنا طفل، وقد طالما زرته مع والدي الشَّاعر جوزف الغصين وقدَّم لي دواوين شعره ممهورةً بإهداءٍ منه وتوقيع. علاقة والدي به ترقى إلى سنة ١٩٥٠ يوم كان تلميذًا له في كلِّيَّة مار أفرام، ثمَّ صار أستاذًا في هذه المدرسة وشريكًا في ٱستثمارها. لقد عمل والدي معه في ثورة اللُّغة والحرف وأَطلع الدِّيوان الشِّعري الثَّاني «نُوَّار» سنة ١٩٦٢ بعد «يارا» الدِّيوان الأوَّل عام ١٩٦١.

دعابته الخياليَّة: «نُلبْنِنُ الشَّرق ونُزَحْلِنُ العالم» حَدَتْ بوالدي إلى وضع مُطوَّلة شعريَّة نزَلت مع أُخرى في ديوان: «حاضرة الفكر بيروت وزحلة حاضرة الشِّعر»، وقد سبق ذلك قصيدة نظمها الوالد في عقل ولبنان قد تكون في عِداد الملاحم بعنوان: «لبنان باقٍ، إلى سعيد عقل ولبنان».

هو أخذ عن أُمِّه حسَّ الجمال وعن أَبيه عدوى الكرم والأنفة والتَّسامح.

سعيد عقل، من منظوري، وبعد دراستي له في أطروحة الدُّكتوراه وسَبْرِ أغوار محيطاته الشِّعريَّة العميقة، قامَةٌ شعريَّة، فكريَّة، فلسفيَّة، لغويَّة، ولاهوتيَّة سامقة؛ لقد أَيقنتُ أنَّه من أساطين كيمياء الجمال، فأَعلنتُ بثقةٍ أنَّه تفوَّق في هذا المجال وفي الاتِّجاه الرَّمزي، على أُستاذيه: مالارميه، فرلين وفاليري.

إنَّه زعيم الرَّمزيَّة في لبنان والشَّرق، وصانع المسرحيَّات والقصص الشِّعريَّة، من المجدليَّة، إلى بنت يَفتاح، إلى قَدموس الَّتي هي، وبحقٍّ، ملحمةُ لبنان بلد العظائم، واعيًا في صَدره أقوالَ العظماء في وطنه الفريد، مُنتشيًا بقول عضو الأكاديميَّة الفرنسيَّة غبريال هانوتو: «إن لم يكن لبنان من أعلى قمم الجغرافيَّة، فهو، بلا جدال، أعلى قِمَّة في التَّاريخ»، وقول وِل ديورانت الأميركيّ في كتابه «قصَّة الحضارة»: «أعظم هديَّة قدَّمها الإنسان إلى نفسه منذ آدم وحوَّاء وإلى اليوم هي أَبجديَّة قَدموس».

ثقافة سعيد عقل عاموديَّة مُنتخَبة، مكثَّفة لا تتَّسع للهزل والتَّفاهة والعاديِّ من الفِعال. يكفيهِ فخرًا أنَّ رعيلاً من أساتذةٍ كبارٍ وشعراءَ تتلمذوا له وتأثَّروا به، منهم عاصي ومنصور الرَّحباني، عمر أبو ريشة، الأخطل الصغير وغيرهم.

قال فيه نزار قبَّاني: «سعيد عقل أكبر شعراء العربيَّة إن كان يرضى». وقال صلاح لبكي، لمَّا كان عقل في أوَّلِ عهده بالشِّعر: «يوم ينزل هذا الشَّاعر بيروت وينشر قصائده، سنكسِر أقلامَنا».

رشَّحه بولس سلامة لنيل جائزة نوبل، وقال فيه قصيدة من أجمل ما كَتب، مطلَعُها:

مَلِكٌ يَراعُكَ يا سعيدُ فألخُلدُ أيسرُ ما يُريدُ
قلمٌ تعمَّدَ بالجمالِ فكلُّ أُنملةٍ وريدُ
ما البُحْتريُّ وأَخطلٌ ما أبنُ الدُّمَيْنَةِ ما لَبيدُ
خَوَلٌ وراءَك مِثلما خَفَّتْ إلى العُرسِ العَبيدُ

سعيد عقل لن يموت، إنَّه حيٌّ في ضمائرنا والأفئدة، وسيظلُّ في آتي الأجيال يرقب لبنان ويسهر على أرزه وقُراه الَّتي «في جوارِ الغمامِ زرقِ الضِّياءِ».

سعيد، يا شاعرَ المجدِ، أَنتَ مَنْ رَصَّعَ مجدَ لبنان.

«لو لم يكن لي ربٌ أعبُدُه، لكان لبنانُ هو ربّي»

*ومن سيدني- أستراليا، شارك الجامعة احتفاءَها بسعيد عقل وجهٌ ضاءَ فيها سنواتٍ سمانًا، هو د. **جميل الدويهي**، فوقّع هذه القصيدة إلى الشاعر الكبير في يوم رقاده:*

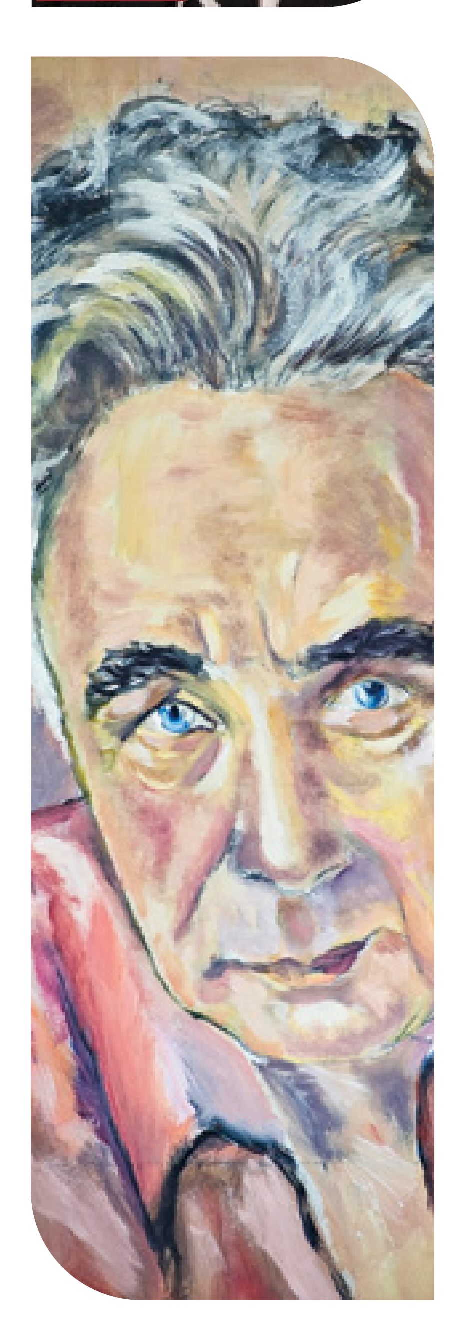
د. جميل الدويهي

تداعت عروشُ الفكرِ وانهارَ معبَدُ وطارَ جَناحٌ في العناوينِ أسودُ،
وضجّت خيولُ الموتِ في كلِّ ساحةٍ كأنّي بها من بعضها تتولّدُ...
وحين يطولُ المبدِعون سكوتُهم، فنحنُ جميعاً في المدى نتشرّدُ
ونبكي علينا، إذ فقدنا وجودَنا ولم يبقَ إلاّ صرخةٌ تترددُ...
وإن صَحّ أنّ الموتَ يمحو بكفِّه فأنتَ الذي في موتِه يتمرَّدُ
وإنّ جبالاً في السماءِ رؤوسُها تظلّ طِوالاً، والأعاصيرُ ترعُدُ
وإنّ بحاراً لا تجفُّ مياهُها وإنّ هديرَ الشعرِ لا يتبدّدُ...

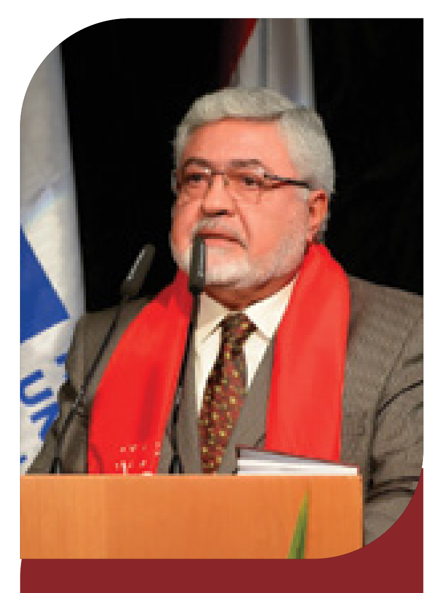
يقولونَ: قد غطّى الضبابُ مدينةً وما ظلّ في الشرقِ البعيد مُغرِّدُ
وكانت له في كلِّ فجرٍ قصيدةٌ إليها يتوقُ العاشقُ المتوجّدُ
صروحاً بناها، فالعواميدُ مرمرٌ وقاماتُ شعرٍ في المدى تتصعّدُ
ونحْتٌ بإزميلِ الخيالِ، فوَردةٌ على شَعرِ «يارا»، وهْي تجري وتقعدُ
وشالٌ رقيقٌ حول خصرٍ مُراهقٍ يتيهُ على الدنيا، ولا يتقيّدُ
وغمزٌ إلى العشّاقِ يمضي بحدِّه فهل من نجاةٍ، وهْو سيفٌ مُهنّدُ؟
إذا قيل شعرٌ، قيل: أنت كبيرُه فأنتَ على عرش الكتابةِ سيِّدُ
ملأتَ كؤوسَ الحبِّ خمراً عتيقةً، بها رِندلى جُنّت، وأرهقَها الدَّدُ
وأطلعتَ من لبنانَ كوناً، فما له حدودٌ، سوى الفكرِ الذي يتوقّدُ...
وكم من صغيرٍ قد رماكَ بسهمِه وفي ظنِّه أنّ العماليقَ تسجُدُ...
وكم من قصيرٍ لاعبَ السيفَ لحظةً وعند النزالِ انهار، وارتجفت يدُ
فأين اكتشافُ البُعدِ؟ أين قصيدةٌ من السحرِ، ليست تَشتَهي وتقلِّدُ؟
مساكينُ كانوا يذهبون إلى الوغى وأفراسُهم فوق الميادين تجْدُ...
ولم يكتبوا شعراً يليقُ بشاعرٍ وما رصّعوا بيتاً يعانقهُ الغدُ...
يسيرون تيهاً، والبلاءُ بلاؤهم وأشعارُهم في السوق لحمٌ مقدّدُ
ففي كلِّ تاريخٍ مسيحٌ مخادعٌ وفي كلِّ عصرٍ مدّعٍ «يتبغْددُ»
قليلٌ حماةُ الدارِ، والقول سائرٌ: لغيرِ الرماحِ البيضِ ما كان سُؤدَدُ

ومَن قال إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى؟ ومن قال إنّ القبرَ حبسٌ مؤبَّدٌ؟
صغيرٌ مكانُ النعشِ، والبَدعُ واسعٌ فهل ينطوي في عتمةِ الأرض فرقَدُ؟
من الناسِ من كانت ظلالاً حياتُهم ومنهم كبارٌ في الزمانِ تمجّدوا...
ومنهم على حصدِ الرياحِ تهافتوا ومنهم على غزو النجوم تعوّدوا...
فيا عقلُ، أنتَ النارُ بين ضلوعِنا، فلا تنطفي يوماً، ولا نحن نَبرُدُ...
وما زحلةٌ إلاّ عروسٌ تمايلت على النهرِ، والأطيارُ في الحور تُنشِدُ
تعودُ إليها متعباً، وتضمُّها، وقبرُكَ «مكتوبٌ عليه»: مُخلّدُ...

سعيدُ، بكاكَ الغيمُ، والثلجُ هاطلٌ ونعشُكَ في البهو الحزينِ مُمدّدُ
وصارت من الزلزالِ في الأرضِ نكبةٌ فلم يبقَ مرفوعاً بناءٌ معمَّدُ...
ولكن تمهّلْ، أنتَ لستَ براحلٍ فروحُك أنغامٌ، وبيتُك مقصَدُ
ونحنُ جميعاً من قوافيك نغتَني ولولاك ما كنّا الصباحَ نُهدهِدُ...
فيا سيّدي، يا من أضاءَ مدينتي بنارٍ إذا أطفأتُها تتجدّدُ...
سقتْك الغوادي يا حَبيباً مودّعاً ويبقى لنا قبل المواعيدِ مَوعدُ.



مدارات



ولنا نحن في منبرنا قولٌ يقالُ:

جئتَنا نبيًّا وارتحلتَ إلها

جورج مغامس

غابتِ الشّمسُ
وآبَ الشّاعرُ إلى بيتِ المساء
كان البيتُ فارغًا إلاّ
من كأسٍ لخمرٍ
وكتابٍ لوردِ السّماء..

▪▪

كما الاعمدةِ تعرّى
عَبرت بمائه حدائقُ اللؤلؤ
وزفرافُ هالاتِ البهاء
ألقى عصاهُ على عطاياهُ
تضوّعَ
ضمّةَ إكسيرٍ
إبريزٌ تَصفّى
تَوشّى بومضِ الحبِّ في كفِّ السّخاء
استراحَ على مراياهُ
صلّى صلاتَه الاخيرةَ
تجلّى
أسندَ رأسَه على شِعرِه
ونام..
نامَ الشّاعرُ بسكينة!

▪▪

في غمرةِ الليل
والليلُ حشا أحلامَ الصّبابةِ والحنين
قرعت مجدليّةٌ أجراسَ الياسمين
شاعَ للعطرِ لسان
أقبلت رندلى
أقبلت دُلزى
غاوتهما يارا
وفتحت بنتٌ بفتاحِ دفاترَ المجدِ وكُتُبَ الاساطير
فقدموسُ قالَ
ولبنانُ حكى
ونخبةٌ تبادعت
أحرفٌ تكاملت..
وتعالت على يَمٍّ وقممٍ
وجوهٌ حميمة
وجوهٌ صميمة
أمٌّ أبٌ خِلٌّ صَحابة
وبُناةُ حضاراتٍ عظيمة

تراءى نهرٌ كرومٌ قِباب
وجبلٌ فوق سهلٍ فوقَ بحرٍ فوقَ قرىً زمرّداتٍ ومُدُنٍ من ذهب
وهفت حريّةٌ تخفقُ بجناحيها فوق كرامةٍ وعنفوان
وتبدّت أبجديّاتُ حرفٍ رقمٍ فكرٍ علمٍ وأرجوان
حلَّ اللهُ
تجلّى يسوعًا مسيحًا قيامة
وعند قلبِهِ مريمُ بحضنِها كلُّ الخليقة..
واستفاقَ!
.. فلمّا استفاقَ
كان الفجرُ واقفًا ببابِ الشّفق
يؤْذِنُ بشمسٍ جديدة
أجملَ منها؟
لا.
ما مرَّ ببالِهِ ولَم..
هذا المعلّم!!

▪▪

فيا المعلّم
يا حَبرَ الشّعرِ والنّثرِ ولازوردِ المعارفِ والقيمِ
يا إيلَ البكاراتِ والعَماراتِ وصياغاتٍ مدهشاتٍ عصيّة
ولك على اللغةِ أمرٌ ونهيٌ..
يا صَناعَ الفتحِ الكُبارِ تمرّس بالصّعبِ ترسّل بالبدعِ
مَدْرَسَ التّوليدِ في جمى الانقى وجمى الارقى تفكيرًا وتعبيرا
وزغردَ البشائرَ بطولاتِ جمالاتٍ وأفراحا..
يا جهةً سابعةً في مملكةِ الكلمةِ التي كوقعِ الهنيهةِ في الابدِ
لا يَشي بصليلِها بصهيلِها بالجِدا بمواجدِ الاكبادِ
إلاّ النّغمُ الجسّاسُ بين كونِ الاحرفِ وتكوينِ العباراتِ
فصارَ مركبةً إيليّويّةً
لوعيٍ زاوجَ اللاوعيَ ومسّه الوحيَ العجيب
وصورٍ تناسجها مَدُّ ألوانٍ في الحواسِّ وجَزْرُ ظلالٍ في الاحاسيسِ
وجَساراتٍ حطّمت أصنامًا وشهرت على مناطقِ الحظرِ الاجتهادَ..
أيّها الباني المُعلي في عمقٍ وفي بُعدٍ جواهرَ المعاني وطقوسَ بوحِ المُرادات..
يا عاشقَ المطلقِ تَنحتُ في الضّوءِ تَقدحُ الشّررَ
يا السّاحرُ الماهرُ الاطلعَ الارضَ الانزلَ السّماءَ
ومَهّدَ للقولِ الجمالَ وللجمالِ الفنَّ وللفنِّ اللهبَ
وبالغتَ في البلاغةِ تكثيفًا تجريدًا وتجويدا:
بصيرةٌ تَجاوَزُ
تَنفذُ
تدركُ باطنَ الباطنِ
سرَّ المحاسنِ

تُحوّلُ العينَ الأذنَ الذّهنَ حالة
شيئًا سعيدا
تَمهرُ بالخَلقِ خَلْقًا جديدا..
يا المعلّمَ الوَحَدَكَ بلغتَ بالسّرِ هذا القَصيّ
ووَجَدْتَ له مسرحًا واحتفالا
عَنقَدَتَ التّراكيبَ
والدَ العصرِ أنتَ!
مثلُكَ
فيهِ
قَبلَهُ
أُفَّهُ لم تلدِ
وبَعدَكَ
سحرُ البيانِ على هَمٍّ
ودواوينُ العَرَبِ
تبكي على مجدِ الشّعرِ والادبِ!

▪▪

سعيدُ عقل يا السيّد
إلى أعراسِكَ دعوتَنا وبسطتَ الولائمَ
لكنّنا اجتنبنا الباهراتِ أنجمًا وأقمارا
وملْنا إلى هَرجٍ ساسةٍ ومَرجٍ سيقانٍ
وصيّاحينَ يَسرقونَ اللهَ والدّينَ
ركبنا السّهلَ..
وانتهينا:
لا فعلَ لا فاعلَ
لا تعبيرَ يُمتعُ
لا تعبيرَ يُفيدُ...

▪▪

شاعري الحبيبَ طوباكَ
تباركت رؤاكَ
تباركت يداكَ
فإنّكَ إذًا
جئتَنا نبيًّا وارتحلتَ إلها!!

منصور عيد الانسان والأديب والأكاديميّ مكرَّمًا في جامعته

على مدى نحوِ أربعِ ساعاتٍ، في ثلاثِ جلساتٍ: افتتاحيّةٍ وتقويمتَين، نهارَ ٢٧ ت٢ ٢٠١٤، تحدّث غيرُ مسؤولٍ وزميلٍ وعارفٍ دارسٍ عن منصور عيد الانسان والأديب والأكاديميّ، فتناولوا جوانبَ، وغابت عنهم أخرى، ليس عن قلّةِ قدرةٍ، ولكن لكثرةِ شعابِ الرّجلِ...



في الجلسة الافتتاحيّة،

قال رئيس الجامعة الأب وليد موسى:

.. أمّا وأنّ الذكريات موجعة، فتعالوا نفكّر بالمستقبل وبدور الجامعة كما كان يريدها منصور عيد.

كان الراحل الكبير يسعى إلى أن تكون الجامعة طائر الفينيق الذي كتب عنه إحدى رواياته؛ بمعنى أن تكون هي رائدة النهضة وباعثة التحرّر والانفتاح. الجامعة، بالنسبة إليه، ليست كتبًا ومناهج وأساتذة وطلاّبًا فحسب، بل هي، قبل كلّ شيء، رسالة إنسانيّة تنتفض على الماضي، وتتمرّد على التقاليد، وتطير نحو المستقبل بأجنحة الثقافة والحضارة والحريّة.

هذه الوصيّة التي كتبها منصور، من خلال رواياته المتعدّدة وقصصه وأبحاثه وقصائده، نحاول، نحن، أن نجسّدها، من خلال رؤيتنا لهذه الجامعة، ولاسيّما في هذه الظروف المأساويّة الصعبة التي يعيشها لبنان والمنطقة معًا.

وقال نائب الرئيس سهيل مطر:

.. ويا جاكي

منصور في قمّة سعادته: إنّه يصلّي... يحمل وسام ونتالي في قلبه، وكأنّهما القربان الشهيّ؛ تعشوشب بتدّين اللقش على زنديه، فتزهر ابتسامته وردًا ولوزًا وعنبًا؛ تتنقّل عيناه على تلال ووديان وبحار، فيرفع جبهته العريضة نحو السماء: يا ربّ، إحفظ لنا هذا الوطن. يا ربّ، لا تهجر سما لبنان.

نعم، يا جاكي، منصور في عليائه، ينظر إليّ، ويقول: هذي جاكلين، أمّي وأختي وحبيبتي وصديقتي، ولا تنسَ زميلتي وممرّضتي وأيقونة الصلاة وصاحبة النظرة الأخيرة. توجعني دمعة في عينيها، وجراحٌ في نبرة صوتها. قبِّل يديها، وقل لها: الحياة لكِ، إفرحي، سامحيني إن أخلفتُ وعدًا وموعدًا. فأنا على العهد باقٍ. وغدًا، أعدكِ، سأكتب قصّة جديدة بعنوان: سوف نبقى على موعد.

وقال العميد د. كمال أبو شديد:

.. ومنصور عيد المفكّر والانسان يحتضن اليوم مرّة أخرى زملاءه وطلاّبه في الجامعة التي تفانى في خدمتها مساهمًا في تطوير كافّة مفاصلها الأكاديميّة، ما انعكس إيجابًا على النهوض بالعمليّة التربويّة في الكليّة والجامعة والمجتمع بهويّة وطنيّة وثقافيّة أصيلة...

وقالت السيّدة جاكلين عيد:

.. أنا هنا اليوم! أتيتكم شاكرةً كلّ من أعدّ وشارك في هذا المؤتمر فردًا فردًا، أنتم يا من كنتم وستبقون أهلاً وأصدقاء، وأخصّ بالذكر كليّة العلوم الإنسانيّة... وأختم بكلمة لمنصور: «بغيابك يا منصور حمّلتني الكثير، قدّرني الله على أن أكون على قدر هذه المسؤوليّة».

ثمّ كانت جلسة أولى تحت عنوان: منصور عيد الانسان

فقال الأب بولس وهبه:

.. إذا طُلب منّي أن أتذكّر أمرًا واحدًا من منصور، ماذا يكون؟ ابتسامته المُعدية، والتي تختصر كلّ ما فيه. تختصر طيبته وتواضعه وسموّ علمه ومحبّته وانتصاره للحقّ دون تعالٍ، وفرحه الّذي كان اسمًا مرادفًا له، وهو الّذي عاش وعيّش من حوله في عيد فرح دائم مستحقًّا بجدارة كُنيته. كنت كلّما قدَّمت له إحدى كتاباتي أو ما شابه أخاطبه بـ«المنصور بالله» عانيًا ما تعنيه العبارة بكمال مدلولها، وغامزًا من قناة التاريخ العربيّ الّذي حاول أن يلمّع منه الثّمين ويُبرزَه ناصعًا مُحبّبًا من خلال أبحاثه وإسهاماته العديدة والمتعدّدة...

وقال د. ضومط سلامه:

.. من الصعب - إن لم يكن من المستحيل- أن يُختصر منصور بتوصيف الزمالة، أو بأيّ توصيف كان. إنّه الرجل الإنسان بكلّ بساطة وبكلّ ما توحي كلمة إنسان من قيَم، ببسمته الساطعة الصادقة التي تقهر الألم، ونخوته التي لا يثنيها تعب، وتواضعه المُحرِج، وبساطته التي لا حدود لعمقها، وجلسات القهوة الصباحيّة معه التي لا تُنتسى،...



كان يسعى إلى أن تكون الجامعة طائر الفينيق.. رسالة إنسانيّة تنتفض على الماضي، وتتمرّد على التقاليد، وتطير نحو المستقبل بأجنحة الثقافة والحضارة والحريّة.

الزمالة مع منصور لم تَقتصِر على المعنى المحدّد في معاجم اللغة.. بل تخطّتها ودمجتها مع الصداقة والأخوّة والأبوّة والمرجعيّة العلميّة.. وكلّها تجوهرت وانصهرت وبلغت ذروةً في النضوج والكمال...

وقال د. عصام الحوراني:

.. وكان منصور عيد معلِّمًا ومربِّيًا بامتياز، يعرف تلاميذه وطلاّبه جميعهم، على الرّغم ممّا يتميّز به كلّ طالب مِن وضع خاصّ، فكانت لديه المرونة الفائقة في حلّ مشكلات بعض الطلاّب وبسرعة. أذكر أنّه في مرّات كثيرة، وفي فصول متنوِّعة، ولاسيّما يوم صار رئيس القسم، كان يأتيني بطالب أو بأكثر، ويقول لي هذا الطالب لديه وضع خاصّ، وذاك لديه وضع آخر، ويشرح لي ما يعانيه هذا أو ذاك من الناحية الأكاديميّة، أو اللّغويّة، أو الإنسانيّة، ويطلب منّي أن أعامله بطريقة معيَّنة خاصّة، وأن أدرِّسَه في ساعات المكتب أو في غيرها دروسًا إضافيّة، ثمّ إنّه كان يستمرّ بمتابعة دقيقة لأمثال هؤلاء الطلاّب، من أجل تصويب الأمر إذا لزم، فيستقبلهم في مكتبه بكلّ محبّة وفرح، يناقشهم ويُشجِّعهم. أحبّه طلابه وصار بعضهم يُحبّ الأدب ويتذوّقه بفضل أستاذه الذي تفوّق في تقديم المادّة، كما وفي تعامله الإنسانيّ معهم، وذلك بأسلوب مميَّز رائد...

لقد قدّم خبراتِه الطويلة في مجال التعليم، وبخاصّة في مناهج تعليم اللّغة العربيّة منذ الروضة ولغاية الصفوف الثانويّة، فاستفادت مِن خبراته ومِن جهوده دورُ نشر معيَّنة، ومدارس متنوِّعة، في لبنان وفي بعض البلاد العربيّة. وله في هذا المجال دراسات أكاديميّة معمَّقة منشورة منها: «البرمجيّات التقنيّة في خدمة تعلُّم اللّغة العربيّة»، «التكنولوجيا وتفكيك بنية الشعر»، «موقع النصّ الأدبيّ اللبنانيّ في حركة التفاعل الحضاريّ»، «بين الفصحى والعاميّة»، «نحو براغماتيّة لغويّة»...

أمّا نيكول ريشا، وكانت من طلاّبه، فممّا قالت:

كيف لي أن أشارك بالمؤتمر وأنا عرفت الدكتور عيد لفترة وجيزة؟ لكنّني قلت «محظوظةٌ أنا»: أوّلاً، لأنّ معرفة الدكتور عيد في العمق ليست بعدّ السّنين، فهو يدخل

القلب ويتملّكه دونما استئذان في اللحظة التي تتعرّف فيها عليه؛ وثانيًا، لأنّ موضوع المؤتمر يتجانس وموضوع أطروحتي للماجيستير في الترجمة (فقد ترجمت الفصول الثلاثة الأولى من رواية «خربة مسعود» إلى اللغة الإنكليزيّة وقمت بتحليلها)؛ وثالثًا، لأنّ كلامي سيكون من القلب إلى القلب، فليس بالتالي من ضرورة للقلق أو الارتباك... و«من علّم ما مات»!





*وبعد استراحة، كانت جلسة ثانية بعنوان: **منصور عيد الأديب والأكاديميّ**، ترأّسها وقدّم لها د. **أمين أ. الريحاني** بقوله:*

لئن كان الأديبُ والباحث في شخص منصور عيد عنصرين متكاملين لكينونة واحدة، ولئن كان هذان العنصران مادّتين فكريّتين تُغَذّي إحداهما الأخرى، فإنّ نبعةَ الإبداع لديه تبقى كامنةً في أدبه، شعرًا ونثرًا. وإذا شئنا مزيدًا من التحديد، فإنّ نتاجَه الروائيّ قد يكون الأبرز، وخربةُ مسعود تحديدًا تبقى في قمّة أعماله... ولقد اخترتها للإشارة إلى القيم الإنسانيّة في أدبه وإلى القيم الوطنيّة في نتاجه، وإلى بحوثه الأدبيّة والاجتماعيّة والفكريّة، وإلى علاقته العضويّة بلغته العربيّة.

*ثمّ تحدّث د. **دزيريه سقّال** عن القيم وطبيعتها عند منصور عيد فقال:*

ويمكننا أن نوزّع هذه القيم، كما تظهر من خلال «وبعدك يا بيروت» و«غدًا يزهر الثّلج»، على ثلاثة محاور رئيسة:

١. القيم الوطنيّة،
٢. والقيم الإنسانيّة العامّة،
٣. والقيم المشتركة، وهي التي تشترك بين الوطنيّة والإنسانيّة العامّة.

من هنا، فإنّ هذه القيم تشكّل بابًا للدخول إلى أقاصيصه ورواياته، حتّى تلك التي لم تشملها دراستنا هنا (مثل: طائر الفينيق، وشرارات الرماد، وغرباء، ودروب وأطياف، وسواها...).

لقد اختار منصور عيد أن يجسّد منظوره من خلال أقاصيصه ورواياته، وأن تكون هذه الأقاصيص والروايات انعكاسًا للمفاهيم التي يؤمن بها. هكذا فإنّ نصّه وثيقة عن حياته.

وانتهى سقّال بعد تفصيل وتوضيح إلى القول: وبعد، يمكننا أن نقول إنّ منصور عيد يبني رؤيته القصصيّة على أفق أخلاقيّ- قيميّ ينطلق منه لينقل رؤيته إلى العالم؛ فالعالم من غير قيم لا يعنيه، ويصير جحيمًا. أمّا الإنسان فيغدو كائنًا عاد إلى شريعة الغاب، في ظلّ سقوط القانون، واستِنّان قانون جديد ينطلق من المنفعة الشخصيّة- أيًّا يكن ملمحهَا: رجل الميليشيا، الحزب الواحد، رجل السياسة الساهر على مصالحه هو، التاجر الأنانيّ، إلخ... في ظلّ هذا القلق على غياب القيم الذي يعانيه منصور عيد، جاءت قصصه صرخة في وجه الجميع من أجل أن يتنبّهوا إلى ما يمكن أن يخسروا.



*وتناول د. **معين رحّال** القيم الوطنيّة في أدب منصور عيد بقوله:*

.. ولكي يتمكّن الكاتب من الامساك بخيوط اللعبة الروائيّة من جهة، والتاريخيّة الوطنيّة من جهة أخرى ، فقد نظر بثلاث حدقات:

أ. حدقة الراوي، الذي يتدخّل لسرد الأحداث وتحريك البطلين حينًا، وأحيانًا أخرى لعرض رأيه المباشر، ومواقفه الوطنيّة من تخلّي الدولة أثناء الاحتلال وبعده عن مناطق معيّنة من الجنوب، ورأيه في المقاومة والتحرير، وفي نزوح المسيحيّين وهجرتهم ومسألة بيع أراضيهم وتداعياتها .

ب. حدقة البطل، وعبره يكشف واقع المنطقة المسيحيّة في ما كان يسمّى بالشريط الحدوديّ وواقع أهلها ومعاناتهم في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ من جهة وضغط المقاومة من جهة أخرى.

ج. وحدقة البطلة، وعبرها يكشف الواقع الشيعيّ والتبدّل الذي طرأ داخله في فترة الحرب الأهليّة. ونشوء المقاومة وترسّخها في أوساطه، وانعكاس ذلك على مستقبل العيش المشترك.

*وجاء في خلاصة القراءة السيميائيّة السرديّة والاجتماعيّة والوجوديّة التي أعدّتها **د.سلمى عبدالله**، لرواية «خربة مسعود» في ميزان النقد الحديث:*

لأنّ الرّواية هي «عالم مميّز من الواقع حيث نعيش»، ولأنّ قراءتها تعني «أن نعيش مرحلة تاريخيّة في العمق»... كانت رواية «خربة مسعود» لـ «منصور عيد» المحطّة الّتي شئناها ميدانًا لقراءة سيميائيّة اجتماعيّة ، تبرز المحكيّ فيها وتنطق المسكوت.

ففي التّحليل السّيميائيّ السّرديّ، ارتبط الفعل، في هذه الرّواية، بعاملين (خوسيه ومريم) مأزقيّين أمام راهنهما، متناقضين معه، وعاجزين عن تكييفه مع هواجسهما وقيمهما المستحيلة، وإن عاشا لفترة محدّدة وقصيرة رهينتي الأمل الّذي قاد بعض خطواتهما «في مغامرة القيم الصّعبة». ومأزقيّتهما هذه بنت الرّواية على برنامجين سرديّين خاصّين بهما، انتهيا بالفشل في تحقيق موضوع الرّغبة الّذي تجلّى في لقاء الآخر ومحاورته، وإلغاء الحدود الفاصلة . ما جعل المُنتج الرّوائيّ يقوم على **تعارض بنائيّ** متحكّم في عالمه، من خلال مجموعة من المتعارضات التّصويريّة الحسّيّة والسّرديّة الّتي تُفرز في خانتَي البقاء والرّحيل.وأكّد قدرة الحرب والمؤقّت على اقتلاع الذّات من مطارح البقاء (النّزوح ،التّهجير، والهجرة ...). وبالتّالي، عجز هذه الذّات عن تجاوز الزّمن الذّاتيّ والجماعيّ، وعن تغيير الموروث الثّقيل والمفروض الجاثم على صدر المكان (الحرب، القلق، التّكفير، التّعصّب...). وتخبّطها في عبثيّة الحياة وهامشيّة القرار فيها، كما في دوائر الرّحيل المغلقة حيث تنتفي الحلول.

وفي التّحليل الاجتماعيّ، ومن خلال عمليّة ربط بين مجتمع النّصّ ونصّ المجتمع، تبيّن لنا، وانطلاقًا من خطابات العوامل والرّاوي، أنّ الخياليّ أو العالم المأمول يشكّل حيّز الرّغبة لأنّ الرّاهن فاض بما يحيل إلى الانفصال والإسكات، ولم يعمل على إنجاح الحوار بين المكانين-الحضارتين: المكان الأوّل (خربة مسعود- لبنان- الشّرق) المكان الثّاني (يونام- المكسيك- الغرب). بل أمعن في تغريب الذّات الإنسانيّة وفي انشقاقها عن عالمها، وذلك من خلال وجوه وجوديّة عديدة، أبرزها:

١. سيادة اللاّمعياريّة في حياة هذه الذّات المتخبّطة في أزمة قيم انتفت فيها المعايير الرّسميّة المتفق عليها،ما حال دون مساهمتها في رسم خطوط واقعها وتحديد اتّجاهاته في معظم أفعال الرّواية.



د.سلمى عبدالله

٢. أسر الذّات الإنسانيّة في سجن «زمكانيّ» أو في حياة تموت في ثباتها المكانيّ- الزّمانيّ، ما جعلها تعيش زمن فقدان المكان أو «البيت الأليف».

٣- تعريض خطاب «البحث عن المعنى»، أو عن «الحكاية البديلة» للتّفريغ، إذ تاهت الذّات في بحث عن الوجود- الحرّيّة في حركة دائريّة مُغلقة بين وجود معطى لها، وآخر حاولت إنشاءه بذاتها.

وهكذا، تكون «خربة مسعود» في ميزان النّقد الحديث من الأدب الواقعيّ الّذي «يمثّل قيمة معرفيّة ويُسهم في فهم أفضل للواقع». ويكون «منصور عيد» فيها المنتج القلق المتشبّث بـ«الوعي المنزاح» أو «الوعي- المبتغى»، علّه به يخلق الأفضل فلا يستسلم مُدبرًا مع غيره في أرض الرّحيل الدّائم... أمّا تأويلنا لخربته فيكون التّأويل الّذي لا يدّعي طبعا القول النّهائيّ، إنما يكون الجديد الّذي رأته قراءتنا، الجديد الّذي يوقظ في ضمائرنا العودة إلى الأصالة، ويحفّز في وعينا السّؤال الإشكاليّة المستحدثة: ماذا علينا أن نفعل كمتلقّين؟ هل نواجه واقعنا الفارغ من المعنى، فنبدأ من حيث انتهت الرّواية، أو نبقي هذه الأرض أرض الرّحيل الدّائم؟...

*وعن منصور عيد باحثًا، أورد د. **وجيه فانوس** النقاط الآتية:*

١. انطلق في عمله البحثيّ من صلب تخصُّصه الأكاديميّ واضعًا الأدب والمجتمع وعلم النَّفس جوهرًا أساسًا في كلّ ما عمل عليه من أبحاث.

٢. تمكَّن من تطويع تخصُّصه الأكَّاديميّ المحدَّد ليكون فعل انفتاح ثقافيٍّ عام يخدم الأكَّاديميا ويغني المجتمع ويعمل على ربط عضويّ بينهما.

٣. جعل من الجامعة منطلقه الأساس والأوّل، لكنّه لم يحصر وجوده ضمن جدرانها، بل جعل منها قاعدة يتوجَّه من خلالها إلى الجمهور العامّ.

٤. التزم رسالة علميَّة ثقافيَّة اجتماعيَّة ديدنها الانفتاح المعرفيّ والثقافيّ والاجتماعيّ.

٥. رأى أنَّ حقيقة وجوده أن يكون وفيًّا للبنان من خلال نشر وعيه الثقافيّ في أرجاء كثيرة من العالم العربيّ.

*ورأى الأستاذ **حكمت حنين** في حديثه عن منصور عيد واللغة:*

أنّه واحد من هؤلاء البارزين الذين حملوا همَّ اللغة العربيّة وراحوا يبحثون عن وسائلَ وطرقٍ تحافظ عليها وتحميها لتبقى سليمة معافاة، وتحبّبها إلى الناطقين بها، وإلى متعلّميها والراغبين في إتقانها واستخدامها في حياتهم اليوميّة وأعمالهم الكتابيّة.

وأنّه في جهاده هذا سلك ثلاثة سبل: التأليف، والتعليم، والدراسات والأبحاث.

وأنّه نحا منحيين في عمليّة التأليف: في الأوّل اتجه نحو لغة علميّة أكاديميّة موضوعيّة تعتمد الدقّة والوضوح. وفي الثاني اعتمد لغة أدبيّة جماليّة إبداعيّة. وفي المنحيين كانت لغته، كما شهد له بذلك الكثيرون من متتبعي أدبه، لغة بسيطة، سلسة، جزلة، مشرقة، رشيقة، أنيقة؛ فالألفاظ بين يديه طيّعة يأمرها فتطيعه، ويدعوها فتجيبه، فيختارُ منها القريبة والمحبّبة، ويوقّعُها بدقّة...

أمّا إذا انتقلنا إلى حقل التعليم- يضيف حنين، فإنّنا واجدون أستاذًا جامعيًّا، يَحْرِصُ على أن يسهِّلَ اللغة العربية ويقرّبَها إلى طلاّبه الراغبين بتعلّمها، وإتقان استخدامها في تعبيرهم الشفويّ والكتابيّ، خصوصًا أنّه أدرك أنَّ هؤلاء الطّلاب، ولاسيّما الذين ليستِ اللغةُ العربيّة مجالَ اختصاصهم، وصلوا إلى الجامعة وهم يكادون لا يحسنون إنشاء جملة سليمة التركيب.

وفي مجال الدراسات والأبحاث، رأى حنين أنّ عيد أولى اهتمامه لثلاث قضايا:

- إشكالية ازدواجيّة الفصحى والعاميّة في اللغة العربيّة؛
- مواكبة اللغة العربيّة لزمن العولمة؛
- تعلّمُ اللغةِ العربيّةِ وتعليمُها للناطقين بغيرها؛

مبديًا في كلٍّ منها اقتراحاتٍ براغماتيّة...

تفاعل الدين والمجتمع

- في برسا-

رعى رئيس مجلس الوزراء تمّام سلام، ممثَّلاً بوزير الشؤون الاجتماعيّة رشيد درباس، المؤتمر الذي نظّمته جامعة سيّدة اللويزة- برسا، بعنوان «تفاعل الدين والمجتمع»، بحضور متروبوليت طرابلس وسائر الشمال للروم الملكيّين الكاثوليك المطران إدوارد ضاهر، ود. مصطفى حلوه ممثِّلاً الوزير محمّد الصفدي، وعبد الاله ميقاتي المشرف العامّ لجمعيّة العزم والسعادة، ورؤساء بلديّات: طرابلس: نادر الغزال، برسا: آلان رزق، بتوراتيج: جمال الأيّوبي، فضلاً عن مدراء مدارس ومسؤولي جمعيّات ثقافيّة واجتماعيّة وطلاّب معنيّين.



الجلسة الافتتاحيّة

*في **الجلسة الافتتاحيّة**، أكّد المنسّق **إدغار مرعب حرب** على أهميّة هذا المؤتمر، وعلى دور المسؤولين للحماية والسهر على أبنائهم،* متسائلاً: هل الدين في خدمة المجتمع، أم العكس ؟

وتمنّى مدير الجامعة في برسا **الأب سمير غصوب** أن تنسحب أعمال المؤتمر على مجتمعنا اللبنانيّ تقبّلاً للآخر وتفهّمًا لرأيه واحترامًا لخياراته؛. معتبرًا أنّ المؤتمرين سيظهرون أهميّة الدين والايمان، مستنكرين التعصّب الذي يشوّه معاني الرسالات السماويّة.

ورأى رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** أنّ الله جمعنا في لبنان على الحريّة في الايمان، لكنّنا نلاحظ اقتطاع الدين عن الايمان وتأطيره، بحيث أصبح يستخدم من قبل البعض للقتل والدمار. ثمّ تساءل حول ما وُجّه من تهم باطلة إلى الشمال، وطرابلس تحديدًا، هذه المدينة العزيزة الحاضرة اليوم من خلال وجودكم ومناقشتكم لدور الدين في المجتمع وكيفيّة تحاشي الأصوليّة.



الجلسة الأولى

وشدّد **الوزير درباس** على أنّ مقاصدنا يجب أن تبقى واحدة، وهي أن نعيش أحرارًا متساوين، ونعملَ معًا في نشر الحقّ والخير والجمال. ثمّ أكّد أنّ اثنين عدوّان للدين والمجتمع: الجهل والتعصّب، متسائلاً: أليس التعصّب ورفض الآخر شِركًا بالله؟ ونوّه بالتالي بفعل الدين في المجتمع بما يتعدّى الإطار الأخلاقيّ والفضائل المجرّدة إلى الفضاء المعرفيّ والثقافيّ، مشيرًا إلى تأثير الإسلام في الثقافة العربيّة وإلى ما قامت به الإرساليّات الدينيّة من حركة تنوير في الشرق والدور الذي اضطلعت به الرهبانيّات المسيحيّة المارونيّة تحديدًا في نشر العلم والثقافة..

*في **الجلسة الأولى التي ترأّسها الأب موسى** بعنوان: «موقف رجال الدين»،* تناول رئيس أساقفة أبرشيّة طرابلس المارونيّة **المطران جورج بو جوده** القيم المشتركة بين المسيحيّة والإسلام، ما ينعكس في الكثير من العادات والتقاليد في غير مناسبة.

وتناول رئيس منتدى المعارج والأمين العامّ لملتقى الأديان والثقافات للتنمية والحوار **الشيخ حسين أحمد شحاده الأمين** «التحدّيات والأزمات التي تعزّز لقاء الأديان في حدائقه المشتركة»، منتهيًا إلى القول: «خيارنا اليوم في هذا المفصل التاريخيّ هو أن نقتلع خطاب الكراهية والقتل في مجالين: النصوص وداخل الوجدان الشعبيّ، الذي يمتلك اليوم، وفي ظلّ الفوضى والفراغ، سلطة التأثير على المشهد الدينيّ عامّة والمشهد السياسيّ خاصّة».

وأوضح **مفتي** طرابلس والشمال **د. مالك الشعّار** أنّ الدنيا كجسد، إن فقدت روحها فقدت استقرارها، فالعالم من دون دين لا يصلح، لأنّ الأديان مجتمعة أتت لمقاصد أساسيّة، وهي تحقيق الخير والمنفعة للعباد وتنظيم حياتهم وتقريب المسافات في ما بينهم، وليس كما يعتقد البعض للعقوبة.





وفي الجلسة الثانية التي ترأّسها د. هاشم الأيّوبي بعنوان «موقف المجتمع المدنيّ»، تناولت نائبة رئيس مؤسّسة «أديان» **د. نائلة طبّارة** مشروعين أطلقتهما المؤسّسة: الأوّل يطال الشباب اللبنانيّ من كافّة المناطق اللبنانيّة بالتنسيق مع البلديّات وهيئات المجتمع المدنيّ، وقام بتدريبهم على المواطنة الحاضنة للتنوّع في لبنان، ومن ثمّ قيامهم بدورهم بتدريبات في مناطقهم حول هذا الموضوع؛ والثاني هو عمل المرجعيّات الدينيّة الرسميّة لمختلف الطوائف في لبنان لإدراج التربية على المواطنة في مناهج التربية الدينيّة، من خلال دليل تدريبيّ إسلاميّ- مسيحيّ لتعزيز قيم المواطنة والعيش معًا في التربية الدينيّة وورشات عمل للمدّرسين والخطباء ورجال الدين حول هذا الدليل.

وأوضح **الأمير حارث شهاب**، من لجنة الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، «أنّ هناك تغيّرات كبيرة في الديموغرافيا عائدة للانتشار المسيحيّ في آسيا وأفريقيا وما نتج عنه من تداخل إسلاميّ مسيحيّ» مضيفًا: «حوارنا اليوم يهدف إلى بناء جيل لا يكتفي بالعيش المشترك، بل بتحقيق أهداف مشتركة بين مختلف الطوائف، تسهم في قيام دولة الحقّ والمساواة. وهذا الأمر يستدعي إنماء الثقافة الحواريّة للشباب في المعاهد». ثمّ عرض لنظرة العلمانيّين والمأزق الذي قد يعانونه إذا لم يبعدوا الدين عن الحياة الاجتماعيّة والمعتقدات، مشيرًا إلى «ضرورة المعرفة الدينيّة لاحترام الآخر، من خلال تشجيع قيام مؤسّسات مختلطة تعمل لخير المجتمع»، منتهيًّا إلى مسؤوليّة الدولة في إنجاح ذلك.

ولفت **د. طلال خوجه** إلى أنّ «الدين طريق إلى السلام، وهو عنوان تتداخل فيه الجوانب الروحيّة مع الجوانب الزمنيّة»، لافتًا الانتباه إلى أنّ التنظيمات المتشدّدة إنّما تستخدم الدين في حروبها العبثيّة لتبرّر القتل والانتحار.



توقيع اتفاقيّة تعاون ثقافيّ بين الجامعة ولجنة جبران الوطنيّة

في ٢٠ ت١ ٢٠١٤، وقّع كلٌّ من الجامعة بشخص رئيسها الأب وليد موسى ولجنة جبران الوطنيّة بشخص رئيسها د. طارق شدياق، اتفاقيّة تعاون ثقافيّ، تكلّلت بها سلسة اجتماعات، تولاّها، مع د. شدياق ومدير متحف جبران الأستاذ يوسف جعجع، مديرُ مؤسّسة الفكر اللبنانيّ في الجامعة د. أمين أ. الريحاني، الغرض منها إقامة معارض فنّيّة وأدبيّة حول نتاج جبران وأصدائه الواسعة، تفتح أمام الطلاّب والأساتذة آفاقًا تربويّة وبحثيّة وثقافيّة جديدة.

وقد حضر مناسبة التوقيع نوّاب رئيس الجامعة. وفيها طُرحت اقتراحات تصبّ في كيفيّة تظهير هذه الاتفاقيّة على أفضل ما يكون، خدمةً لانتشار القيم الجبرانيّة.

وأفاد الريحاني بأنّ «معرض جبران في رسوم وترجمات مجهولة» تقرّر أن يفتح في الأسبوع الأخير من شهر شباط ٢٠١٥ ولثلاثة أسابيع، وأنّ المؤسّسة ستعدّ كرّاسًا حول الموادّ الفنّيّة والأدبيّة التي يتضمّنها هذا المعرض، يوزّع مجّانًا على الزائرين من الجامعة ومن سائر الجامعات والمدارس في لبنان.



من حَصَاد العمل الرعويّ الجامعيّ

المخيَّم الصّيفيّ للعمل الرّعويّ الجامعيّ NDU







«**إمتلئوا بالروح**» (أف ١٨/٥) عنوانٌ أراده شبيبتنا لمخيّمهم الصيفيّ الخاصّ الّذي امتدَّ لثلاثة أيّام ٢٦-٢٧-٢٨ تمّوز ٢٠١٤ في دير مار الياس- شويّا، وخلاله عاشوا خبرة الكنيسة الأولى الّتي كان أعضاؤها يُشاركون بعضهم بعضًا في الصّلاة وكَسر الخبز والمواظبة على تعليم الرّسل وعيش المحبّة بحضرة المسيح القائم.

اليوم الأوّل خُصِّص للصّلاة والتأمّل والتّوبة والاحتفال بالمسيح الحاضر في سرّ الإفخارستيّا. وفي اليوم الثاني، إضافةً إلى الوقفة الروحيّة، كان هناك جزءٌ ترفيهيٌّ ورالي بايبر وتنشئة دينيّة واجتماعيّة.

أمّا اليوم الثالث فكان سياحيًّا إلى بلدة المتين حيثُ عَمَّ جوٌّ من الفرح والمحبّة الأخويّة وطُبِعَ هذا النّهار بذكرياتٍ لا تُنسى.

لقاء العمل الرّعويّ الجامعيّ العامّ



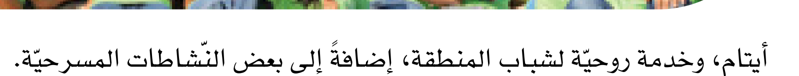
في إطار التّنشئة للمسؤولين في المخيّم الصيفيّ العامّ، شارَكَ عددٌ من شبيبة جامعتِنا في الويك- أند الّذي أُقيمَ في دير مار ساسين- بسكنتا مع اللجنةِ المسؤولة عن تحضير المُخيّم للتّنشئة والاستعداد للقيام بالمهامّ الموكلة إلى كُلٍّ منهم بأجود وأفضل طريقة مُناسبة.

المخيّم الصّيفيّ للعمل الرّعويّ الجامعيّ العامّ

كما هي العادة في كلّ سنة، أقامَ العمل الرعويّ الجامعيّ العامّ مُخيّمًا صيفيًّا لكلّ الجامعيّين الرّاغبينَ في الانضمام إليه.

كان عنوانه: «**أراكم فتفرحون**» (يو ٢٢/١٦)، ودام من ٢٠ إلى ٣١ آب ٢٠١٤ في مدرسة الفرير- بسكنتا. وكان المرشد العامّ للمخيّم الأب فادي بو شبل المريميّ مُرشد عامّ المخيّم، فأعطى مواضيع الرياضة الروحيّة الّتي أدخلَت المُشاركينَ في جوٍّ من الصّمت والسّكينة والدّخول في سرّ الله، والّتي دامت أربعة أيّام.

ثمّ قام المُشاركون بالتّنشئة على الرّسالة في الأيّام التالية، والقيام بها، وقد شمَلَت رسالتهم زيارة مستشفيات، مأوى عجزة، مرضى في البيوت، دور أيتام، وخدمة روحيّة لشباب المنطقة، إضافةً إلى بعض النّشاطات المسرحيّة.



كان المُشاركون من الـ NDU عديدين، وكانت الأجواء مريحة ومُفيدة؛ شَعَروا بأنّ المسيح رآهم، ولذلك فرحوا.

حفلة المتخرّجين وتسليم وتسلّم اللّجنة الجديدة



بما أنّ هذه السّنة كانت سنة تّشكيلات في الرّهبانيّة المارونيّة المريميّة، فلم يتمّ التسلُّم والتّسليم في أواخر السّنة الدراسيّة، إنّما تأجّلَ الموعد إلى شهر أيلول، حين عُرِفَ أنّ المُرشد العامّ للجامعة سيبقى الأب فادي بو شبل، فكان اللقاء في ١١ أيلول ٢٠١٤؛ وفيه قال الأب فادي:

سنةٌ مَضَت، عمِلنا فيها معًا من أجل بناءِ ملكوت الله في جامعتِنا. كنّا نتلمَّس حضور الربّ، يُرافقُنا كما مع تلميذَي عمّاوس على دروب حياتنا ويرعانا ويُبارك نشاطاتنا وأتعابنا. ولقد لمَسنا أكثر من مرّة ذاك الحضور في كلِّ ما عِشناهُ وصلّيناه.

منذ ٩ سنوات وأنا أقف وقفةً كهذه،



وقفةً أستعيدُ فيها الأحداث والوجوه والنّشاطات، وأرفعُ الشُّكر والإمتنان للربّ يسوع وأمِّهِ العذراء ملكة الجامعة، ولكلِّ واحدٍ وواحدةٍ منكم.

كيف لا وعرفانُ الجميلِ هو أصدقُ مشاعرِ المحبّة. والحقّ أقولُ: إنّني مدينٌ للربّ ولأُمِّهِ مريم ولكلِّ واحدٍ وواحدةٍ منكم، أنتم من منحتموني فرصة لعيش حضور الله وعلّمتموني المبادرات والمجّانيّة والإقدام...

ومعكم أُوجّهُ شُكري للثالوث المحبّة، وللعذراءِ مريم أُمّ المحبّة، وللأُمّ الرهبانيّة، وإدارة الجامعة بشخص الأب الرّئيس وليد موسى.

ومع الشكر أزوّدكم بكلمةٍ من الكتاب المقدَّس لسبلكم في الحياة:

جاد ملاّح: «كذلِكَ عِظ الشبّان ليكونوا مُتعقّلين. وكُن أنتَ نفسكَ قدوةً لهم في العملِ الصّالح، ورزينًا ومُنزّهًا في تعليمِكَ» (تيطس ٢/٦-٧): خدمتُكَ تميّزَت بالمجّانيّة، وصمتُكَ بالحكمة. بارَكَ الربُّ حياتَكَ وقدَّسَ أعمالَكَ.

نتالي غرّة: «لا تفقِدوا إذًا ثقتكم، فلها جزاءٌ عظيم، وأنتم بحاجة إلى الصّبر حتّى تعملوا بمشيئة الله، وتحصلوا على وعده» (عب ١٠/٣٥-٣٦): حضورٌ ومسؤوليّة، بساطة وعفويّة. لتكن لكِ العذراءُ مريم قدوةً دائمة، ولتَهدي حياتَكِ صوبَ ابنِها الإلهيّ.

سيلين خوري: «نحنُ نعرف أنّنا نثبُتُ في الله، وأنّ الله يثبُتُ فينا بأنّه وهَبَ لنا من روحِهِ» (١ يو ٤/١٣): تواضُعكِ من تواضع العذراء، وابتسامتُكِ من ابتسامتِها، أنتِ شبيهة بأمِّكِ السماويّة. شُكرًا لأنّكِ ولمدّة سنة حفِظتِ لنا ذاكرة نشاطاتنا.

إبراهيم مهنّا: «ليكُن رجل الله كاملاً مُستعدًّا لكلِّ عمَلٍ صالح» (١ تيم ٣/٣): هدوءٌ وصفاء، جديّة وسخاء. إن أُعطيَ لي أن أمنَحَكَ لقبًا يُطبَّقُ على شخصيّتِكَ لا أُعطيكَ لقب فم الذّهب بل يوسف البارّ. لتكُن حياتُكَ دائمًا في حضرةِ يسوع ومريم.

إيلي الحاج: «تجنّب أهواءَ الشبابِ واطلُب البرّ والإيمان والمحبّة والسّلام مع الّذين يدعونَ الربّ بقلوبٍ طاهرة» (١ تيم ٢/٢٢): أجواءٌ من الفرحِ تشيعُ حيثُ أنتَ. أنتَ فرحٌ لِمَن حولَكَ، ليبقَ الفرح الحقيقيّ مالِكًا على حياتِكَ.

ناي عبيد: «المرأة الخجول نعمةٌ على نعمة، وعفّة نفسها لا توازيها قيمة» (سي ٢٦/١٥): خجلٌ وابتسامة، إلتزامٌ وحركة، حضورٌ لطيف ونشاطٌ كثيف. بارَكَ الربّ حياتَكِ وأعمالَكِ، ولتكُن لكِ العذراءُ الأمينة أُمًّا ساهرة عليكِ.

كريستال غندور: «الحكمة تسكُبُ المعرفة والفهم وتُعلي مجدَ الّذين يملكونها» (سي ١/١٩): بالصّلاةِ رفعتِ أنفُسنا نحو الّذي يُحبُّنا، وبالخدمةِ ذكّرتِنا بالّذي أتى إلينا، وبالابتسامة جعلتِنا نعرفُ أنَّ اللهَ فرحٌ لامتناهٍ. شكرًا كريستال لأنّكِ كما أنتِ. أُنظري إلى مريم لتبقي مريميّة.

ريتّا خليل: «الحكمة تُعلّم الفضائل كلّها، العفّة والعدل والشّجاعة والفهم، وهذه أكثر نفعًا للبشر من أيِّ شيءٍ في الحياة» (حك ٨/٧): إلى الربِّ أرفعُ الصّلاةَ من أجلِكِ، لتنالي نعمةَ الحكمة في كلِّ شيء. لن أنسى يومَ اتّخذتِ شخصيّة القدّيسة رفقا وحاورتِ المصلوب الفادي. شكرًا ريتّا.

جورجيو نجيم: «تأمّلوا في الربّ واطلبوهُ بطيبِ قلب. فالّذينَ يسعَون إليهِ يجدونه، والّذينَ لا يشكّونَ فيه يرَونَهُ» (حك ١/١-٢): تنوَّعَت الخدمات الّتي أخَذتَها على عاتِقِكِ خلالَ حضورِكِ معنا، ولكنَّ الخدمة الروحيّة تفوَّقَت على جميعِها، والسبب أنَّكَ نقَلتَ إلينا ما كنتَ تعيشُهُ أنتَ. حَفِظَكَ الربّ بشفاعة أُمِّهِ الكاملة القداسة.

إليسّا لطّوف: «أحمدُ اسمَكَ على الدوام وأُرتِّلُ لكَ آياتَ الشُّكر» (سي ٥١/١١): بالتّرنيمِ والصّلاةِ ترتفعُ النّفوسَ والقلوبَ وتأبى إلاّ أن تشقَّ الغيوم وتَصِلَ إلى مَن هو جالسٌ عن يمينِ الآب ليشفَعَ فينا. أنتِ رَفَعتِنا بالتّرنيم ونحنُ نرفعُكِ بالصّلاة. شكرًا لكِ.

جورج شَعيا: «وكان المُغنّونَ يُسبِّحونَ بأصواتِهم العذبة الّتي كان صَداها يتردَّد في رِحابِ الهيكل» (سي ٥٠/١٨): الصّوت نعمةٌ من نِعَمِ الله، وقد حلاّكَ به، رنِّم يا جورج بمراحِمِ الربّ ولتَحمِكَ الأمُّ العذراء.

ختامًا، أشكُرُ الآباء جميعًا، ولاسيّما الأب المُدبِّر جورج ناصيف الّذي أَمَّنَ الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ يوميًّا مع كلمة روحيّة أغنى بها نفوسنا. وأشكُرُ أيضًا صولا حلو الّتي تَعِبَت وضَحَّت خلال هذه السّنة معنا.

أحبّائي، الجامعة هي «مملكة مريم»، وأنتم أبناء الأُمّ والجامعة مملكتكم، أحِبّوها واسعوا دائمًا لإعلاءِ شأنِها، وحاولوا أن تخدموها أينما حَلَلتُم.

ستُظهر لكم الأيّام أنَّ ما عشناهُ معًا، قد حُفِرَ في أعماقِ القلوب، ولا أحد يستطيع أن ينتزِعهُ منّا.

لتكُن عين العذراء على كُلٍّ منكم، وذراعَاها حول كلٍّ منكم، وصلاتُها حضنًا وحصنًا لكم، ولا تنسوا أن تذكروني بصلاتكم.

وهذه أسماء اللجنة الجديدة الّتي ستقوم بخدمة العمل الرعويّ الجامعيّ NDU خلال هذه السّنة الدراسيّة ٢٠١٤-٢٠١٥: مُنسّق: **ناي عبيد** - نائب منسّق: **كارل بو شبل** - أمين سرّ: **غي كنبر** - أمين صندوق: **هادي باسيل** - نشاطات: **مَريم عقيقي** - روحيّات: **ريتّا حدّاد** - إعلام: **سيبال يونس** - مُرافق لجنة: **جاد ملاّح** - كورال: **كلارا بشعلاني**.

قدّاس عيد البابا القدّيس يوحنّا بولس الثّاني

إحتفالاً بالبابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني الّذي أحَبَّ الشبيبة ووثقَ بهم وسَمّاهم «ربيع الكنيسة»، أرادت جامعتنا، من خلال العمل الرعويّ الجامعيّ، أن تُكرِّمه هو الحاضر فيما بيننا بتمثالِهِ في الحديقة التي على اسمه عند مدخلها. فاحتفلنا بالذّبيحة الإلهيّة، ومَشَينا إليه مرنّمين خاشعين مكرّمين بباقة ورد، وتباركنا من ذخيرتِهِ الّتي استقدمها الأب المُدبِّر جورج ناصيف من دير سيّدة اللويزة.



رحلة إلى دير مار سركيس وباخوس- عشقوت وديروالدة الإله والوحدة- حريصا

بهدف التعرُّف على الرّهبنة الأمّ الّتي تنتمي إليها جامعتنا، نظَّم شبيبتنا نهارًا روحيًّا إلى دير مار سركيس وباخوس، دير الإبتداء التّابع للرهبانيّة المارونيّة المريميّة.

بعد الاطّلاع على حياة القدّيسَين الشّهيدَين سركيس وباخوس، شاهَدَوا وثائقيًّا عن الرّهبنة «مملكة مريم»، وزاروا غرفةَ «رجُل الله» الحَبيس الأب أنطونيوس طربيه، واسترشدوا بحياتِهِ. ثمّ احتفلوا بالقدّاس الإلهيّ الّذي ترأّسه رئيس الجامعة الأب وليد موسى. ثمّ تناولوا الغداء مع الآباء والمُبتدئين في الرّهبنة، وسط تحاور مفيد وإصغاءٍ لشهادة حياة من أحد المبتدِئين.



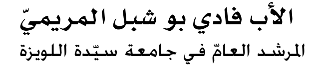


وبهدف التعرُّف أكثر فأكثر على حياة القدّيسة تريزا ليسوع الأفيليّة الّتي تحتفل الكنيسة بمرور خمسمئة عام على ولادتِها، كان الإنطلاق إلى دير الكرمليّات في حريصا.

بعد شَرحٍ موسّع عن أيقونة كنيسة الدير، انعقدَ لقاء مع ثلاث راهبات كرمليّات تحدّثن بالكلمة والمثل عن القدّيسة وعن الدّعوة المسيحيّة، ما كان له الأثر الكبير في نفوس الشبيبة. وإثر حصولهم على ثوب سيّدة الكرمل، انتهوا إلى جلسة تقييميّة مُمتعة.

أنوارٌ كنسيّة: الأخت مادلين

«طوبى للودعاء فإنّهم يرِثونَ الأرض» (مت ٤/٥)



الأب فادي بو شبل المريميّ
المرشد العامّ في جامعة سيّدة اللويزة

تحتفِل رهبنة أخوات يسوع الصّغيرات بيوبيل تأسيسها الماسيّ على يَد الأخت مادلين هوتان، الفرنسيّة الأصل، الّتي أبصَرَت النّور عام ١٨٩٨، وسَمَحَت لها العناية الإلهيّة بأن تتعرَّف في صِباها على حياة الأخ شارل دوفوكو، فأرادت أن تعيشَ على مثالِهِ مع الفقراء والمُهمَلين في العالم العربيّ، فجدَّت مُسرِعة إلى صحراء الجزائر، حيثُ كانت على موعد مع الله الّذي أوضَحَ لها دعوتَها في الحياة.

تقول: «**لقد وهَبَني الله دعوة للحياة التأمّليّة، إن لم تكُن في نِطاقِ حصنِ الدّير، فهي على الأقلّ دعوة لحياة تأمّليّة مُندمِجة في العالم، لأجعل الربّ حاضرًا فيه مثلَ العذراء في زيارتِها لأليصابات، فأحمِل له، لا المُساعدة الماديّة فحسب، بل اليقين بحُبّ الربّ له**».

أبرزت نذورها الرهبانيّة في ٨ أيلول ١٩٣٩. وقد اعتُبِرَ هذا التاريخ تاريخ تأسيس رهبنة أخوات يسوع الصّغيرات.

في المغرب العربيّ، تعرّفت الأخت مادلين على جماعاتٍ مسيحيّة من أصولٍ عربيّة، وتناهى إليها أنّ ثمّة مسيحيّين في المشرق العربيّ يُعايشون المسلمين في الوطن الواحد، فسارعت إلى هذه البلاد لتتعرَّف إليهم، واتّخذَت بالتالي قرارها باندماج أخواتِها في الكنائس الشرقيّة، الّتي بقِيَت عبرَ الأجيال «شهادة حَيّة للإيمان المسيحيّ بين المُسلمين».

ولأنّ النّعمة تَلِدُ النّعمة، فقد رأينا حُبَّها يتدفَّق، ليسَ فقط نحو مسيحيّي الشّرق، وإنّما أيضًا نحو كلّ النّاس. ففي ليلة الميلاد من العام ١٩٤٩، سلَّمَت المسؤوليّة العامّة إلى الأخت جان؛ ومعها، ومعِ الأب قوايومِ مؤسّس رهبنة إخوة يسوع الصِّغار، قامت بجولة حولَ العالم بهدف تأسيس أُخوّات، قائلةً: «**لن أكونَ سعيدة إلاّ عندما أكون قد وجدتُ على سطحِ الكُرة الأرضيّة القبيلة الأكثر افتقارًا إلى التّقدير والتّفهُّم، الإنسان الأشدّ بؤسًا، لأقولَ له: الربّ يسوع هو أخٌ لكَ، وقد رَفَعَكَ إلى مُستواه، وأنا جئتُ إليكَ لكي تقبلَ أن تُصبِحَ أخًا لي وصديقًا**».

والواقع أنّها وجدَت صعوبة كبيرة في اختراقِ حواجز الشيوعيّة في أوروبّا الشرقيّة وروسيا، إلاّ أنّ الروح القدس ألهَمَها أن تحتَجّ بالسّياحة، فحَوَّلَت شاحنة صغيرة إلى شبهِ بيت استقلَّتها وتنقَّلَت بها، وفيها أسَّسَت الأخوّة المُتنقّلة، بحيثُ تُسافر كلّ سنة مع أخواتها ويُساندْنَ المسيحيّين المُضطَهَدين ويُوطِّدْنَ الصّداقة معهم.

بعد الاحتفال باليوبيل الذهبيّ لتأسيس الرّهبنة، بدأت صحّتها تتدهور بشكلٍ سريع، وانتقَلَت إلى بيت الآب في ٦ تشرين الثاني ١٩٨٩، وصادَفَ يومَ دفنِها انهيارُ جدارٍ برلين التقسيميّ، فرأى الكثيرونَ في ذلكَ تعبيرًا عن سَعيِها الدائم إلى إزالة كُلّ الحواجز القائمة بين الإنسان وأخيه الإنسان.



الأخت مادلين



دُفِنَت الأخت مادلين في منطقة Tre Fontani قُربَ كنيسة استشهاد بولس الرّسول، حيثُ مَركزُ الأخوّة العامّة. وقد شاءت العناية الإلهيّة أن تسمَحَ لي بزيارة هذا المكان المُبارَك غير مرّة، بفعل الصّداقة الروحيّة العميقة الّتي رَبَطتني برهبنة أخوات يسوع الصّغيرات في لبنان. والأخت مادلين، الّتي زارتنا مرّات، أرادت أن تنتمي الأخوّة في بلادنا إلى كنيستنا المارونيّة: فلها بيوت في البوشريّة ورأس النّبع والهرمل وصور، فضلاً عن بقعتوتا – كسروان حيثُ تصعَدُ الأخوات إلى الجبل للتأمُّل والصّلاة وقراءة الحياة على ضوء كلمة الله، إضافةً إلى الرياضات الروحيّة السنويّة واللقاءات العامّة.

ولمُناسبة الاحتفال باليوبيل الفضيّ لدخول الأخت مادلين، هذه الراهبة الوديعة ذات البَسمَة الهادئة والصّفاء الجميل، إلى بيت الآب؛ واستعدادًا لفتح دعوى تطويبها، شرَّفَتني رهبنتها العزيزة أن أشهد ككاهن مارونيّ شرقيّ على أهميّة إعلان تطويبها في كنائس عالمِنا الشرقيّ.

والواقع أنّي التقيتُ الأخت مادلين ثلاثَ مرّات؛ وأنا مؤمن بأنّ الأماكنَ التي التقيتُها فيها كافيةٌ فعلاً لتُعطيني فكرةً واضحة عن هُويّة هذه الأخت «النِّعمة»، التي منحتها العنايةُ الإلهيّةُ للكنيسة الجامعة. والربّ يسوع يقول في إنجيله المُقدّس: «من ثِمارهم تعرفونهم» (مت١٦/٧).

لا، لم ألتقِ بها وجهًا لوجه، إنّما بعددٍ كبير من الأخوات اللواتي يَتبعْنَ بأمانةِ الدّربَ الذي سلكَتْه. وما أثّر فيَّ التّأثيرَ الكبير، في كلِّ منهنّ، هو الفرح والبساطة ومقاربة كلّ شيء؛ ما دفعني لأطالعَ بعضًا من كتاباتِ المؤسّسة.



وعليه كان لقائي الثّاني مع الأخت مادلين، وتحديدًا من خلال كتابها «هذه وصيّتي»، الذي تَظهر فيه إنسانة مكرّسة تريد من التّكرّس أن يكونَ دفعًا حقيقيًّا لأنسنةٍ مؤمنة وجديدة، كما أرادها الرّب يسوع، الذي دفعَ دمَه ثمنَها، ما أوصل بولس الرّسول إلى القول: «مَن هو بالمسيح فهو خلقٌ جديد» (٢ كور ١٧/٥).

أمّا المرّة الثّالثة فكانت عندما سَمحتْ لي العنايةُ الإلهيّةُ بأن أزورTre Fontane، وأمكُثَ في غرفتها، وأصلّي أمام قبرِها، وأكتشف بالتالي أمرين في حياة هذه الأخت «النّعمة»، وهما البساطة والطّيبة.

نعم، استطعتُ أن أرى في وجه الأخت مادلين بساطة النّاصرة وطيبةَ الرّبّ يسوع، من خلال بساطةِ المكان ومحتوياته، وما اجتذبت إلى قلب يسوع من نفوسٍ من ثقافاتٍ متعدّدة ومن بلدانٍ كثيرة.

أمّا تطويبُها فإنّه سيُضفي على المؤمنين نِعَمًا لا حدّ لها، أراها في ثلاث:

أوّلاً: **الثّقة بالرّب.**

في عالمٍ يفتقر إلى العلاقة الحقّة مع الله، تصرخ الأخت مادلين أمام الجميع أنّها بثقةٍ وَضعت يدَها بيدِ الرّبّ، هذا الإله الذي لم يَعُد بعيد المنالِ في الأعالي، وإنّما صارَ بشرًا (يو ١٤/١) وسكَن النّاصرة (لو ٣٩/٢)، وشابَهنا بكلّ شيء ما عدا الخطيئة (عب ١٧/٢)، وطلبَ منّا أن نكون حضورًا لحضوره، واستمرارًا لمحبّته في هذا العالم.

ثانياً: **محبّة الكنيسة في الشّرق.**

صحيحٌ أنّ كنيسة المسيح هي واحدة، إلاّ أنّ حضورَها في هذا الشّرق يمتاز بتنوّعِ طقوسها، وغنى روحانيّتها، وأمانةِ محبّتها لعريسها السّماويّ، رغم الحروب والإضطهادات والألم. فالأخت مادلين بهويّتها الغربيّة، تساعد الغربيّين على محبّة

جسد المسيح السرّي في الشّرق، وخدمةِ أعضائه بالصّلاة والتّكرّس والحضور؛ وبانتمائها للشرق تعطي الشرقيّين دفعاً من الإلتزام والأمانة والتعلّق بالأرض، التي منها أطلَّ «**نور الشرق**».

ثالثاً: **الإنفتاح على العالم الإسلاميّ بصداقة ومحبّة.**

بصفتي كاهناً كاثوليكيّاً أحيا في مجتمعٍ مختلط (مسيحيّ- إسلاميّ)، أرى في الأخت مادلين نموذجًا ممتازًا للعيش لا بجانبِ المسلم وإنّما معه، لا خوفًا منه وإنّما حبًّا به، لا بمفهوم: لكَ دينُكَ ولي ديني، وإنّما بمفهوم: أَخبرْني عن دينك، أُخبرُك عن ديني باحترامٍ وصداقة ومحبّة تعلو كلَّ شيء.

إنّ العالمَ الإسلاميّ ينمو بشكلٍ كبير، وقد عَمَّ أغلبيّة هذا الشّرق، الذي منهُ أتانا «**نورُ العالم**». ولذلك، فإنّي أؤمن وأعتقدُ أنّ رسالة الأخت مادلين هي رسالةُ الآنيّة، رسالةٌ جديدةٌ ليست لأخوات يسوع الصّغيرات فحسب، وإنّما للكنيسة الجامعة كلّها، ولاسيّما الحاضرة في هذه البُقعة من الأرض.



صلاة

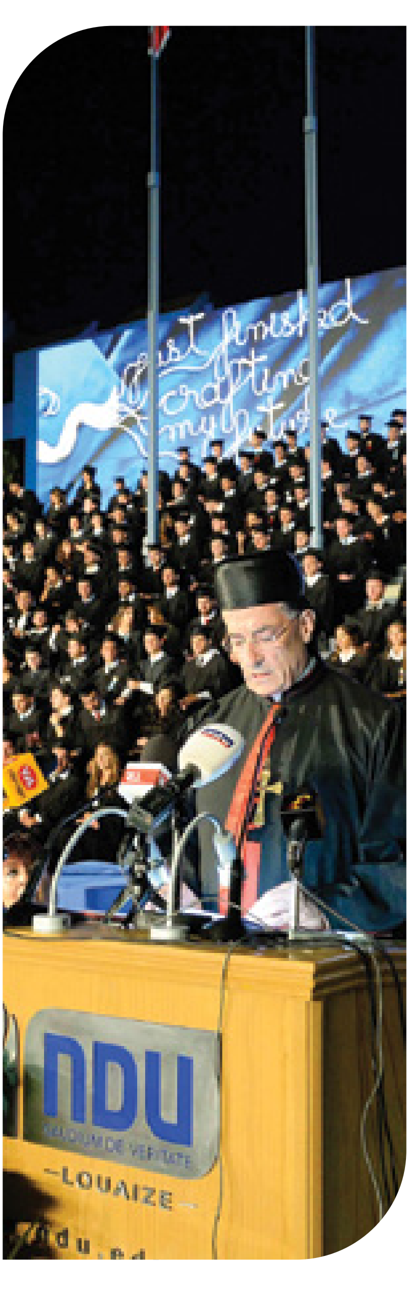
أيّتها الأختُ الصّغيرة مادلين يسوع، يا مَن جذبَكِ وجهُ يسوعَ الناصريّ، فتركتِ كُلَّ شيء وتبعتِ خُطاه على مِثالِ الأخ شارل دو فوكو، فزيّنَ حياتَكِ بطيبة محبّتِهِ وبساطةِ حضوره، فأصبحتِ إشعاعًا من نورهِ يَشِعُّ على الكنيسة كلِّها،..

أسألُكِ بمحبّتك ليسوعَ الناصريّ أن تلتمسي لمسيحيّي هذا الشّرق نعمةَ الثّبات في الإيمان، والشّجاعةِ في الشّهادة، والمحبّةِ في كلّ شيء، وأن تطلبي من الربّ يسوع بشفاعةِ أمّه سيّدةِ العالمِ أجمع أن يمنحَنا ذاتَه كما منَحكِ ذاتَه، لنُصبَح كما أنتِ شهودًا حقيقيّين للإنجيلِ الطاهر.

٢٠١٤: ١١١١ خرّيجًا لجامعة سيّدة اللويزة

والدّورة سمّاها الأب موسى: دورة بشاره الراعي

والرّاعي شاءها: فوج حماية الجمهوريّة والكيان اللبنانيّ





٩٩٤ من زوق مصبح + ٦٣ من دير القمر + ٥٤ من برسا = ١١١١ خرّيجًا لجامعة سيّدة اللويزة، احتُفي بهم مغربَ الخميس ٣١ تمّوز ٢٠١٤، وسط بضعة آلافٍ من الأهل والرّفاق والأصدقاء، في حضور رسميّين، شهدوا جميعًا للنجاح، وفرحوا بصنّاعه، ودعوا لهم بالتوفيق في وطن آمن مستقرّ مزدهر، يوفّر لهم فرص العمل اللائقة، ليبقوا فيه وله ويبقى فيهم ولهم...

الاحتفال رعاه صاحب الغبطة والنيافة مار بشاره بطرس الراعي، الذي أطلّ بكلمته على ذكريات البدايات، مبديًا عرفانَه بفضل الرهبانيّة واعتزازَه بنهضة الجامعة،.. مركّزًا من ثَمَّ على هموم لبنان والمنطقة، في ظلّ النزاعات والصراعات الدامية المدمّرة وما تسبطن من تردّيات اقتصاديّة واجتماعيّة.. وتهدّد من وجودات وكيانات...

قال الراعي:

١. يسعدُني أن أشاركَ في حفل تخرّج طلاّب جامعة سيّدة اللويزة الأعزّاء، شاكرًا رئيس الجامعة **الأب وليد موسى** على دعوتي إلى هذه المشاركة؛ فأحيّيه مع الأسرة التربويّة الجامعيّة، إدارةً وعمداء وهيئةَ أساتذة وطلاّبًا؛ كما أحيّي مجلس أمنائها والقدامى والأصدقاء. وأعرب عن امتناني لأمّنا الرهبانيّة المارونيّة المريميّة الجليلة، التي لي شرف الانتماء إليها، فأحيّيها بشخص رئيسها العامّ، قدس الأباتي بطرس طربيه، ومجلس المدبّرين العامّين، وأحيّي كلّ أبنائها من آباء وإخوة دارسين وناشئة.

٢. وأوجّه تهنئتي القلبيّة لكم، أيّها الخرّيجون والخرّيجات، للسنة الأكاديميّة ٢٠١٣- ٢١٤. وأشكر الله معكم على بلوغكم إلى ختام المرحلة الجامعيّة في هذه الجامعة العزيزة التي احتضنتكم، ووفّرت لكم جودة التعليم، بحسب اختصاصاتكم، مع التربية على القيم الروحيّة والأخلاقيّة والوطنيّة. وأهنّئ الجامعة بكم. وإنّي بروح الامتنان، أتوجّه معكم بالشكر والتهنئة لوالديكم ولعائلاتكم: أمّا الشكر فعلى ما بذلوه بسخاء من أجل تثقيفكم؛ وأمّا التهنئة لهم فعلى تخرّجكم ودخولكم مجالات العمل لتحقيق ذواتكم وتحفيز إبداعكم، وضمانة المستقبل. وبذلك تحقّقون آمالهم وانتظاراتهم.

٣. **آتي إلى هذه الجامعة في رحاب الرهبانيّة المارونيّة المريميّة** بكثير من التأثّر والذكريات. فقد لبّيتُ فيها الدعوة الإلهيّة إلى الحياة الرهبانيّة، وأنا ابنُ اثنتَي عشرة سنة. وفيها تربيّت وتعلّمت وانفتحت على آفاق الكنيسة والوطن. وهي هيّأتني بكامل تكريسي لحياة رهبانيّة أصيلة في رحابها، وقدّمتني أسقفًا للكنيسة وبطريركًا وكردينالاً. إنّي بروح العرفان بالجميل آتي إلى رحاب حنانها وفضلها، كعودةٍ إلى الجذور، لأستمدّ منها الروحانيّة والدّفع والقوّة.

وآتي إلى جامعة سيّدة اللويزة بذكريات البدايات الوضيعة في سنة ١٩٧٨، عندما بدأت بخميرة من ٧٥ طالبًا وطالبة وبمبنى صغير. وكان اسمها «**مركز سيّدة**



اللويزة للتعليم العالي»، كفرع لكليّة بيروت الجامعيّة (BUC) التي أصبحت الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة (LAU). وهذا المركز أصبح بعد عشر سنوات، أي سنة ١٩٨٧، **جامعة سيّدة اللويزة**، التي راحت تكبر وتكبر بطلاّبها وأساتذها وكلّياتها ومبانيها، فبلغت إلى ما هي عليه اليوم بفضل الآباء الرؤساء الذين تعاقبوا عليها، والسلطة الرهبانيّة العامّة، ومجلس الأمناء، ومجلس الجامعة، والإدارة والأساتذة، وبفضل ثقة الأهل والطلاّب. وهكذا تحقّق فيها مَثَلُ الإنجيل الذي يُشبّه ملكوت الله، أي الكنيسة ومؤسّساتها، **بحبّة الخردل**، وهي أصغر البَقول، لكنّها تنمو وتكبر حتّى تصبح شجرة كبيرة تعشعش فيها طيور السماء (راجع متّى ١٣: ٣١- ٣٢). الشكر لله الذي منه كلّ عطيّة صالحة، وللسيّدة العذراء مريم شفيعة الجامعة وحاميتها والساهرة عليها.

٤. إنّنا نفتخر كلّنا ونعتزّ بهذه الجامعة، لِما أصبحت عليه، ولِما لها من فضل على تربية أجيالنا شبيبتنا المتعاقبة، ولِما شكّلت من نهضة في قطاع التعليم العالي الجامعيّ، إلى جانب **الجامعات الكاثوليكيّة والخاصّة، والجامعة اللبنانيّة.** فتحيّة كبيرة لكلّ هذه الجامعات التي نشكرها، باسم طلاّبها القدامى والجدد، على ما وفّرت لهم وتوفّر من جودة تعليم وتربية في مختلف الاختصاصات، وعلى ما فتحت أمامهم من آفاق علم وعمل وإبداع. فندعوها إلى المزيد من التعاون والتشاور والتكامل، من أجل تعزيز ديموقراطيّة التعليم العالي، وإعداد اختصاصيّين وفقًا لحاجات سوق العمل. تعلمون أنّ ثلاثين ألف طالب وطالبة يتخرّجون هذه السنة من جامعات لبنان، ما عدا المتخرّجين من الخارج والمعاهد التقنيّة. سوقُنا بحاجة إلى ثلاثين ألف فرصة عمل. لذا نتوجّه إلى القطاعَين العامّ والخاصّ، وبخاصّة إلى أهل الاقتصاد وإلى جمعيّة المصارف، بالنداء الملحّ لتوفير فرص العمل هذه، لكي نحافظ على قوانا الشبابيّة الحيّة وبقائها على أرض وطننا، لكي يحقّق شبابنا ذواتهم، ويمارسوا إبداعهم على أرضه، ويساهموا في بنائه وإنمائه وترقّيه.

٥. **وإنّنا نهنّئ الجامعة اللبنانيّة**، على استكمال تعيين عمداء كلّياتها، وإقرار تفرّغ أساتذتها، بفضل جهود رئيسها وسعي معالي وزير التربية الوطنيّة وصمود أساتذتها. ونأمل أن تكتمل فرحتها، إذ تخطو خطوات متقدّمة في نموّها وحُسن سيرها، وتتحرّر من تدخّل السياسيّين في شؤونها الإداريّة، ويتحرّر طلاّبها من قبضة التلوُّن السياسيّ. وهذا ما نرجوه أيضًا لطلاّب الجامعات الكاثوليكيّة والخاصّة. لكنّنا في الوقت عينه ندعو إدارات الجامعات والأساتذة إلى **توفير الثقافة السياسيّة والوطنيّة** لجميع طلاّبنا وشبابنا، بمبادئها الدستوريّة والميثاقيّة وبثوابتها الوطنيّة. فالسياسة كفنّ شريف لخدمة الانسان والمجتمع، تحتاج إلى تربية ثقافيّة كسائر جميع الفنون، ما يقتضي إدخال التثقيف والتربية على فنّ السياسة في برامج الاختصاصات الجامعيّة، بالاستناد إلى وثائق تعليميّة وضعتها الكنيسة لهذه الغاية، فنذكر منها الدستور الراعويّ للمجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني: **الكنيسة في عالم اليوم**، في فصله الرابع وهو بعنوان: **حياة الجماعة السياسيّة**؛ والإرشاد الرسوليّ للقدّيس البابا يوحنّا بولس الثاني: «رجاء جديد للبنان» (١٩٩٧)؛ والمجمع البطريركيّ المارونيّ في نصّه التاسع عشر: **«الكنيسة المارونيّة والسياسة»**؛ ووثيقتَي البطريركيّة المارونيّة: **«شرعة العمل السياسيّ في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصيّة لبنان»**، **«والمذكّرة الوطنيّة»**. كلّ ذلك في إطار تعزيز الثقافة الشاملة ونموّها التي يدعو إليها الفصل الثاني من دستور «الكنيسة في عالم اليوم» المذكور.

أيّها الخرّيجون والخرّيجات

٦. تنطلقون من الجامعة **بفرح النهاية**، ولكنّكم تدخلون معترك الحياة **بهموم البداية**، بسبب الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والأمنيّة الخطيرة، على أرض وطننا وبلدان الشرق الأوسط، التي لا تفتح أمامكم ما ترغبون من آفاق واعدة. لكنّي أدعوكم إلى مواجهة التحدّيات الراهنة بالصمود والرجاء، لأنّ أسبابها والحلول ليست من عالم المجهول. فالأسباب معروفة، والحلول ممكنة بالإرادات اللبنانيّة الطيّبة.

ثمّة **مشاريع سياسيّة دخيلة** على عالمنا العربيّ، مرتبطة بالنزاع الإسرائيليّ- الفلسطينيّ، والإسرائيليّ- العربيّ، الذي لا يوجد، على ما يبدو، إرادة دوليّة لحلّه. وإنّا في المناسبة نَدين بشدّة الاعتداء الإسرائيليّ الظالم على الشعب الفلسطينيّ الآمن في غزّة. ونطالب منظّمة الأمم المتّحدة ومجلس الأمن بفرض وقف إطلاق النار، والإسراع في حلّ **النزاع المزدوج: الإسرائيليّ** - الفلسطينيّ بإقرار دولة فلسطينيّة عاصمتها القدس إلى جاني دولة إسرائيل، وبتحقيق حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيّين إلى أراضيهم؛ والنزاع الإسرائيليّ- العربيّ، بانسحاب إسرائيل من الأراضي العربيّة المحتلّة في فلسطين ولبنان وسوريا، وبإقرار نظام خاصّ بمدينة القدس يجعلها مفتوحة للديانات الثلاث: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام.

إنّ المشاريع السياسيّة الدخيلة افتعلت وتفتعل النزاعات الداخليّة بين الدول الإسلاميّة، السنيّة والشيعيّة من جهة، وبين المسلمين المعتدلين والتنظيمات الأصوليّة من جهة أخرى. وقد وصلت تداعياتها إلى لبنان. وفي هذه النزاعات، كانت اعتداءاتٌ على المسيحيّين وعلى كنائسهم، كما جرى في مصر وسوريا والعراق، وبخاصّة في الموصل حيث طرد تنظيم «داعش» المسيحيّين من بيوتهم وأراضيهم فقط بالثياب التي عليهم، وقد سلبوهم المال والحلى والدواء والطعام والكسوة، لا لأنّهم طرفٌ في هذه النزاعات، بل فقط لأنّهم مسيحيّون مخلصون لأوطانهم، وهم فيها منذ ألفي سنة، يعيشون مع المسلمين عيشًا سليمًا متعاونًا ومتكاملاً، منذ ألف وأربعماية سنة، وقد خلقوا معًا ثقافة الاعتدال والانفتاح، وساهموا في بناء وتطوير بلدانهم على كلّ صعيد، وبخاصّة في نهضتها الثقافيّة والاقتصاديّة. إنّنا نعلن تضامننا مع إخواننا المسيحيّين، ونشجب كلّ اعتداء ظالم عليهم، لا يشرّف الإسلام، بل يرتكب جريمة فظيعة بحقّ الانسانيّة، لم تكن لتخطر على بال أحد من عالمنا المتمدّن.

٧. إنّ **مسيحيّي بلدان الشّرق الأوسط يتطلّعون إلى مسيحيّي لبنان**، بسبب ميثاق العيش المشترك المسيحيّ- الإسلاميّ، المنظّم في الدستور، بحيث يفصل النظام السياسيّ في لبنان بين الدّين والدولة، ولكن الدولة تحترم كلّ الأديان؛ وتعترف بحريّة العبادة والمعتقد، وبجميع الحقوق المدنيّة، وبشرعة حقوق الانسان؛ وتساوي بين المسيحيّين والمسلمين في الحقوق والواجبات، بحكم المواطَنة؛ وتنظّم في الدستور بروح الميثاق الوطنيّ مشاركتهم المتساوية بالمناصفة والمتوازنة في الحكم والإدارة. ولذلك، يعتمد لبنان النظام الديموقراطيّ البرلمانيّ، ولا يعطي مجالاً لأيّ ممارسة ديكتاتوريّة أو توتاليتاريّة أو استبداديّة، ولا مجال لأيّ تفرّد في القرارات الوطنيّة، بحكم الدستور والميثاق الوطنيّ والصيغة الميثاقيّة. وهي ثلاثة مترابطة ومتكاملة ومتفاعلة.

ولهذا السبب، يأمل مسيحيّو الشّرق الأوسط، أن يعبر يومًا إلى بلدانهم هذا التعاون المسيحيّ- الإسلاميّ المنظّم في لبنان. وهي أمنية عبّر عنها أيضًا القدّيس البابا يوحنّا بولس الثاني في الإرشاد الرسوليّ «رجاء جديد للبنان» (راجع الفقرة، ٩٣).

٨. وفوق ذلك، يغذّي هذا الأمل، عند مسيحيّي الشرق الأوسط، وجود رئيس **مسيحيّ- مارونيّ على رأس الدولة اللبنانيّة**. وهو الرئيس المسيحيّ الوحيد في جامعة الدول العربيّة.

نحن **ندرك همّكم، أيّا الخرّيجون والخرّيجات**، وهمّ جميع اللبنانيّين، وأصدقاء لبنان، ومُحبّيه إقليميًّا ودوليًّا، بشأن منصب رئاسة الجمهوريّة. يؤلمنا جميعًا، بل يجرح كرامتنا الوطنيّة في الصميم، عجز نوّاب الأمّة عن عقد أيّ جلسة مكتملة النصاب، بعد الجلسة الأولى اليتيمة، لانتخاب رئيس للجمهوريّة بنصف عدد نوّاب المجلس النيابيّ زائد واحد. والسبب هو النزاع المستحكم بين فريقي ٨ و١٨ آذار، فيبدو ظاهريًّا أنّه من الصعب على أيّ منهما أن يصل بمرشّحه إلى سدّة الرئاسة، أو أن يقبل بمرشّح الفريق الآخر. فبات الناس والعديد من المرجعيّات يطالبون باختيار إحدى الشخصيّات المارونيّة، أكان من هذين الفريقين أم من خارجهما، إذ يوجد عدد منها يتمتّع بالمعرفة والتمرّس في شؤون الدولة وبالأخلاقيّة والتجرّد ونظافة الكفّ، وتكسب ثقة الكتل السياسيّة وأعضاء المجلس النيابيّ.

لكنّنا لا نقبل مطلقًا بالوصول إلى الجلسة الانتخابيّة العاشرة بذات خيبة الأمل، ونحن على مشارف استحقاقات دستوريّة تختصّ بنهاية مدّة المجلس النيابيّ. ولا نقبل بهذا التمادي في عدم انتخاب رئيس للجمهوريّة، لأيّ اعتبار شخصيّ أو فئويّ كان، ولا بالذهاب بالبلاد إلى المجهول. فلا يحقّ لأحد أن يتفرّد بقرار وطنيّ هكذا خطير وخطِر. بل من واجب المجلس النيابيّ، بحكم الدستور، أن ينتخب رئيسًا للجمهوريّة، قبل أيّ عمل آخر. بل كان من واجبه انتخابه قبل ٢٥ أيّار الماضي. فليدرك السادة النوّاب أنّهم بذلك يقترفون مخالفة جسيمة للدستور والميثاق الوطنيّ، لأنّهم يقطعون رأس الدولة، ويشلّون عمل المجلس النيابيّ والحكومة، ويفكّكون كيان الوطن.

٩. **ومن بين همومكم**، أيّها الخرّيجون والخرّيجات، **الشّأن الاقتصاديّ والاجتماعيّ** الذي ينذر بالخطر الكبير. فمن أجل الخروج من الأزمة الاقتصاديّة المتفاقمة، ومن تداعياتها الاجتماعيّة والأمنيّة والأخلاقيّة، عمدنا في البطريركيّة، بواسطة المركز البطريركيّ للتوثيق والأبحاث، إلى وضع «**وثيقة اقتصاديّة**» ستُنشر قريبًا، تعاونًا على وضعها مع اختصاصيّين وخبراء في الاقتصاد والصناعة والمال. واستندنا فيها إلى تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، وإلى نصّين من المجمع البطريركيّ المارونيّ مختصّين بالشأنَين الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

إنّ لبنان بحاجة إلى تضافر جميع القوى المعنيّة من أجل النهوض بالاقتصاد الوطنيّ، وجعله اقتصادًا حرًّا واجتماعيًّا يزيل الهوّة بين فئات المجتمع اللبنانيّ. أجل، لبنان بحاجة إليكم، أيّها الخرّيجون والخرّيجات! فهو يحفظ كرامتكم وهويّتكم ورسالتكم.

١٠. ولا ننسى **همومكم وهموم اللبنانيّين** التي تختصّ على التوالي: **بآفة بيع الأراضي**، وما زلنا ننتظر تعديل قانون تملّك الأجانب لدى لجنة الإدارة والعدل؛ **وبقانون استعادة الجنسيّة** للمتحدّرين من أصل لبنانيّ الذي ما زال لدى اللجان المشتركة منذ عشر سنوات، وهذا حقّ للّبنانيّين المنتشرين، وهم ثروة كبيرة للبنان؛ وبتطبيق **اللامركزيّة الإداريّة الموسّعة**، **والإنماء المتوازن** في جميع المناطق اللبنانيّة.

في إطار كلّ هذه الهموم، يطيب لي أن أسمّيكم فوج حماية الجمهوريّة والكيان اللبنانيّ. فانطلقوا إلى رحاب الوطن بهذا الالتزام المزدوج.

عشتم! عاشت جامعة سيّدة اللويزة! عاش لبنان!

تنطلقون من الجامعة بفرح النهاية، ولكنّكم تدخلون معترك الحياة بهموم البداية

أمّا البداية فكانت بصلاة تلاها الرئيس العامّ للرهبانيّة الأباتي بطرس طربيه، عهد فيها إلى أمومة مريم الجامعة والخرّيجين ومن يُضطهدون ويُظلمون... قال:

ربِّ وإلهي
تقبَّلْ من جامعَتِكَ هؤلاء الخرّيجين.
أطلِقْهُم للعمل في حُقول الحياة.
احمِهم واحفَظْهم في الحقّ، كي يبقَوا شاهدين لك، أنتَ الحبّ الّذي لا ينضب!

ويا مريم
يا والدةَ الإله
يا مَن كرَّسَ شعبُ هذا البلد، بأديانِه وحكّامِه، لبنانَ لقَلبِكِ الطاهر؛
نُقَدِّمُ لكِ، اليومَ، هؤلاء الخرّيجين الّذين ينطلِقون إلى مُعْتَرَك العمل والإنتاج.
أبقِهِم شُعلةً متّقدةً بالإيمان والثقةِ بمُستقبلٍ أفضل.
قودي خُطاهم، فيثبُتوا على المحبّةِ والانفتاحِ والحوار.
وإذا سادَ التعصُّبُ من حولِهِم، واستبدَّتِ الكراهيةُ والجهلُ بإخوتهم، لا تجعليهم يَسقطون متنكّرين لرسالَتِهم كأبناءٍ لكِ في الإنسانيّةِ والنعمة!

قوّي، يا مريمُ، راعيَ هذا الاحتفال غبطة أبينا البطريرك، نيافةَ الكاردينال مار بشاره بطرس الراعي، رئيسَ كهنةِ ابنِك، المزدانَ بالحكمةِ في سبيل القداسة!

اشفعي فينا، فَيَصِلَ وطنُنا إلى استقرارِهِ،

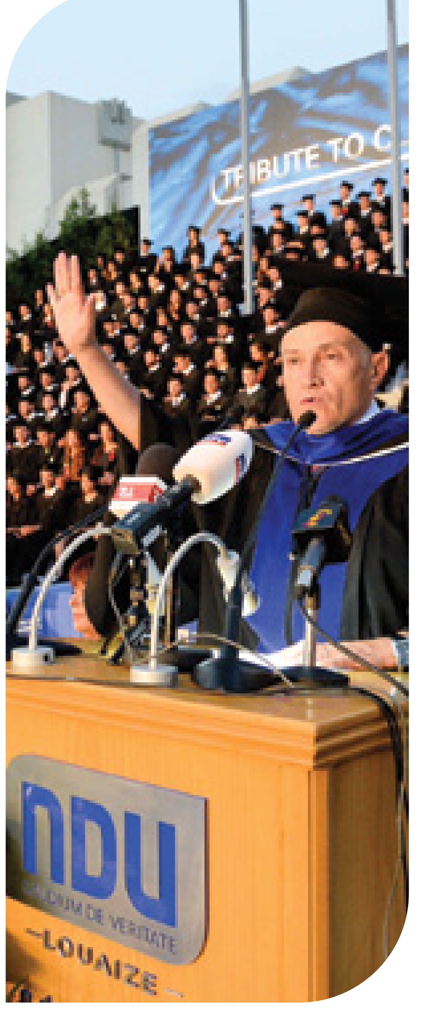
في انتخاب رئيسٍ للجمهوريّة يكونُ مرجعًا لوحدة المواطنين، على اختلاف معتقداتهم وتيّاراتهم السياسيّة!

احفظي جامعتَنا ورهبانَنا، وقدّسي أبناءَها!

نَعهَدُ إلى أمومَتِكِ الحنونِ مَن يُضطَهدون ويُظلَمون ويُقتلون من إخوانِنا، في العراق وسوريا وغزّة.
أمطري محبّةَ ابنِكِ في القلوب،
فينتصرَ الحقُّ ويستتبَّ الأمن
وتتحقّقَ إرادةُ الآبِ السمويّ في كُلٍّ منّا
ونحيا شهودًا لحضارةِ المحبّةِ والحياة
ونمجّدَ إلَهَنا الثالوثَ الواحدِ إلى الأبد. آمين.



*والأستاذ **سهيل مطر** كانت له غيرُ تحيّةٍ وغيرُ دعوةٍ وغيرُ دعاءٍ، من واقع الحال ألمًا أو أملاً، وقد سلسلها في لاميّةٍ أوّلُها حمدٌ وآخرُها وردةٌ لمريم:*



الحمدُ لله يبقى الحبُّ والأملُ   راعي البشارةِ حيّوا، يفخرُ الجبلُ
هذي اللويزةُ بعضٌ من صناعته   هو المؤسّسُ وهو القائدُ المَثَلُ
وجيشَ لبنان حيّوا، عيدُه شرفٌ   من وقع أقدامه النيرانُ تشتعلُ
جنودُه أُسْدُ حبٍّ، من بنادقهم   يطلُّ فجرٌ به الأمجادُ تغتسلُ
عزٌّ لأمّته مَن سيفُه شرفٌ   لا من يحالفُ من باعوا ومن قتلوا
نورٌ لأمّته مَن كفُّه قسَمٌ   لا مَن يكذّبُ حتّى وهو يبتهلُ
مجدٌ لأمّتِه من رَدَّ مرتحِلاً   لا من يوطّنُ شعبًا وهو يرتحلُ

▪▪▪▪

يا سيّدي، ها هم، أبناؤك نُجُمٌ   شعّت، ونحن بهم، نسمو ونحتفلُ
من كلِّ لبنانَ جاؤوا، العزُّ وقفتُهم   وفي العيونِ تلاقى الحبُّ والمُثُلُ
الزّوقُ، برسا، ومن ديرٍ يَشِعُّ هدىً   عرسُ اللويزة، في الأفراح، يكتملُ
أنظرْ إليهم، شبابًا، كالسيوفِ، إبًا   أنظرْ اليهم صبايا، يشهقُ العسلُ
لم يركعوا ركعةً إلاّ لخالقهم   إلاّ بعطر شميم الأرز ما ثَملوا
ما قدّسوا صنمًا، ما دنّسوا وطنًا   ما مزّقوا لحمةَ التاريخ، ما قتلوا
بصوتي، اليوم، صوتٌ واحدٌ أبدًا   أهلاً بكم، وليتغاوَ الأرزُ والجبلُ

▪▪▪▪

يا أصدقائي لهذا اليوم نرصدُكم   كأنّه العرسُ، بالأضواء يكتملُ
ربيعُ لبنانَ أنتم، زهّروا أملاً   لكم نمدِّدُ، حبًّا، لا لمن كسلوا
تمرّدوا، فميادينُ العُلى وُجِدت   من أجلكم، وبكم تغوى وتحتفلُ
دقّوا القلوبِ اسمعوا أصداءَ لهفتها   من يسكنُ القلبَ لا يحلو له بَدَلُ
في العين، في القلب، أنتم، في ملاعبنا   وفي الصفوف، لكم ذكرى ولا خجلُ
آباؤكم ها همُ، والأمّهاتُ هنا   والأمنياتُ كما لو أنّها حِلَلُ
والقبّعاتُ على هاماتكم نُجُم   من أجلِ لبنان تعلو وهي تبتهلُ

▪▪▪▪

بالروحِ، بالدمِ، لا لن تهتفوا أبدًا   بالروحِ بالدمِ بالأعصابِ تشتعلُ
نفدي بلادًا، ولا نفدي رجالَ دمىً   وجوهُهم بسوادِ الشرّ تكتحلُ
نهرٌ من الدمِ يجري غيرُ منقطعٍ   من غزّةٍ دمعةٌ، من موصلٍ قُبَلُ
يا ويلَنا إن بقينا في تمزّقنا   ماذا يقول «القياديّون» إن سُئلوا
يا سيّدي أغضبوك، لا تهادنْهم   أوطانُهم بقروشِ الذلِّ تُختزلُ
إِغفرْ لهم، لا، لماذا أنت ترحمُهم؟   يدرون هم، كلّ ما راموا وما فعلوا

▪▪▪▪



عذراءُ، أمّي، أنا سكرانٌ من وجعي   ردّي إليّ زمانًا فيه أحتفلُ
زرعتُك الحبَّ في أرضي وفي نبضي   يا أمّ ربّي إليكِ الوردُ والقبلُ





*رئيس الجامعة **الأب وليد موسى**، الذي سمّى الدورة: **دورة بشاره الراعي**، قال للخرّيجين: إذا كان لنا أمل في التغيير... فهو من خلالكم.. فتفضّلوا إلى العمل. وكان استهلّ كلمته بالإشارة إلى ما يصادف لقاء الليلة من أعياد، رآها خمسة:*

- **العيد الأوّل:** فطر سعيد، نتمنّاه خيرًا وسلامًا على جميع اللبنانيين وعلى جميع العرب والمسلمين، وصلاتنا من القلب أن يتوقّف نهر الدماء الذي يجري في هذه المنطقة من العالم.

- **العيد الثاني:** اليوم ٣١ تمّوز: عيد شهداء مار مارون. هكذا هي المارونيّة، وهكذا ستبقى: شهداء من أجل الأرض، شهود من أجل الحقيقة، وشهادات توزّع من أجل الرقيّ والحضارة.

- **العيد الثالث:** غدًا، أوّل آب، عيد الجيش اللبنانيّ، تحيّة من القلب لكلّ جنديّ ورتيب وضابط، وليحيَ لبنان بشعبه وجيشه وشهدائه الأبرار.

- **العيد الرابع:** عيد تخرّجكم، أيّها الطلاّب الأعزّاء. أهلكم ونحن، ننتظر هذه اللحظات؛ ما أسعدها، وكم هي غالية! فشكرًا لله، والله يوفّقكم.

- **أمّا العيد الخامس،** العيد الكبير، وبه نتكرّم نحن: هو وجود سيّدنا صاحب الغبطة والنيافة مار بشارة بطرس الراعي، في طليعة من سيبارك الشهادة التي تستحقّون

أيّها الأعزّاء، وهو يرى فيكم لبنان- الآخر، لبنان الجديد الذي لا أمل إلاّ به، لبنان الذي نذر نفسه من أجله. وتعال، سيّدنا، يا صاحب الغبطة، نتذكّر أنّ في مثل هذا اليوم، منذ ٥٢ سنة، - ٣١ تمّوز ١٩٦٢- وقف شاب في كنيسة هذا الدير القديم، ليعلن نذوره في خدمة الله والانسان. ذاك الشاب هو الفتى الآتي من حملايا: بشارة الراعي.

أيّها الأهل الأحبّاء

ها هي الساعة المنتظرة تدقّ: شكرًا لجهودكم. تعبتم، سهرتم، سكبتم عرقًا ودموعًا، صلّيتم... وها هم أولادكم، الفتيات والفتيان، يحيّونكم، بمحبّة، ويرفعون قبّعات التخرّج، ليقولوا لكم أيضًا: شكرًا.

أمّا أنتم المتخرّجين والمتخرّجات، فماذا بعد الشكر وتقبّل التهاني؟ إلى العمل، إلى المجتمع، إلى العطاء، إلى التعب، إلى الجهاد في سبيل حياة سعيدة. الأهل ونحن، أدّينا واجبنا. جاء دوركم: كونوا كما أنتم اليوم، مدعاة فخر واعتزاز، لا تخيّبوا لنا أملاً. وإذا كان لنا من أمل في التغيير: التغيير الاجتماعيّ، الوطنيّ، الثقافيّ، الاقتصاديّ... فهو من خلالكم. أتعبتنا السياسة، أتعبنا التدهور الأمنيّ، أتعبنا الوضع الاقتصاديّ... حان الوقت لكي تتحمّلوا مسؤوليّة التغيير؛ فلا تتقاعسوا، ولا تتكاسلوا، ولا تتخاذلوا. كلّنا بحاجة إليكم، تفضّلوا إلى العمل.

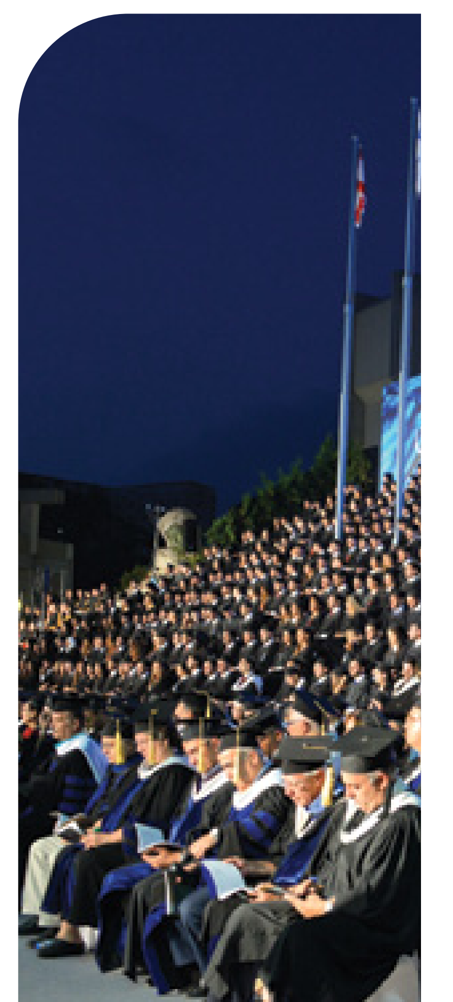
أمّا أنتم أيّها المسؤولون الكرام

أناديكم، أمام غبطة أبينا البطريرك، وأمام هذا الجمهور الكريم، لأقول لكم: كفانا مهاترات وسياسات فارغة وتقاسم حصص. القلق المصيريّ يعصف بنا، والكثيرون منكم في غفلة.

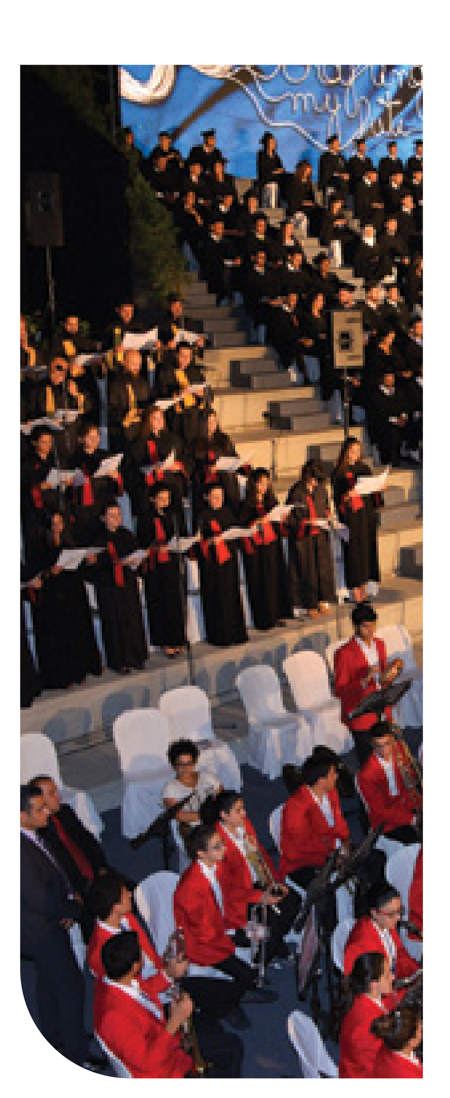
قبل كلّ شيء، نناديكم، كي تفرجوا عن الرهائن: من هم؟ هم مجموع الطلاّب المرشّحين إلى البكالوريا والبريفيه، والذين أخذتموهم أسرى المصالح والحسابات الصغيرة.

قولوا لنا: ماذا سنفعل بعد أيّام او أسابيع، عند افتتاح السنة الجامعيّة الجديدة؟ ماذا سنفعل مع الطلاّب الجدد، وهم لا يحملون الشهادات المطلوبة؟ رحمة بهم، بأهلهم، بمستقبلهم، إعملوا على حلّ هذه المشكلة في أقرب وقت.











أمّا أنتم أيّها الأساتذة والموظّفون

شكرًا لكم، اليوم هو أيضًا، عيد لكم، وأنتم ترون أنّ تعبكم أزهرَ ورودًا وابتسامات في عيون هؤلاء الطلاّب.

معكم، مع الآباء والمسؤولين، نوّاب رئيس وعمداء ورؤساء أقسام،

مع مجلس الأمناء برئاسة الدكتور فرنسوا باسيل،

مع المجلس الأعلى بقيادة أبينا قدس الأباتي بطرس طربيه ومجلس المدبّرين،

حقّقنا، خلال سنوات، ما تعجز عنه مؤسّسات كبيرة وعريقة. طريقنا إلى الاعتماد والتميّز وضمان الجودة في المسار إلى التحقّق. ومعكم، ستتابع الرهبانيّة الطريق، ومعًا سنحقّق نجاحات متعدّدة، ونؤمّن اختصاصات جديدة وأسواق عمل لطلاّبنا، ولا تعجبوا، إن رأيتم، في السنة القادمة، أبنية ومختبرات، ومستشفى قيد التنفيذ، وكليّات قيد المباشرة بالعمل، هنا، في الذوق، أو هناك في فرعي برسا ودير القمر. أقول: معكم جميعًا، لأنّني مؤمن أنّ رئيس الجامعة القويّ والفعّال، ليس قويًّا وليس فعّالاً إلاّ بمن يحيطون به، ويعملون، بتضحية ونبل، كي تصبح الجامعة مركز إشعاع ومقلع عمّال في سبيل الوطن. أشكركم جميعًا، وأذكركم بصلاتي، أينما كنت وفي أيّ موقع.

تبقى أمنية أخيرة، أوجّهها إلى أخينا الكبير، أبينا وسيّدنا بشارة:

شكرًا لك، أنت أسّست، أنتَ بنيت، أنت تعمل اليوم من أجل الكنيسة ولبنان.

إسمح لي أن أُطلق على هذه الدورة اسم: **دورة بشارة الراعي**.

وتحيّة لك، صلاتنا معك،

وليحيا لبنـان.

*وأخيرًا، وليس آخرًا، فليس أبلغ ممّا أنهت به طليعة الدورة الآنسة **مليسا عَبس** كلمتها قائلةً لرفاقها: فكّروا بوساعةٍ وتميّز واعملوا بجدٍّ وكدّ:*

MELISSA ABS

Nutrition and Dietetics, Valedictorian of Class 2014

As I look out into the crowd before me, I sense waves of emotion from everyone present. Four years ago, most of us walked into the Campus nervous as the first day we walked into school. Now, we are leaving NDU behind to a completely new group of students, most of whom were just as nervous as we were when we arrived. For parents, the sense of pride you have in your graduate's accomplishments is immeasurable. You have a sense of joy in knowing that the child you have raised earned a college degree- but then again, the joy could be coming from the fact that there will be no more tuition fees. For teachers and professors, the sense of pride is also prevailing. Although I'm certain that a small part of each one of you is relieved for not having a particular student enroll in any of your classes ever again! Nevertheless, NOTHING can top the feelings that we graduates have right now. I'm sure most of us will remember this tonight - clearly for the rest of our lives.

After countless assignments and projects, and many of what seemed as never-ending classes, after all the stressful midterms and finals and not to mention pop quizzes and long lab hours, here we are FINALLY graduating!

Two weeks ago, I received a call from my mentor Dr. Antoine Farhat, Interim Vice-President for Academic Affairs and Dean of the Faculty of Nursing and Health Sciences (FNHS) at NDU. He informed me that I was the Valedictorian for the Class of 2014. At first I was surprised. Even though I was able to maintain a GPA of 4.0, being the valedictorian never crossed my mind. Then, I was confused. You see, before that call, I wasn›t even planning on attending the graduation ceremony! Actually, I already graduated with a BA in Advertising and Marketing a few years back, and thought that it was unnecessary to participate in the same ceremony again (you can imagine of course what my mom had to say about that!). But that call definitely changed my plans. After the confusion, came the feeling of responsibility. I have to be the voice of more than eight hundred graduating students tonight. I mean, I have to be honest, isn›t it ironic that the reward of A LOT of hard work is public speaking? The number one fear in America? Death is number two! I actually had a nightmare last night that I tripped and fell while making it to the podium, and that I had completely forgotten to write my valedictory!

Setting nervousness aside, I feel really privileged to be standing here tonight. Our graduating class is so diverse and I cannot pretend to understand what everyone's experience of NDU has been. But for me, I chose NDU as my university of choice for my first major simply because it was close to my home. But then I chose NDU to be yet again my first choice. I chose it again because it raised in me a sense of belonging. I chose it again because of its amazing teachers and professors. I chose it again because of the quality of the education it provides and its highly interactive student life. I chose it again because NDU became my second home and staff and faculty members became my second family. I heard NDU President Fr. Walid Moussa once say, 'NDU is really defined by its people.'

As I look at the graduating class tonight, I can›t help but think about the various roads that each one of them could be taking. Where to from here? Some of us will go on to graduate school, some of us will travel searching for better opportunities, some will have fantastic jobs lined up, and some will very well end up back here teaching. But I know one thing though, and it›s that if our road to success was rough, NDU provided us with sturdy shoes.

Now that our journey here has come to an end, the time has come to express our gratitude to all our faculty members, chairs, deans, the administration, and every member of the NDU staff. I would like to specifically thank Dr. Antoine Farhat who is truly an inspiration, Dr. Doris Jaalouk, Dr. Jessy el-Hayek, whom I look up to, and Mrs. Maya Abou Jaoude. Allow me to also thank my mom who is the reason why I'm





standing here tonight, my sister who›s my best friend, my husband who›s my support system and my friend - you know who you are - who I spent countless hours with, studying for tests together and making memories that will last a lifetime. And most importantly I would like to thank God who blessed me in more ways than I can describe.

I won›t be ending my speech with an eloquent quote or poem. Instead, I›d like to address the Class of 2014 by saying, think big, think different, and work hard!

Congratulations Class of 2014!

وبعد أن وُزّعت الشهادات، وقُدّمت المنح للمتفوّقين، ورُفعت القبّاعات، وانتهى الاحتفالُ مزدانًا بالأسهم الناريّة،.. مضى الخرّيجون إلى سهرةٍ عانقَ فيها فجرُ آب الهزيعَ الأخيرَ من ليلِ تمّوز...















THE GRADUATES

TRIBUTE TO CLASS 2014

الخرّيجون

I . FACULTY OF ARCHITECTURE ART & DESIGN

MASTER OF ARTS DESIGN

Summer 2013
EDDY GEORGE ABI ABDALLAH
SARAH ABED HAMWI

Academic Year 2013-2014
MASSOUD GEORGE HABIB

BACHELOR OF ARCHITECTURE

Summer 2013
CHRISTELLE ELIAN FARAH
ELIE JAMIL JABBOUR
* CHARBEL GEORGES KHALIL
ELIE HABIB YAMMINE

Academic Year 2013-2014
GEORGE CHEBEL ABOU CHEBEL
ELIE GHASSAN ABOU FAYAD
CHRISTIAN ELIE ATALLAH
SARKIS JOSEPH AYOUB
MIREILLE ANWAR AZZAM
ELIAS ANTOINE BOU CHAAYA
* HIBA SAMI BOU HABIB
RACHEL ADEL DARAKJI
JOSIANE ABDO EL BOUEIZ
MARK CHARBEL JABBOUR EI GHARIB
* EMIL BASSAM GEAGEA
ANTONIO FOUAD GEMAYEL
MILIO AMINE GHANEM
ELIE ALBERT HOBEIKA
GRACE HAGOP JALEKIAN
RABIH JALIL JAMIL
** REINE NICOLAS KABBANI
WISSAM M. GHASSAN KABBARA
RITA EMILE KASSIS EL
* MARIANNE CAMILLE KHALIL
ANIS SOLEIMAN KHAYRALLAH
JOANNE MARCEL KHEIR
JOE ROBERT KHOURY
ALBERT JOSEPH KHOURY EL
CYNTHIA SIMON KHOURY EL
** CHRISTELLE CHEHADEH MAALOUF
** WAEL NAJEM NAJEM
RAPHAEL RAFIC NASR
ELIE RAYMOND NASSAR
FAHAD TAREQ NSAIF
CAROLINE YALDA OCHANA
FIRASS GERGY RAHI
YOUSSEF BOUTROS RAHY
FIRAS NABIL SAAB
RANA MUHAMMAD HASHEM SAFI
CHARBEL JOSEPH SALAMEH
CHRISTELE JEAN TOHME
NANCY ELIAS YAZBECK
JESSICA NICOLAS ZAKHEM
* MARIE LINE TOUFIC ZGHEIB

BACHELOR OF ARTS FASHION DESIGN

Summer 2013
* KRYSTELLE ATEF ABDEL MASSIH
CYNTHIA NABIL WEHBE

Academic Year 2013-2014
•*** ADREA VICTOR CHOUKEIR

GRAPHIC DESIGN

Summer 2013
PATRICIA JEAN GEAGEA
ASSIL MUSTAPHA GHADDAR
NOUR RADWAN HADDAD
ANDREA AVEDISS TERZIAN

Academic Year 2013-2014
GRACE BADIH ABI RIZK
SIGMUND TANIOS ABOU CHROUCH
PATIL JOSEPH AROYAN
JASMINE GEORGE ASHKAR
* CYNTHIA GEORGES ATALLAH
* VICKIE UGO VINCENZO BOSCHIERO
PRISCILLA ANTOUN CHAMMAS
ARAZ NISHAN AKSEL DER OHANNESSIAN
RALF ANTOINE DIAB
RAYYAN EMILE FREM
WAEL MARWAN GHANNAM
* ABIR SAMIR HADDAD
CYNTHIA EDWARD KLAT
* PAMELA RIMON MAKDESI
JENNIFER RAE ELIAS MOUSSA
CHRISTINA JANE NADI NAMMAR
NABIL MALEK NARCH
LORENA SELIM SAADE
KATIA SAMIR SAHYOUNI
CELINE JOSEPH SALAMEH
JOSETTE MAROUN SALAMEH
ROY SAMI SFEIR
* RIWA ANTOINE ZOUEIN

INTERIOR DESIGN

Summer 2013
CHRISTINA ADEL ZARD

Academic Year 2013-2014
DANNY ALFRED ABI FADEL
MIA TONY ABOU CHAB
MAROUN SAID AKL
ROGER BADAWI ALAM
CHRISTINA GEORGES ATTIEH
* TALAR OHANES BARDAKJIAN
CHARBEL ANTOUN BECHARA
JOSEPH KARAM BEJJANI
RAWAN ELIAS DAHOUD
* JUSTINE FARIS DWAIRI
TRACY GABY GHOLAM
* REBECCA SOUHEIL HACHEM EL
* NADINE MICHEL HOKAYEM
* VANESSA ELIE JABBOUR
RITA DAOUD KHALIL
YARA SAID KHOURY
ISAIE YOUSSEF KOZAILY
KAREN NICOLAS KURBAN
CHARBEL ALFRED MADY
ADOLPH SAMI SAAD
ROGER ANTOUN ZALLOUM

MUSIC-MUSIMEDIALOGY

Summer 2013
** JOY MICHEL HAKMEH

Academic Year 2013-2014
RANY NABIL BATTIKH
CHRISTIAN SAMI SAKR

II . FACULTY OF BUSINESS ADMINISTRATION & ECONOMICS

MASTER OF BUSINESS ADMINISTRATION

Summer 2013
REINE GEORGES ABOU ANTOUN
SANDY NABIL ACHKOUTY
ELIE CLEMENT ASSAF
CHADIA MICKAEL AYOUB
VIOLA KARIM BADR
ABDO SALIBA CHAMMASS
LEILA JEAN HARMOUCH
RAMZI SAMI KATAT AL
MARIANNE ABDALLAH KHLAT
PIERRE GEORGES SALIBA
ELIE FAHIM SEMAAN ALAM
DAISY GERGES ZGHEIB

Academic Year 2013-2014
MICHA NABIL ABDELNOUR
KATIA BOUTROS ABI RAMIA
CHARBEL BOUTROS AMMAR EL
GACIA HAGOP APIKIAN
GHISLAINE GRACE GEORGES AVEDIKIAN
GEORGE ANTOINE AWAIDA
TAGHRID KAMAL BEAYNI
YARA ANTOINE BITAR EL
GUITTA JOSEPH BOU DAOU
RAFIC SEMAAN BTEISH
MARIE-ANNE KAMAL CHARTOUNI
RITA KAMIL DAGHER
EDDY ASSAAD EID
SANDRA JEAN EID
MARIANNE ANTOINE FINIANOS
LARA NABIL GHAFARY
BERNARD GEORGES GHOLMIEH
CHANTAL TONY HANNA
CARINE JOSEPH HATTOUNI EL
REBECCA SAMIR HOSRY (EL)
ANTHONY HANY KEYROUZ
JESSY SAMI KHOURY EL
RONY-NEHME YOUSSEF LAHOUD
MARC SAMI MACHAALANY
CHARBEL ANTOINE MAGHAMES
JOELLE SAMIR MAKSOUD
GEORGES TOUFIC MANSOUR
RAMI AZAR MITRI
NATHALINO NAKHOUL NAKHOUL
NADINE GEORGES NAWAR
HADI BADER RIACHI
ELIE KHALIL RIZK
NISRINE ISKANDAR SAMARA
RIM JAMAL SUCCARI
HOSSEP PAPKEN TEKEJIAN
LETITIA DAVID VARNEY
SOPHIA TOUFIC WAKIM
JESSICA NABIL ZGHEIB
ELIE KHALIL ZOGHBY

MBA-MASTER OF SCIENCE IN INTERNATIONAL BUSINESS

Summer 2013
RAYAN JOSEPH ZAKHOUR

Academic Year 2013-2014
ANGELA ALBERT ABDEL SATER
JESSICA RAYMOND AOUN
ABBAS MOHAMAD CHREIF
ROSA HANNA HADDAD EL
EDGARD SAMI HAJJAR
LINA NOUHAD KHADIGE
CHRISTOPHER LEON MALAJIAN
CYNTHIA CHARBEL MERHEB
JEAN YOUSSEF NACCACHE
DAVID YOUNAN SEMAAN

BACHELOR OF BUSINESS ADMINISTRATION

Summer 2013
ABIR RIAD ABDULKHALEK
*** SAMIRA GHASSAN ABI DAMES
CHRISTINE GEORGES ABI RIZK
JULIEN SAMI ABI SAMRA
SARAH YOUSSEF ABOU CHAKRA
RAMI RYAD ABOU ZIKI
SIMON JOSE SALEM AL HAJJ
IBRAHIM MARWAN AL JURDY
YARA GERGES AMMAR EL
ALAIN GEORGES ASMAR
DANIEL AREF AUDI
JAD SALIM BOU ANTOUN
MARIO JOSEPH BOU GHOSN
GEORGES ANTONIO TONY CHAMOUN
CHARBEL AMINE CHEBLI
MIA CLAUDE CHEMALI
JESSICA MARIO DAABOUL
MICHEL IBRAHIM DAHER
VANESSA VICTOR DEBS
RIBAL JOSEPH EL ZOGHBI
TAREK TANNOUS FADDOUL
CHRISTIAN MICHEL FAHD
NICOLAS CHUCRI FARAH
HANI JOSEPH GEBARA
CHRYSTELLE NICOLAS GHANEM
ROLAND EMILE HABIB
ERIC EDWARD HADDAD
KARL AZIZ HANNA DAHER
CHARBEL MICHEL HAYKAL
RAMONA RAYMOND HOJEILY
CYNTHIA ABDALLAH HOUKAYEM
YUSSEF ELIAS KANAAN
NADER MITRI KARMESTY
SELIM YOUSSEF KAYROUZ
SANDRA AMINE KHOURY EL
MARWAN FADI KREIDY
JOHNY NABIL LAHOUD
IBRAHIM SAMIR MATTA
MIRA AHMAD MHANNA
JENNY ANTOINE MORKOS-MANSOUR
JOSEPH HABIB MOUSSA
TONY NADIM MOUSSALLEM
ANTOINETTE TANNOUS MRAD
DAOUD PIERRE NACCOUR
LARA MICHEL NACHAR
ZIAD KAMAL NASSAR
CHALITA ANTOINE SADEK
CARL VICTOR SALAMEH
PETER PETAN SARKIS
ELIAS FRANCOIS SEMAAN
JIMMY PIERRE SEMAAN
CHARBEL NAZIH TABET
ANTHONY RAYMOND TANIOS AMINE
GEORGE MICHEL TARABAY
SARI MOUNIF TARABAY
MELANIE GEORGE ZAIDAN
ROY RACHID ZAKHOUR

Academic Year 2013-2014
ELIO ANTOINE ABBOUD
** DALIA HOUSSAM ABDEL BAKI
HENRI RIAD ABDEL JALIL
MABELLE MOUNIR ABDEL NOUR
RAWAD RAJA ABDELBAKI
JOY ELIE ABDO
ANDRE MICHEL ABDOU
MAHER JEAN PIERRE ABI DOUMIT
DANIEL PASCAL ABI ELIAS
* JEAN BASSEM ABI HACHEM
NICHOLAS ANTOINE ABI HAIDAR
CAMIL CHRISTOPHER GEORGES ABI HANNA
CRYSTEL ELIAS ABI MRAD
JOSEPH NAJA ABI NAKHOUL
NADA AONI ABIAD
RIBAL SAMI ABIL MONA
RITA GEORGES ABOU ABDALLAH
IBRAHIM MAHMOUD NASSER ABOU AL HASSNA
ALAIN ANTOINE ABOU ATMEH
* HANADI FADI ABOU DARGHAM
PAUL EDMOND ABOU DIWAN
SARY KARAM ABOU KHOUZAM
RAWAN BASSAM ABOUCHAKRAH
ADEEB SAMIR ABU MRAD
JOSEPH TONI ADAIME
* CHRISTEE GEORGE AKIKI
*** MARIE REINE MAROUN AKL
BASHAR ATEF AL GHAREEB
** NANCY NABIL AL RIACHI
JOSEPH MANSOUR AL-BOUTY
ABDEL HADI HILAL ALJARDALI
* DIALA SALIM ANTONIOS
KHALIL ANTOINE AOUN
MARIA ROY ARIDA
MICHEL TANIOS ASSAF
ILIYA SAMIR ASSY
ARMINEH VARTAN AVEDISSIAN
MILAD FOUAD AZAR
JOSEPH RAYMOND AZIZI
GLORIA-MARIA ROMEO AZZI
* NABIH ELIE BAROUD
RONY NABIL BARTELMAOS
SIMON SAMIR BARTOULMAOS
RAMI EPHREM BEAINO
SAMER WALID BECHARA
HIBA MICHEL BEJJANI
* MELISSA ROBERT BEJJANI
NICOLAS JOSEPH BERBERY
CHARBEL ANTOINE BERRY EL
JOEY CAMILLE BITTAR AL
* ELISSA ALBERTO MAROUN BOU ARBID
OMAR NABIL BOU EZZEDDINE
MICHAEL ANTOINE BOU FADEL
FERIAL TEISSIR BOU FAKHER
ANTOINE JACQUES BOU KARAM
CHRISTIAN ELIAS BOU KHALIL
MELISSA JOSEPH BOU KHALIL
GRACE YOUSSEF BOU NASSAR
NICOLAS JEAN BOULOS
STEPHANIE HABIB BOUSTANY
JOSEPH GEORGES BOUTROS
*** MICHAEL NABIL BOUTROS
CAROLINE MARDIROS BOYADJIAN
NANOR BOGHOS BOZOIAN
PETER MARIO CHABB EL
MAROUN JOSEPH CHAHINE
FOUAD CHARBEL CHAHWAN
CORINE MICHEL CHAKAR
TRACY JOSEPH CHAMOUN
GEORGES KHALIL CHARBEL
SORAYA SAID CHAYA
MICHELLE ETIENNE CHAYEB
** KARIM SAMIR CHEBLI
* NANCY DOUMIT CHEDID
RITA JOSEPH CHEHWAN
* THEODOR ERNEST CHIDIAC
TONY ELIAS CHOUEIFATY
JOE GOERGES DAMIEN
NOEL SLEIMAN DAMOUNI
** JOY KRISTINA NAZIH DANDAN
GUY ANTOINE DARWICHE
** CHRISTINE ELIE DER BOGHOSSIAN
ELIE-JOE IBRAHIM DERGHAM
MARIA SAYED DERGHAM
TRACY BAKHOS DIB
ELIE ANTOUN DIBO
OMAR RAYMOND DOUMIT
HICHAM EMIL EID
* CYNTHIA ELIAS EL ASMAR
ELIAS NAZIH EL HEDARI
* TANIA TANIOS EL JREIDY
ELIE RAJI EL KHALIL
* CHANTAL JOSEPH EL KHAZEN
RALPH CHARLES EL KHOURY ABBOUD
CAROLINE KHALIL EL SAOUDI
ROY ELIAS ELIAS
MARIE LYSE ROGER ESTEPHAN
JAMIL YOUSSEF FADDOUL
CHADY TANIOS FAKHRY
ROY GILBERT FAWAZ
CHARBEL NABIL FAYAD
CYNTHIA ALI FENIANOS
NARO VREJ FOUJOURIAN
JULIE ANTOINE FRANGIEH
•*** GHINWA NEMER FRAYHA
CHRISTIAN ELIE FREIHA
NAJI DAHER FREM
JOELLE ROBERT GETTY
** MARIO MAROUN GHANEM
** MARLENE KHALED GHANEM
NATASHA ABDO GHANEM
STEPHANIE ALI GHAZI
MOHAMAD SAMIR GHAZZAWI
RITA ELIE GHOSEIN
JOE MICHAEL RIZKALLAH GHOUL EL
RITA HANNA HABCHI
* CARLA MAJID HABIB
LUBNA VICTOR HACHEM EL
FADY NABIL HAIDAMOUS
JOSEPH JAMILE HAJJ EL
DANIA FAWWAZ HALLAB
ROSETTE CHEKRI HELOU EL
SARITA ZAKARIA IBRAHIM
LARISSA YOUSSEF IMAD
AMINE KHALIL JABBOUR
FOUAD ASSAAD JABRE
RAWAD ZAHI JADALLAH
* AMMAR JAMAL JAMAL
ARKAN GEORGES JOUBRAN
** BACHIR HICHAM KAASSAMANY
HOUSSAM BASSAM KABBARA
*** NICOLE NAAMTALLAH KADDOUM
RAYAN CHUCRI KAHALE
RAYA ROBERT KANAAN
SARA MTANIOS KANAAN
NASSIF GHASSAN KANAZEH
RITA HAROUTIOUN KAPRIELIAN
ADIB ISSAM KARAM
ALBERT KOZHAYA KARAM
LYNN ANTOINE KARAM
MICHEL KARAM KARAM
NICOLAS JEAN KARAM
YARA MOUFID KASSIS EL
JAD FARID KAZAN
NADIM RAJAA KERBAJ
MICHEL NAIM KHAIRALLAH
MARC CHARLES KHALIFE
KAREEM HUSSEIN KHALIFEH
CYBELLE ROBERT KHALIL
RITA NEMER KHALIL
YARA JOSEPH KHAZEN EL
MARIE LYSE YAACOUB KHOURY
MARK FADY KHOURY
RALPH ELIE KHOURY
AMANDA KOUZHAYA KHOURY EL
CHANTAL WALID KHOURY EL
ELIE AMINE KHOURY EL
NICOLE WILLIAM KHOURY EL
* VALERY DOMINIQUE KHOURY EL
* ARINE SARKIS KISHIAN
PERLA SAMI KOREH EL
RICHARD DIB LAHOUD
ELIANE ALFRED MADY
** MAYSAA RAJA MAHMOUD
CHARBEL ELIE MAKHLOUF
PATRICK ROBERT MAKHLOUF
BAHAA CHARIF MALAEB
** VANESSA ELIAS MALLAH
PIERRE MAROUN MANSOUR
RHEA IMAD MANSOUR
CHIRINE JEAN MASSAAD
ROBERT CHADI MASSAAD
SAMER ROGER MASSAAD
EHAB MOHAMAD MASSOUD
* RAED NAAMAN MATAR
LANA MAURICE MATTA
RAWAD FADI MATTAR
GILBERT FOUAD MAYO
VANESSA ELIAS MEOUCHI
CHARBEL NAIM MERHEJ
SARAH ANTOINE MERHI
JOSEPH GEORGES MIR EL
JAD KABALAN MOAWAD
WISSAM SAYED MOUAWAD
CHIRINE PIERRE MOUBARAK
LENA JACQUES MOUBARAK
* GERIES RAYMOND MOUKARZEL
SAID SALIM MOURAD
ELIE ADEL MOUSSA
JOE ZEIDAN MOUSSA
NATALIE TANNOUS MOUSSA
RAMEZ RAMEZ MOUSSALLEM
JESSICA PIERRE NAIM
MICHAEL NAJIB NAR EL
** MAYSAM ANIS NASR
HANI KHALIL NASRALLAH

* Distinction
** High Distinction
*** Highest Distinction

• Highest Rank in the Faculty due to the Academic Excellence.
ROSE CHOUEIRY Award

CHRISTIA ROGER NEHME
NICOLAS BASSAM NEHME
PIA MARIA CAMILLE NEHME
JEAN SAMIR NOHRA
MICHEL ASSAAD NOUJEIM
ROUBA ELIAS ORDAKJI
RAJA BECHARA RAAD
ZIAD RIAD RAHAL
RABIH ADIB RAHME
NANCY WILLIAM RIMAN
* CAREN ELIAS RIZK
* AMANDA FOUAD RIZKALLAH
HATEM YOUSSEF RIZKALLAH
*** SAMANTHA ROMEL ROUHANA
SAMARA KHALED SAAB
* SARAH HASAN SAAB
NADIM HABIB SAAD
SARIA ADEL SAADEH
* JACQUELINE MARY RICHARD SABA
ADHAM FADI SABEK
BADIH NAZIH SABER
RAKAN FAYEZ SAID
CHRISTINA GEORGES SALAMEH
MAYA ANTOUN SALAMEH
* RHEA YOUSSEF SALAMEH
ELIAS TOUFIC SALIBA
EVA NADIM SALIBA
* LAURA NAJI SAMIA
ANTONIOS JOSEPH SAOUMA
** HOURIK AGOP SARAFIAN
* MALAKE ISSAM SAWAYA
* CARLA ABDO SAYAH
IMAD FOUAD SAYAH
ELIAS CHARBEL SEMAAN
GEORGE JEAN SEMAAN
JOHNNY NICOLAS SFEIR
SERINA SAMI SHEHAYEB
EDWARDO FARID SILFANI
JOSEPH VICTOR STEPHAN
DAVID GEORGES SULTAWI
ROUBA JOSEPH TABARANI
GEORGE GHASSAN TABET
JOHNNY NAZIH TABET
ANGELA MARY JOSEPH TANNOUS
JANA BOUTROS TARABAY
* VANESSA ROMEO TOUMA
MUSHRIK MUFID TOUZA
ELIE MICHEL TURK
ANTHONY CHARBEL YAZBECK
MICHEL HENRY YAZBECK
MAKRAM SAMI YOUSSEF
STEPHANIE ALBERT YOUSSEF
STEVEN FARID ZAKHIA
CARLA HILMI ZEBIAN
* SALLY AHMAD ZEBIAN
TONY SAMY ZEGHONDY

BACHELOR OF
HOTEL MANAGEMENT & TOURISM

Summer 2013
PERLA ELIAS ASFOUR
DANA MAZEN BOU CHAHINE
JOSEPH ISSAM- PAUL DAGHER
KENNY GUY KHOURY EL

Academic Year 2013-2014
SANDRA ANIS ABBOUD
* NATALIA NABIL ABI JABER
** MYRIAM TONY ABI KARAM
CHADI ADNAN AMMOURY
KARL PIERRE ARATIMOS
ELIANA NABIL BOURJEILI
YVES ABDO CHAYEB
MANAL MAROUN CHIDIAC
OLIVER JOSEPH EDDEH
MICHAEL SAMI EL MURR
MELISSA BASSEM FREM
MACHA RICARDO GEBARA
SABINE JOSEPH GHANEM
MACY KHALIL HACHEM
RITA RAYMOND HAJAL
IVAN ROBERT HAYEK
JOEY SARKIS IBRAHIM
TONY JOSEPH JABBOUR
** PETRA TANIOS KARAM
* STEPHANIE MICHEL NOUJAIM
EPHREM SEMAAN RAI
JAD SALIM SACY
AMAL WALID SALEH
RAMI SALIBA SALIBA
RAMEZ BOULOS SARKIS
HANNA MIKAEL SARROUH
** LARA NABIL SHEBER
BASSAM ANIS TABCHARANY

III . FACULTY OF ENGINEERING

BACHELOR OF ENGINEERING
CIVIL ENGINEERING

Summer 2013
ROY CHEBEL AL KALLASSY
RAMY JOSEPH AZAR
GEORGES ANWAR AZZAM
ALDO CHARLES BAAKLINI
*** LOUISE MOUNIR BICHARA
*** ROSEMARY DIAB FAYJALOUN
MARIE ANTOINETTE ANTOUN GHOSTINE
IMAD ASSAAD IBRAHIM
CHIVA ANTONIOS KEYROUZ
RAED SALIM KHOURY EL
* JAD JIHAD MATTAR
* ORLIKA ZEIDAN MOUSSA
FREDDY NABIH TENN AL
ZIAD GEORGE YOUSSEF
* TALINE TOUFIC ZGHEIB

Academic Year 2013-2014
LINDA PIERRE ABBOUD
CLAUDIA ALBERT ABDEL SATER
JOHN KHALED ABLA
JOE MOUNIR ABOU EZZI
WADAD WALID ABOU NASSAR
ANGELOS MICHEL ABOU SAMAH
GEORGES ANTOINE ACHKAR
RAMY ROGER ACHKOUTY
PASCALE LABIB ACHKOUTY EL
* KAMAL KHRISTO AL-ZAKHEM
SAMER WILLIAM ALAM
** SALLY KOZHAYA ALAM AL
GRACE TALAL ALHACHACHE
JIHAD SOUHEIL ALLAM
JOE ARIDA ARIDA
PATRICK ELIAS AWWAD
ROUBA KAMIL AYOUB
** JOUMANA NABIL BAHJAT
GEORGES YAACOUB BASSIL
MIREILLE KHALIL BITAR
PHILIPPE JOSEPH BITAR
JIM KHALIL BOU NEHME SAWAYA
MARC CHARBEL MAURICE BOUSTANI EL
GEORGES JAMIL BTEICH
** KAREN NEHMETALLAH CHARBEL
** SARA PIERRE DANHA
ELIAS GEORGES EID
* HABIB ELIAS ESTEPHAN
MITCHELL MICHEL FAHED
RALPH RAFIC FAHED
** ZEINA DAOUD FARAH
GILBERT NAJIB GEAGEA
TANIOS MILED GEAGEA
IMAD IBRAHIM GERGES
*** LEA JOSEPH GHALIEH
* YORGO JEAN HABR
ROY ANTOINE HADDAD
ROY ELIA HADDAD EL
MANSOUR ADNAN HAJJ EL
CHRISTIAN MILAD HANNA
ELIE ISSAM HANNA
* TONY GEORGES HANOUCH NASRALLAH
HANNA MITRI HOUSSAN AL
HAITHAM ABBOUD IBRAHIM
RICARDOS ZAKARIA IBRAHIM
SARKIS SAYED IBRAHIM
SUZANE MOHAMAD JAHJAH
JULIANO JOSEPH JOUMAA
RALPH-NAIM ANTOINE KAROUF
YORGO NAZIH KATTAN
WISSAM JOSEPH KEYROUZ
HABIB TONY KHATTAR
* ANTHONY MAROUN KHAWAND
FOUAD FARES KHNAISSER
JACK AFRAM KHODR
ANTOINE MAOUSE KHOURY
*** JULIEN EMMANUEL KHOURY
ANTHONY JEAN KHOURY EL
** VANESSA GEORGES KHOURY MOUSSA
* CYNTHIA RAYMOND KREIDY
JOHNY YOUSSEF LATTOUF
MONZER NEEMAN MAALOUF
MARINO AKRAM MARINA
* JOSEPH GEORGES MATAR
JOSEPH PIERRE MATAR
HENRY ALBERT MECHREK
* RAMI IMAD MERDAS
BACHAR NAZIH MIR EL
CARL JOSEPH MOUDABBER
RODRIGUE MICHEL MOUSSI
ELIAS JOSEPH NAJM
YARA KHALIL NAMMOUR
CENDRELLA JACK NASRANY
RAMY ZIAD NASSERELDINE
SAMI TANIOS NASSIF
* SEVAG BEDROS OSMANLIAN
JOHN ELIAS PHARAON
MOETASSEM RADWAN RADWAN
GILBERT CHARBEL RIZK
ELIE ROGER SAFI
IBRAHIM ABED EL AHAD SAIDI EL
JOSEPH GEORGES SAKR
BASHAR AFIF SALMAN
ROBERT ELIE TAMER
ELIAS HEKMAT TANNOUS
** HADY FARES TANNOUS
GARO BARKEV TOROSSIAN
ELIE EDWARD TOUMA
RAWAD EDWARD TOUMA
ANTONIO GEORGES TRAD
MAHMOUD SAID TRAD
JAD CHARBEL YACHOUI AL
CHARLES IMAD YOUNES
GISELE HANNA ZAKHEM
ELIAS GERYES ZGHEIB
ELIAS GHASSAN ZOUEIN

COMPUTER & COMMUNICATION
ENGINEERING

Summer 2013
GILLES ELIAS BOU JAOUDE
** RAWAN RAMI KORDAB
ELIE PIERRE MAROUN
CESAR FADI MERHEJ
ELIE ALBERT NEGHAWI

Academic Year 2013-2014
JOE GABRIEL ABDELSATER
* WISSAM OUSSAMA ABDESSAMAD
* ALAA MAHER ABI FARRAJ
JACK JOSEPH ABOU SAAB
HAITHAM YOUSSIF AL HAJJ SHEHADE
** KRIKOR ROUPEN GARABED ALABASHIAN
ALAA ABDALLAH ANTAR
WASSIM HADI AOUN
NIZAR ADNAN ARIDI
BASHAR IHAB AZZU
ALEXANDRE ANTOINE BAAKLINI
MAROUN ANTOINE BEJJANI
ELIE GHATTAS BOU YOUNES
JESSICA GEORGES BOULOS
PATRICK RIAD CHEMALY
ANWAR MOHAMAD CHEHADE
CHARBEL JACK DAOU
JULIEN GEORGES DERJANY
** FREDERIC NAJI DIB
JAMES KAMIL FREN
FADI HOUSSAM HASSAN
*** ALICE CHEHADE KASSAR
CLAUD FRANCOIS KEYROUZ
JOHNNY MOUNIR KHARRAT AL
KHAJAK GARABET KIRIKIAN
SPIRO GEORGES KOLAKEZ
ANTOINE NAJIB MKANNA
* ELSY MEHREZ MOUZAYA
EDMOND CESAR NADER
RAWAD BOUTROS NAJEM
GHAYATH SLEIMAN NEHME
KAMAL IBRAHIM SAAB HARB
JEAN ANTOINE SAAD
** PATRICK GEORGES SALOME
CHARLES ELIE SAWMA
SULTAN SAMER SHAHABEDDINE
* SABINE BOUTROS YAACOUB
TAREK ELIAS YAZBECK
MICHEL GHAZI YOUSSEF
AL BARAA ADNAN ZEIDAN

ELECTRICAL ENGINEERING

Summer 2013
MARWAN GHASSAN EL HACHEM
MOHAMAD MONZER EL-KADI
ANTONIOS HANNA GHANNOUM
* CHRISTINA MARIA SALIM KARAM
* RANI HANI TABRI

Academic Year 2013-2014
ELIE MICHEL AAD
WALID CHAFIC ABI RAAD
BECHARA ROGER ACHKOUTY
** MIKE MOUNIR AKIKI
ABDO MAROUN ANTOUN
JESSICA BERNARD BEYROUTHY
NICOLAS GHASSAN CHAHINE
ELIE WAJIH FAYAD
LAURA SEMAAN GEAGEA
SAMIR JOSEPH HELOU
** NISRINE ABDALLAH HELOU EL
REBECCA JOSEPH HOBEIKA
GEORGES ELIAS IBRAHIM
* MOHAMMAD GHASSAN JAWISH
JOYCE BECHARA JBEILY EL
* SANDY ABDALLAH KADDOUM EL
RONY HRATCH KOLAKJIAN
DAVID ELIE LAHOUD
DAVID SLEIMAN MAOUAD
* SERGE RAMZI MGHABGHAB
SAMER ELIE NEHME
HADY FADY NEMR
** ANTOINETTE ABDO RICHA
GEORGES ISKANDAR SAB
JAD BASSAM SALAMEH
GEORGES BOTROS TOHME
** NAYIRI VREJ VAHRADIAN
NOEL SAMI ZOGHBI

MECHANICAL ENGINEERING

Summer 2013
FARID ISHAK AKIKI
JOSEPH KOZHAYA ALAM AL
JOSEPH ELIE CHALHOUB
JOSEPH GEORGES CHAMOUN
SHARBEL GEORGE DEEBA
JOSEPH NABIL EID
DORI SALIM HABCHI
JOSEPH ANTOINE HAKME
ELIE NABIL HOUEISS
KAMAL EMILE ISSA
** GEORGES YOUSSEF YOUNES

Academic Year 2013-2014
* ELIE ABDO ABI NASSIF
RAWAD BECHARA ABOU NACCOUL
JOSEPH GEORGES AL HELOU
WALID RAMZI AL MASHTOUB
* ANTONELLA ANTOINE AL SIOUFI
AZIZ NAWAL ANDRAOS
IMAD NABIH AZAR
GEORGE JOSEPH BACHAALANY
HAGOP GEORGES BASMAJIAN
MARK MILED BEAINO
* PETER ROGER BEAINO
RALPH MARCEL BORGI EL
ROY ELIAS BOUSTANY
ANTHONY ASSAD BOUTROS
* FIRAS YASSER BREISH
DORY SAMIR CHEDID
ANTHONY GEORGE EL HELOU
JOE GERGES ELIA
JAMES FOUAD GEADAH
ELIE TANNOUS GEAGEA
NIZAR WISSAM IBRAHIM GERGES
ETIENNE HANNA GHANNOUM
THEODOR TOUFIC HADDAD
ELIAS SABEH HAGE EL
WISSAM DAOUD IBRAHIM
* KENNY CAMILE KARAM
JEAN MARC GEORGES KEYROUZ
RALPH GEORGES KFOURY
** CHARBEL NASSIB KHOURY EL
SIMON RAYMOND KHOURY EL
** DANIEL GASAN KUZAMI
GABY NAJI MAJDALANI
* ZIAD ELIE MALKOUN
RAWAD VICTOR MASSAAD
REBECCA ROUKOZ MATTAR
JOSEPH GHASSAN MIKHAEL
CHEHADE IBRAHIM MRAD
RONY SAMIR NAKHLE
ASSAAD GEORGES NAKHOUL
** ANTHONY JOSEPH NGHAYOUI AL
GEORGIO JOSEPH NJEIM
* JAMIL GEORGES RIACHY
JOSEPH SIMON SAHYOUN
TONY CHARBEL SALEH
TOUFIC ASSAAD SALEM
** ELIAS GERGES SALLOUM
IMAD MARWAN SALMAN
CHARBEL MICHEL SAYEGH
* RAMI TONI TANNOURY
ELIE NAZIH TARABAY
MAZEN ASSAAD YACHOUI EL
* SALIM ELIE YOUNES
SAMER NABIL ZAHRAN
ALAIN MILED ZEITOUNE

IV . FACULTY OF HUMANITIES

MASTER OF ARTS
EDUCATION

Academic Year 2013-2014
LISA ARTINE DERBEDROSSIAN
PASCALE ELIAS EL HAYEK
HANY NABIH HACHEM
MARIE JOSEPH SILI
ROULA JACK ZAAROUR HADDAD
JOYCE ANTOINE ZAKKA

ENGLISH

Academic Year 2013-2014
MANAL IBRAHIM MAZBOUH EL

MEDIA STUDIES

Academic Year 2013-2014
NADA HANI ABDUL BAKI
MAYA JIBRAN ABI KARAM
CARMEN SAMIH ABOU CHAKRA
CHRISTINA GEORGE AOUN
ZOYA JABRA AWKY
AMALI YASSINE AYOUBI
CHANTAL MARWAN BACHAALANY
PAMELA BADAWI DOUMIT
CHRISTINE AYOUB EL CHEIKH
PINA RAYMOND GHOUSSOUB
WAFAA FAWZI KHADDAGE
ARPI SAMUEL KIZIRIAN
ELISE ELIAS KOUKOU
ZAVEN ARDASHES KOUYOUMDJIAN

PSYCHOLOGY-EDUCATIONAL
PSYCHOLOGY

Academic Year 2013-2014
NADA GEORGE KAI

TRANSLATION

Academic Year 2013-2014
NICOLE NAZIH RICHA

BACHELOR OF ARTS
ADVERTISING & MARKETING

Summer 2013
GRACE MARWAN ABDEL SAMAD
DALIA GEORGES ATALLAH
FOUAD GEORGES BADRAN
MARIE FRANCOISE JEAN FRANCOIS BEJJANI
PETER GEORGES BEJJANI
RHEA FARES BOUEZ
JOSEPH KOSHAYA CHALLITA
NIVINE YOUSSEF CHIDIAC
YARA GERGES DIB
WADIH GEORGES ESTEPHAN
ANDREW BOUTROS FARAH
SALMAN MAHMOUD GHARIB AL
* CAROLINE GHASSAN HOUBEICHE
MARIELLE JEAN MATTA
CHARBEL ELIE MEAIKY
MARIO JOSEPH MERHEJ
JOSEPH JACK OUEIDA
ABDULLAH MOHAMMAD RADWAN
CYRILL ANTOINE READIY
RAMI MOHAMED ZOUK

Academic Year 2013-2014
** INGRID CAMIL ABBOUD
* JOANNA MICHEL ABBOUD
** CHRISTEL GHASSAN ABDALLAH
** KIM FOUAD ABI SALEH
WISSAM RADWAN ABOU ABDO
CHRISTINA IBRAHIM ABOU DIWAN
** HADY ATEF AFIF
** GALY GARABET AJEMIAN
RAKELLE HAMID AL GHOSSEIN
* ORLIKA JOSEPH AL SELFANY
FADI HAYEL ALANDARY
ALAA FADI AMMAR
RAGHIDA KAMAL AOUN
** MELISSA SAMIR ARAIGY (AL)
GHAITH MUSTAFA ARBID
YVES MILAD ASMAR
DANIEL YOUSSEF ASSAF
MAHMOUD MOSBAH ATCHAN
JAD AREF BARAKAT
MAZEN ROBERT BAROUD
SALIM ELIAS BAZ
RACHAD HANI BEAINI
RAWAD ZIAD BOU ALWAN
JOE DIB BOU IBRAHIM
* JOHN-PAUL MANSOUR WAJIH BOU KARAM
ALAIHAM NABIH BOU MATAR
SARAH MITTRI BOU RJEILY
RAWAD GHASSAN BOUKHZAM
SALLY JOSEPH BROUMANA
** LOURD JOSEPH BASHEER BUNNI
MOHAMMED AHMAD CHAHROUR
GENEVIEVE RICHARD CHALHOUB
ROY KAMIL CHAMOUN
** PASCALE GEORGES CHEMALI
JAD ANTOINE CHEMALY
STEPHANIE YOUSSEF CHERFAN
KRYSTEL NASRI DAABOUL
STEPHANIE PIERRE DAGHER
ALBERT ELIAS DAHDAH
JOHN LEON IBRAHIM DERGHAM
DOUNIA GHASSAN DERJANY (AL)
STEPHANIE ABDALLAH DIAB
*** MAGGIE SAMIH EL EID
JENNIFER ELIAS FARAH
* NIVEEN RAMZI FARHAT
RANDA ROGER GEDEON
RAWAN NABIL GHANEM
ELISSANDRA ELIAS GHORAYEB
IHAB WALID GHOUSSAINY
ROXANE JOSEPH HABCHY
JULIE SAMIR HADDAD
RACHEL SAMI HADDAD
RODOLPHE SLEIMAN HADDAD EL
RALPH JOSEPH HAGE EL
IBTISSAM GHASSAN HARB
** MALAK MALEK HILAL
STEPHANIE SAID HLEYHEL
LORY HRAIR HOVIVIAN
TATIANA RITA JOSEPH ISHAK
* JENNIFER FARES KABALAN
RALPH ELIAS KABKAB
SARA GEORGE KALLAS
EMILE GEORGES KANAAN
MARCELLE OMAR KARAKALLA
MIREILLE ROLAND KHATER
LARA IMAD KHATTAR
* SARAH NADIM KHATTAR
TAREK WALID KHAYRALLAH
LOUAY ASSEM KHUDER
CHRISTINE MICHEL LABBAN
WALID DIAB MAALOUF
RICARDO FADY MASSAAD
VANESSA CHARBEL MATTAR
NADIM DAHER MEOUCHY
JESSICA JOSEPH NADER
* CHRISTINE SIMON NADJARIAN
RABIH EDOUARD NAKHLE
** JAD FADI NASSER
KARAM EDWARD NEHSSE
** MARY FADY RENNO
JEAN-PIERRE PIERRE ROUHANA
JAD WILLIAM SAAB ABI GHANEM
ANTOINE MIKHAEL SAAD
CHARLY ESPER SAADE
EDMOND ESPER SAADE
** RAQUEL NADIM SALAMEH
CHARBEL ANTOINE SALIBA
HISHAM GEORGES SALIBA

MICHEL ELIE SALIBA
* CYNTHIA SAMI SARKIS
PAOLA BOULOS SITT EL
ANDRE ASAAD TABET
MARWAN SARKIS TARABAY
OMAR AMEEN TARABAY
MAZEN RASHID YAMMINE
CAROL LYNN TONY YOUNAN
CYNTHIA NABIL YOUNES
GEORGE YOUSSEF ZAHM
LARA AHMAD-MAZEN ZAWAEDI
** DIANA NADIM ZEBIAN
* DINA IMAD ZEBIAN

COMMUNICATION ARTS

Summer 2013
** MAYA CHARBEL EID
GEORGES ANTOINE HADDAD EL
AYA SOPHIA SAMIR KHAIRALLAH
GRACE NAIM YOUSSEF
GEORGIA ELIAS ZOHROB

Academic Year 2013-2014
CHADY GHAZI ABOU FAYAD
RACHEL JEAN ANDRAOS
** YARA ANTOINE ASMAR EL
* SERENA SAID BOU SLEIMAN
RITA MARIO CHBAT
JOANNE NOUHAD DAGHER
* MELINDA ELIE DAGHER
SALMA AHMAD DHAYBI
AMANDA GEORGE EID
** HIBA IBRAHIM EID
CHRISTIANE ANTOINE EL HACHEM
CHERINE ELIAS EL HAJJ
RITA GEORGES HADDAD
** CAROL YOUSSEF HAJJ EL
* CHANTAL BASSEL HAJJAR
CHANTALE PIERRE HANNOUCH
CHRISTINE MAROUN HEBBO
ANTHONY MAROUN HENEINE
CLARA JACK HOKAYEM
HIBA MITRY HOUSSAN EL
JULIEN JOSEPH ISSI
CARINA TONI KADDISSI
RAMI YOUSSEF KAI
CARLA ROBERT MOUTRAN
SANDRA BOUTROS SEBAALY
MOHAMED MAJED SWAID
SAMER ANTOINE YAZBECK
ZEINAB ALI ZEIN AL TOFAYLI

EDUCATION

Academic Year 2013-2014
* SALMA DANIEL ABOU ABDO
JAWAD GEORGES ABOU JAOUDE
KAREN ELIE AL GHOLAM
GUITTA DANY AYOUB
SANDY ABDOU KRAYEM
* ASSIL HABIB MOUGHNIEH
* MARISE ANTOINE OBEID

ENGLISH

Academic Year 2013-2014
RITA YOUSSEF BOU KHALIL
* LARA SAMIR MEKKAWI EL
VANESSA JOSEPH MOUAWAD

PHYSICAL EDUCATION & SPORT

Academic Year 2013-2014
TEDDY HANY HABCHY
ELIAS JOSEPH YOUNES

PSYCHOLOGY

Summer 2013
RENA FAYE JAMAL

Academic Year 2013-2014
RIWA ANIS AKL
** AMANDA ANTOINE AOUN
* RAMY EDWARD BARHOUCHE
* ELIANA MAROUN BASSIL
* ETIENNE GEORGES CHLALA
* LEA MICHEL DEBAL
** SERGE GUIRAGOS KAYCHIAN
RANA JOSEPH KHABBAZ
* JOVANI JOSEPH KHOURY
** MIRYAM RASCHID MAHROUM
•*** RITA JOSEPH MAYDAA
AMANDA HANNA REAIDI
ZEINA YOUSSEF STEFAN

TRANSLATION & INTERPRETERSHIP

Academic Year 2013-2014
MARY-JOE TARRAF AOUN
TANIA ETIENNE GHABI
* MANAL NICOLAS KHOURY EL

V . FACULTY OF LAW AND POLITICAL SCIENCE

MASTER OF ARTS
INTERNATIONAL AFFAIRS & DIPLOMACY

Summer 2013
WISSAM ABDO HAYBI EL

Academic Year 2013-2014
REINE MILAD HOWAYEK
ROUBA HANNA SALIBY

POLITICAL SCIENCE

Academic Year 2013-2014
CHADI GHASSAN NACHABE

PUBLIC ADMINISTRATION

Academic Year 2013-2014
MAYA MICHEL ABI ADAM
HOUEIDA HASSAN BCHERRAWI

BACHELOR OF ARTS
INTERNATIONAL AFFAIRS & DIPLOMACY

Summer 2013
ELIAS ANTOINE WHAIBE

Academic Year 2013-2014
•** MARY JOE ELIAS ALAVALAS
** FRANCISCA VERNATUS ANKRAH
** TALAR ANTRANIK DEMIRDJIAN
JEFF-ROY WALID FAHD
JESSICA SABA FREIFER
MICHEL CHARLES GHANEM
JACK VICTOR HAJJ EL
RAMY JOSEPH JABBOUR
KAREN GHAZI KHOURY
NAREG HAROUTIUN KROUZIAN
RACHELE KHALIL RAHAL
ONIZA MAURICE TOUBYA

PUBLIC ADMINISTRATION

Summer 2013
ZEINA PHILIPPE SAKR

Academic Year 2013-2014
SAMIR MAROUN HITTI
AYA CARMINA SULTAN THOMAS

V . FACULTY OF NATURAL AND APPLIED SCIENCES

MASTER OF SCIENCE
COMPUTER SCIENCE

Summer 2013
ABIR GEORGES HABIB

Academic Year 2013-2014
NISRIN GEORGES EL-TURKY
CESAR GEORGES YOUNES

MATHEMATICS

Academic Year 2013-2014
MARIE REINE ELIE AZAR
MICHELLE MICHEL DAHER

BACHELOR OF SCIENCE
ACTUARIAL SCIENCES

Academic Year 2013-2014
* HADI CHARLES ABS OSTA
* SALLY HANNA HABCHI
** DALIA JEAN CLAUDE HACHEM
** VERA MOUFID KASSIS EL
** ABEER ELIAS LTEIF

BIOLOGY

Academic Year 2013-2014
* CYNTHIA MICHEL ABI ABDALLAH
** SAMAR FADI AL BITAR
RIHAM NIDAL AL GHADBAN
ELINOR ELIE BERBARI
•*** SAFAA SOHEIL BOU KARROUM
NABILA NABIL CHAYEB
** JOE SALIM GHANIMEH
* MARIA PIERRE HAJJE
* LAMA FARID HALAWI
VANESSA JEAN HLEISS
*** YARA MAURICE KALASH (AL)
* MIRIAM KHALIL KHALIL
RITA PHILIPPE RAYES
* JOSEPH OHANNES SAHAKIAN
** TINA TONI SRABIAN
ZEINA GHASSAN TABCHOURI

BUSINESS COMPUTING

Summer 2013
GHASSAN NICOLAS AWDEH
ANTHONY GERGES ELIA
EL EMIR FAWZY EL EMIR SAMIR HARFOUCHE
BECHARA SALIM JABAJI
IHAB MOUHAMAD NASR
WAJDI RIFAAT RAJEH
JEFFRY GEORGES RAMIA

Academic Year 2013-2014
DANIEL JOSEPH ALAM
MARK GEORGE HAJJ YOUSSEF
ILYAS JOSEPH HAYEK
TONY MICHEL MAKHOUL
MARC HAROUTIOUN NERCESSIAN
CHRISTELLE ELIE RAHME
MARK ELIAS SAFITI

CHEMISTRY

Academic Year 2013-2014
* MARY ROSE FOUAD ARABI

COMPUTER SCIENCE

Summer 2013
JEAN FARES HBEICH
DANIEL GABRIEL MINASSIAN
NASRI NABIL NASR

Academic Year 2013-2014
WADAH RIAD ABOU DIAB
KARIM JOSPEH ABOU SAMRA
* PATRICIA ANTOINE AKIKI
MAJD GEORGES ANDRAOS
MICHEL SAMI BADO
ANNA MARIA JOSEPH BAYDOUN
ROY TONY BERBARY
HISHAM JIHAD BUTEEN
MARC NADIM CONSTANTIN
NAJIB ZIAD DACCACHE EL
JOHNNY RODOLPHE EL-BACHA
PETER RODOLPH EL-BACHA
RAWAD NAJI FAHED
ELIAS GEORGE HANNA
NICOLAS FARES HATOUM
** CHADI TALAL HELWE
FIRAS MAHER HINDI
ELIE YOUSEF KARAM
MARIANNE GEORGES KATRAMIZ
* ELIE CHARBEL KHALIL
JOANNI GEORGES KHALIL
ELIAS NICOLAS KHOURY EL

* Distinction
** High Distinction
*** Highest Distinction

** LUCIEN ANTOINE MATTA
SARAH BESHARA MELKI
ANDREW RICHARD MNAYERGI
MENAGA KRISHNAN MOOKAN
SIMON SALIM MOSLEH
TONY MOUAWAD MRAD
KHALIL KAMIL MSANN
FERASS DANIEL NASHIEF
MARWAN SAMI NASR
** PATRICIA GEORGES RAYESS
KHALED ELIAS RIACHI
ELIANE NICOLAS RIZK
CHRISTOPHER BAHJAT SAFATLI
DANIELLA JOSEPH SFEIR
NICOLE YAACOUB SFEIR
DIMITRI SAMI TALGE
GEORGE JOSEPH YOUNES
JANE GEORGE YOUSSEF EL
MOUEEN RIYAD ZAHREDDINE
MAAN MAJED ZEINEDDINE

ENVIRONMENTAL SCIENCE

Academic Year 2013-2014
RITA HARES ALAM
TINA ROY EL KHOURY
ROY RAYMOND ZINATI

GEOGRAPHICAL INFORMATION SYSTEMS

Summer 2013
PHILIPPE SALIM KHAIRALLAH

Academic Year 2013-2014
JOE EDWARD AKIKI
ELIE SELIM EL HELOU
TAREK GHASSAN HADDAD
RAYMOND GEORGE HARFOUCHE

MATHEMATICS

Summer 2013
REINE FRANCOIS SAKR
MANSOUR ASAAD SALEMEH

PHYSICS

Academic Year 2013-2014
MELISSA MELHEM HABIB

VI . FACULTY OF NURSING AND HEALTH SCIENCES

BACHELOR OF SCIENCE
MEDICAL LABORATORY TECHNOLOGY

Summer 2013
* NOUR MOUFID AL HASSANIEH

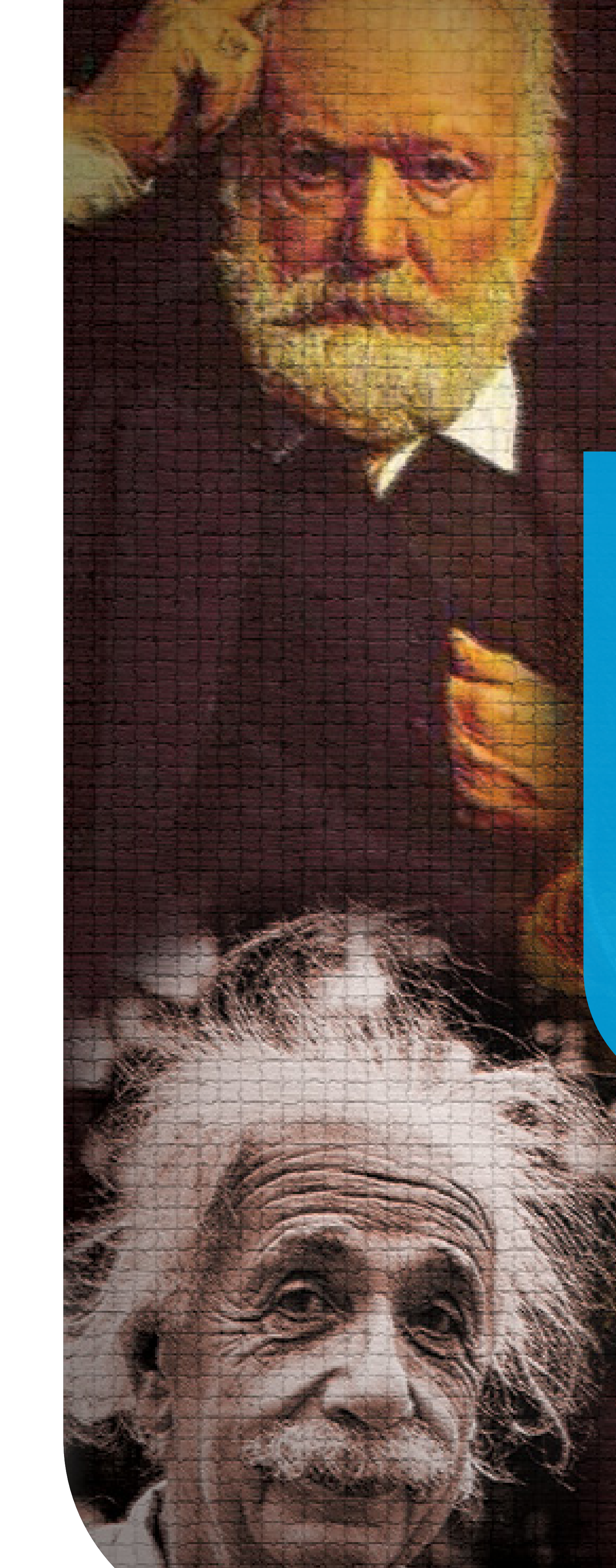
Academic Year 2013-2014
TAMARA NADER ABOU ZAKI
HANAA KHODER BAHRI
JABER BASSAM JABER
JOHNY ELIE REZZI EL

NUTRITION & DIETETICS

Academic Year 2013-2014
•*** MELISSA ANTOINE ABS
RINDALA RIAD AKL
SIBELLE KHALIL AL WATCHI AL HAYEK
HENRIETTE EDMOND AOUDE
ANGELA ELIAS AYOUB
HILDA ABDALLAH BEAINY
* MIRA NASSIF BOU DARGHAM
MICHELLE RICHARD BOU TAYEH
ISSAM NADIM DAGHER
HANEEN ASAAD GHANNAM
** NOUR NAJI GHANNAM
CAROLE JOSEPH GREIGE
** CORINE HICHAM HACHEM EL
LEA CAMIL HANNA
JAAFAR ALI JAAFAR
TALINE NAZARETH JAKMAKJIAN
* NOURA WALID KHAIRALLAH
SAFAA FADI KHALED
RANEEM ABBAS NOURI AL
NATHALIE ELIAS RACHED
JOE GEORGES RIZKALLAH
* CHRISTELLE ANTOINE SAKR
JESSICA ELIE SALIBA
JULIANA ELIAS TALJ
REEM SAMIR TIMANI



• Highest Rank in the Faculty
due to the Academic Excellence.
FRANÇOIS BASSIL Award





منح الصلح
المفكّر الميثاقيّ النبيل... فكره تعليم ونبله مثال

د. ساسين عسّاف

منح الصلح المفكّر الميثاقيّ النبيل المستثنى من خيور «الحكم الميثاقيّ» لم يسء إليه استثناؤه لأنّه الأثبت والأعلى والأنقى في «حكم الناس» منه في «حكم الساسة»..

أستاذ المرحلة فكرًا ونهجًا وممارسةً، يبقى في غيابه أستاذَ المراحل الآتية؛ فاللبنانيّة الميثاقيّة ما زالت قائمة في هويّة الوطن، والعروبة الحضاريّة لم تبرح مكانتها في هويّة الأمّة.. بين لبنانيّته وعروبته ميثاق كينونة..

أب المعادلات الفكريّة الصافية، وإن غاب، تبقى معادلاته الأشدّ تعبيرًا عن الحقائق المستخلصة والوقائع المختبرة بعقلانيّة تجريديّة ورؤيويّة نافذة.. كتاباته وأحاديثه فكر وعبر في السياسة والثقافة والإجتماع والأدب والأخلاق وتصويب المسالك.

صاحب النقدات المستحبّة، يؤنس جليسه ويعلّمه في آن ولا يؤذي موضوع نقده. من علائمه اقتصاد في التعبير واكتناز في المعنى.. وتلك مَكِنةٌ مخصوصة بذوي العقول الكبيرة.

كان لي شرف الحضور والمشاركة في مجالسه الخاصّة والعامّة، فاستدللت منه إلى المزيد من مداخل اللبنانيّة الوحدويّة والعروبة الوحدويّة، وإلى وفرة مضامينهما المبتكرة لديه شفاهةً وكتابة.

الوحدويّة لازمت فكره وقوله ونضاله وتعليمه.. وحدويّته نابعة من معرفته بطبائع الناس وميولهم البسيطة وانتماءاتهم الطبيعيّة. لم تعقّدها فكرويّة صارمة، ولم يأسرها خطاب جامد أو مفتعل.. وتلك كانت فنّية أداء جاذب لا يستعلي ولا يستثني ولا يعزل ولا يستأصل.. إنّها الوحدويّة الإحتضانيّة التي لا تتبرّم من وجود الآخر المختلف.

الميثاقيّ اللبنانيّ العروبيّ الوحدويّ مارس الحوار السياسيّ بأرقى ما تعلّم الديموقراطيّة من أساليب ومناهج ومفردات؛ فأضاف إليها الكثير الكثير من عمق تفكيره، واتّزان عقله، واتّساع صدره، ومحبّة قلبه، وصفوة ضميره، وأخلاقيّة التزامه.

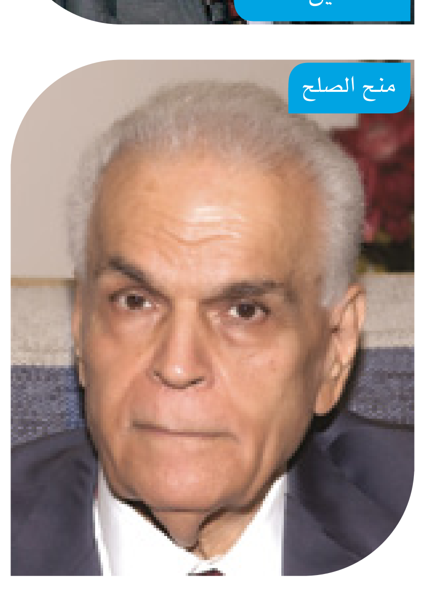
أمّا فكره فمختصر عندي في ثلاث:

- اللبنانيّة الميثاقيّة
- العروبة الحضاريّة
- الإسلاميّة العاقلة

وهي أبعاد تتحرّك في بنية فكريّة واحدة، يديرها عقل تجريديّ، قادر على تركيب المعادلات القابضة على الجوهر في الحقائق والوقائع.

- لبنانيّته الميثاقيّة هي اللبنانيّة الجامعة للمسلم والمسيحيّ، وهي الجامعة للعروبة والسيادة.. فالمسلم يأخذ لنفسه بقدر ما يعطي لسيادة لبنان، والمسيحيّ يأخذ لنفسه بقدر ما يعطي لعروبة لبنان.. وهما متساويان في اللبنانيّة، يقول: «... إنّ لبنان لولا المسيحيّون ما قام، ولولا المسلمون ما دام..»

- العروبة الحضاريّة هي العروبة الإيمانيّة المنفتحة على كلّ الأديان، والمحترمة لعقائد المواطنين كائنة ما كانت، والله وحده هو الديّان..



د. ساسين عسّاف

منح الصلح

وهي بالطبع عروبة الوحدة، يقول:

«...أنا من الحركة القوميّة العربيّة التي تؤمن بالوحدة..» و«...الوحدويّ هو الداعي إلى العروبة والعروبيّ هو الداعي إلى الوحدة..»

- الإسلاميّة العاقلة هي القائمة على أصل حاكم في الإسلام: لا غلوّ في الدين..

وهي الإسلام الواحد الداعي إلى قتل السموم المذهبيّة المدسوسة فيه بقصد تحويله إلى إسلامين..

وهي الإسلام الذي بينه والعروبة علاقة اعتدال وإنجاح متبادل..

كم نحن بحاجة إلى تمثّل أفكاره وتجسيد تعليمه واتّباع نهجه لبنانيّين وعروبيّين وإسلاميّين..

أبقى ما في منح الصلح أخلاقيّاته العالية.. وقد زانها نبله..

نبله يعادل ما أنتج فكره.
فكره تعليم، ونبله مثال..

وجوه

موت السيّد هاني فحص شهادة قيامة للبنان

د. وجيه قانصو

قبل عدّة أشهر، سألت السيّد هاني فحص عن صحّته، عرض بهدوء وادع كلّ الاحتمالات، واحتفظ بشعلة أمل خافت بأنّ جسده يستجيب للعلاج. كان هذا كافيًا لأن يطرد السيّد ملل الانتظار وقلق النهاية، ويترك العنان لقلمه ينثر فوق الورق الأصمّ رقص الخيال وترانيم الفرح.

دخل السيّد دخوله الأخير إلى المستشفى. ظننا أنّه أمر عابر، أو استراحة قصيرة لجسد متعب، أو ربّما مغامرة تحدّ للوجع في ذورته، واقتحام للألم في شدّته، ليصل إلى التخوم الفاصلة بين الرجوع والانتقال، ثمّ يعود ليروي لنا قصّة المآلات الأخيرة، ويأتينا بقبس من غيب تفضح عري القداسات التي لوّثت سماءنا وسمّمت ينابيعنا.

آثر السيّد هذه المرّة العبور بهدوء، من دون أن يجفّ حبره، أو ينقطع مدده، واضعًا بين أيدينا أحسن القول، وأبلغ الأثر، وأنبل المعنى، قائلاً لنا: هاءنذا قلت ما عندي، فانظروا ما أنتم فاعلون.

كان السيّد يشعّ فرحًا والألم رفيقه السري، ما يلتقط أنين الصمت، ويتحسّس الجراح النازفة خلف الثياب المزركشة.

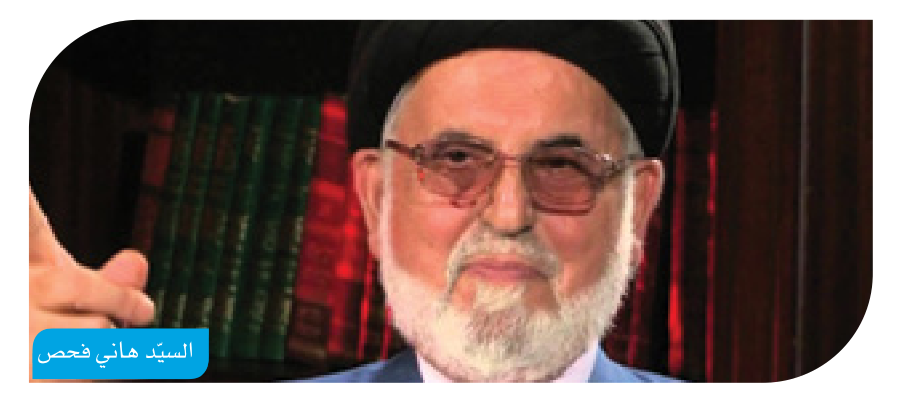
خسرنا الصوت الذي كان أملاً لا ينكسر، وفي لحظة الضيق الشديد يرسم لنا صورة القادم المشرق.

نحزن لرحيل السيّد، كيف لا وهو رمز الكلمة الجامعة والموحّدة، الناظرة دومًا في المشتركات، المتألّمة دومًا من استحكام الغرائز والمصالح الضيّقة في مجرى الحياة العامّة.

نفتقد مع السيّد صوت العقل الذي يقارب الأشياء بحكمة لا بحزم، بشفقة لا بقسوة، بدراية وعمق لا بخطابة مبتذلة، بأدب يلامس الروح لا بجدل منفّر يريد أن يهزمك.

عاش السيّد عابرًا لكلّ خاصّ، من دون أن يترك خاصّه أو يهجره. فخاصّه كان جواز عبوره إلى الآخرين، وحاضره حنين متدفّق لأمكنته الحميمة، ومستقبله عودة لأطياف الروح قبل أن تدنّسها شهوة الاستحواذ.

نفتقد حميميّة السيّد هاني مع الجميع، فعلاقاته خالية من الحسابات. فالسيّد ينتزع منك دومًا فضيلة المبادرة نحوك، ولا يثقلك بأسئلته سوى ما يطمئنه منها أنّك على خير.


السيّد هاني فحص

د. وجيه قانصو

يصل إليك السيّد هاني بأقلّ الكلام وأبلغه، وينقلك رغمًا عنك إلى عالمه الشعريّ: يرسم لوحاته، يدخلك بشغف إلى ذكرياته المغمّسة بتراب الحقل النديّ، يسرد لك بانتشاء تجربة الفلاحة وأيّام الفقر التي رافقتها، كأنّها لحظات نعيم، واختبارات روحيّة حرّكتها فيه أسرار الأرض وتعاقب الحياة والموت في تربتها.

أيّام فلسطين عنده ليست أشياء اكتسبها أو صنعها، بل خلقت معه واندمجت بسجيّته من قبل أن يولد. عاش السيّد لفلسطين، كان في قلب قضيّتها، حمل وجعها في قلبه، لم يفارقها ولم تفارقه. أعطته فلسطين هويّة فلسطينيّة، لا منحة منها، بل عشقًا منها لأبنائها الخلّص.

النجف عنده ليلة أندلسيّة يغنّي سحرها وبريقها، ونسائم وجدانيّة ينتشي بإرثها وتاريخها. لم تكن النجف عنده مجرّد حوزة أو حلقات بحث، ولم تكن سبيلاً لحسم جدل الفرقة الناجية. فالناس جميعهم عند السيّد ناجون مؤمنون طيّبون، حتّى لو كان ظاهر بعضهم خلاف ذلك.

أمّا لبنان، فكان آخره وأوّله، بدايته ومنتهاه، حلمه المتحقّق والآتي معًا. كان لكلّ لبنان، حتّى سارعت كلّ طائفة فيه تدّعيه لنفسها. حبّه لكلّ اللبنانيّين أثار حنق الكثيرين الذين أرادوا تقطيع أوصال لبنان وتحويله جزرًا مختنقة بدخان حقدها.

حمل السيّد عِمَّتَهُ الهاشميّة، اندفع بدم عَلَويّ، وشفقة مسيحيّة، ونبرة محمّديّة، ليقول أفضل الناس عند الله أفضلهم لخلقه.. كلّ خلقه.

صباح سبقت الصباح
إلى عمر خارج الجسد

جوزف أبي ضاهر

... ولها في العمر المستمرّ خارج الجسد حياة.

كأنّها منذ ولدت، ولدت معها السيرة التي ستستمرّ طويلاً، وستُروى ربّما، بعد ما ظُنَّ أنّ وهن الشيخوخة غلبها، فخبّأها في صندوق عرس.

الأعراسُ تُروى فصولاً، ولكلِّ فصل مرويّاته وناسه الذين يتبدّلون، يتغيّرون، ويكمل الراوي ما حفظه ممّا سمعه، ورآه، وما وصل إليه جيلاً بعد جيل.

«صباح»، والاسم لم يدوّن في الهويّة.

ما عُرِفَ واشتهر سمعةً وصفةً بقي بعيدًا عن ملمس كفٍّ جُبلت من تراب، وإليه ترجع.

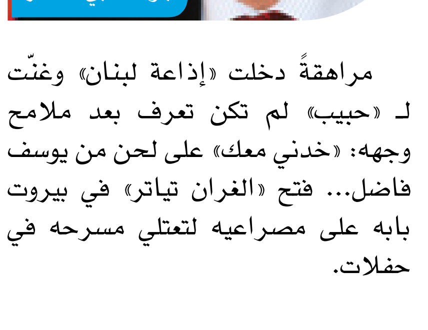
في المكتوب عن السيرة أنّ موهبتها جاءتها إرثًا من جدّ شاعر (الخوري لويس الفغالي) وعمّ أسّس المنبر الزجليّ (شحرور الوادي) وطار صيته من غير جناحين، وأب (جورج فغالي) الآخذ من الاثنين ما استطاع.

بعد بكاء السرير طفلةً، ومكاغاةِ أولى الكلمات وتلعثمها، دندنت المسموع من «الميجانا» و«أبو الزلف»، حتّى إذا دخلت المدرسة رتّلت في جوقتها، وأنشدت في حفلاتها وعلى مسرحها، وبشّر التصفيق والإعجاب بما لم يخطر في بال.








جوزف أبي ضاهر

مراهقةً دخلت «إذاعة لبنان» وغنّت لـ «حبيب» لم تكن تعرف بعد ملامح وجهه: «خدني معك» على لحن من يوسف فاضل... فتح «الغران تياتر» في بيروت بابه على مصراعيه لتعتلي مسرحه في حفلات.

صورة الصبيّة المراهقة والمشرقة وجهًا وجسدًا، وصلت إلى مواطنها آسيا داغر في مصر، وهي رائدة في الانتاج السينمائيّ، فاستدعتها وقدّمتها على غيرها من الممثّلات إلى جانب كبار سبقوها: أنور وجدي، ميمي شكيب، سليمان نجيب، اسماعيل يس... وكان المخرج مواطنها الآخر: هنري بركات، فتعاون مع المنتجة، وأعطياها مع التمثيل أغنيات من كبار شعراء الأغنية: بيرم التونسيّ، مأمون الشنّاوي، صالح جودت، بديع خيري.. وضع ألحانها ثلاثة من المميّزين: زكريّا أحمد، محمّد القصبجي ورياض السنباطي... فلمع نجمها، ونالت أوّل بدل لها عن أوّل عمل ١٥٠ جنيهًا مصريًّا، وكان مبلغًا مرتفعًا لمبتدئة.

بقي اسمها عائقًا: جانيت.

ـ كيف أشرقت صباحًا؟

للاشراقة حكاية رواها الشاعر صالح جودت في مجلّة «الكواكب» المصريّة، من لحظة وصول صورتها إلى آسيا داغر وكانت مجتمعة مع صالح وبركات.

تأمّل الثلاثة بشائر وجه بنت السابعة عشرة، فرأوه مشرقًا كنور الـ «صباح»، وسمّوها به. حين تنبّهت أنوثتها صاروا يسمّون الصباح بها.

نضجت، برزت شخصيّتها، بدأ مشوارها الفنّيّ والعائليّ؛ وكان الأخير متشعّبًا ضمّ إليها أسماء كثيرة، وضمّها إلى أسماء بعضها سقط، وبعضها الآخر أسقطته في أوّل الدّرب، في منتصفها، ولم يبق إلى الآخر من استحقّ الفوز بديمومة الـ «صباح».

أفلام، مسرحيّات، أغنيات، مسلسلات... وما خَفَتَ لها في عملٍ بريق.
تابعتها الصحافة المكتوبة والمرئيّة والمسموعة بشغف وشوقٍ، لمعرفة كلّ جديد تطلّ به بأناقة ما عرفت واحدة من نجمات الشرق مثيلةً لها، وباستثنائيّة أقبلت على الحياة بفرحٍ وحبٍّ وكرم.

▪▪▪▪

أُطلقت عليها صفات، تشبّهت نجمات بها، وظلّت: الصبّوحة، الشحرورة، شمس الشمّوس، ستّ الكلّ، الأسطورة... وهي على الرضى الما ظهر له نقيض في أيّ تصرّف منها.

الصحافيّ واللغويّ الشهير الياس الحويّك (مؤسّس جريدة «السفير»)... وكان واحدًا من آلاف «المغرمين» بها، قال لها:

«يـا صَبَـاح النوريـا قلب الصبَـاح
يـا بـنـت خـيّ الـرقـص الأرزه وراح
لـو قَصَدتـي تكتمـي الاسـم الجميل
بيعرفـو من طَلّتـك إسـمك صبـاح»

مغرم آخر، الصحافيّ فاضل سعيد عقل، قال فيه كميل خليفه (كروان الوادي) بعد هجر صباح إيّاه وسفرها إلى مصر:

«الشـحروره» مْـلاك بْـصـوره — وفـتـنـه بـروض الـمـعـموره
ضـاعت كـلّ عـقـول الـنّـاس — و«فـاضـل عـقـل» الشـحروره

... بعدها تزوّج فاضل من شقيقتها الممثّلة لميا فغالي.

▪▪▪▪

رحلت صباح عن عمر ناهز السابعة والثمانين، وفيه ما يقاربها من الأفلام السينمائيّة المصريّة واللبنانيّة (كانت بطلتها)، والأقلّ منها عناوين مسرحيّات، والأكثر قدّمته في أغنيات على مسارح عالميّة: الأولمبيا (باريس)، دار الأوبرا (سدني)، قصر الفنون (بلجيكا)، قاعة ألبرت هول (لندن)، ومسارح في لاس فيغاس ونيويورك... وفي أبرز مسارحِ لبنان والعالم العربيّ... وكان الأحبّ إليها ما قدّمته على مدرج هياكل بعلبك. مباهيةً بلبنانيّتها عاشت، معتزةً بأنّها لكلّ اللبنانيّين على اختلافهم، وفوق خلافاتهم.

▪▪▪▪

ميزات كثيرة لها تُذكَرُ بعد ابتعاد الجسد عن وهج الاسم: إلى صباحات الوجه والأناقة الدهشة وملاقاة الناس، كانت صباحات أعماقها أعمق وأنبل.

ما حسدت، ما حقدت، ما حرّضت، ما نمّت على أحد.

ولا شائعة طالتها وغيّرت عندها قناعة: «يا جبل ما يهزّك ريح».

الرياح حاصرتها، لاحقتها، طالت منها أطراف ثوبٍ، ظلَّ يهدل ويَلفت حتّى بعد أن علّقته.

علامتان لن يُذْكر الفنّ اللبنانيّ خارج حضورهما الطاغي: وديع وصباح.

أمام فرادتهما، وغناهما، وعطاءاتهما، وديمومتهما، ومجدهما نفاخر، ونحن نضمّ فنّهما إلى تاريخنا.

بعدهما لن يأتي مثالٌ لهما. وإن جاء فسيحاول التشبّه بهما. وسيتذكّر أنّ صباح سبقت الصباح فجر السادس والعشرين من تشرين الثاني ٢٠١٤، وبقيت الاشراقات لها.

... ولها في العمر المستمرّ خارج الجسد حياة.

«صباح»، والاسم لم يدوّن في الهويّة.

تأمّلوا بشائر وجه بنت السابعة عشرة، فرأوه مشرقًا كنور الـ «صباح»، وسمّوها به. حين تنبّهت أنوثتها صاروا يسمّون الصباح بها.



ملفات

الشهادة في الكنيسة المشرقيّة

الأب د. سهيل قاشا

عانت الكنيسة شرقًا وغربًا من عشرات الاضطهادات الكبيرة. وفي ما يأتي أشهر محطّات المجازر والمقاتل التي حلّت بأبناء الكنيسة المشرقيّة:

إستفانس، أوّل الشهداء

اختاره التلاميذ؛ وهو رجل ممتلئ بالنعمة والقدرة، من والروح القدس. فكان يجري في الشعب العجائب والآيات الباهرة. فتصدّى له قوم من المجمع وشرعوا يجادلونه، ولمّا لم يستطيعوا مقاومة الحكمة والروح الناطقين بفمه، دسّوا رجالاً يقولون: «إنّا سمعناه يقذف كلام تجديف على موسى وعلى الله»، فهاجوا الشعبَ والشيوخَ والكنيس، فانقضّوا عليه وساقوه إلى المجلس وأقاموا شهود زور يقولون: إنّ هذا الرجل لا يكفّ عن قذف المكان المقدّس والشريعة بكلام تجديف، فلقد سمعناه يقول: «إنّ يسوع، ذاك الناصريّ، سينقض هذا المكان ويبدّل السنن التي سلّمها إلينا موسى». أمّا هو فكان وجهه كأنّه وجه ملاك!

فسأله رئيس الكهنة: «أصحيح هذا؟» فأجاب شارحًا إيمانه بيسوع. فلمّا سمعوا ما سمعوا استشاطوا في قلوبهم وصرفوا عليه بأسنانهم، وجرّوه إلى خارج المدينة وطفقوا يرجمونه حتّى استشهد وهو يقول «يا ربّ لا تقم عليهم هذه الخطيئة». فكان بذلك أوّل شهيد في كنيسة المسيح.(١)

الحقد اليهوديّ

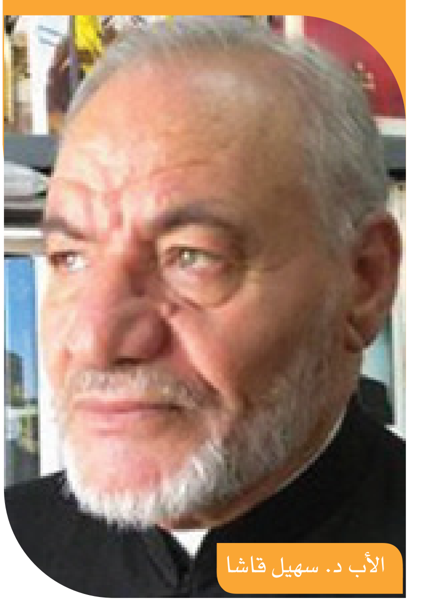
منذ فجر المسيحيّة، واليهود يعدّون المسيحيّين أنجاسًا من غير المسموح لهم شرعًا أن يختلطوا بهم؛ فهم أعداء الله وأعداء شعبه، ويمتنع عليهم أن يشيروا عليهم في أيّ أمر. وإن سألوا عن شأن إلهيّ فينبغي أن تصبّ عليهم اللعنة، أمّا الأبناء من زيجات مختلطة ما بين اليهود والمسيحيّين فهم أبناء زنى غير شرعيّين.

وتتكثّف الكراهية اليهوديّة للمسيحيّين في نصّ يعرف باسم «بركتُ هاميتيم»، من القرن الأوّل الميلاديّ، جعله الكهنة واجب التلاوة ثلاث مرّات في اليوم، أي مع الصلوات اليوميّة الثلاث: «لا تبق أيّ أمل للمرتدّين إن لم يعودوا إلى توراتك، وعسى أن تُقتلع السلطة المتغطرسة سريعًا في أيّامنا هذه، وعسى أن يفنى النوتسريم والميتيم في الحال، وأن يُشطبوا من كتاب الحياة، وألاّ تُكتب أسماؤهم مع الصالحين. تباركت يا ربّ يا من تذلّ المتغطرسين».

مجازر المسيحيّين في العهد الفارسيّ

تجمع المصادر التي تتحدّث عن الاضطهادات والشهداء على أنّ مضطهد المسيحيّة الأكبر في ديار المشرق هو العاهل الفارسيّ شابور الثاني (٣٠٩- ٣٧٩). وقد لقّب بذي الأكتاف لأنّه كان يخلع الأكتاف، علاوة على أنواع أخرى من التنكيل والتعذيب.

أخذت المسيحيّة في الانتشار في المناطق التي كانت خاضعة للحكم الفارسيّ منذ أواخر القرن الثالث الميلاديّ، فتكوّنت فيها مجمّعات مسيحيّة ذات أعداد وافرة، ومنها طيسفون (المدائن) العاصمة، التي كانت تتمتّع أيضًا بوجود أسقف فيها. إزاء ذلك شهد عهد شابور الثاني حلقة جديدة من سلسلة الحروب الفارسيّة- الرومانيّة، تفرّدت عن سائر الموجات السابقة بأنّها الأولى التي خاضت فيها الدولة الفارسيّة حربها ضدّ الدولة البيزنطيّة المسيحيّة بعد أن تحوّلت رسميًّا إلى المسيحيّة في عهد قسطنطين، ما انعكس سلبًا على صيغة العلاقة بين الحكم الفارسيّ والمسيحيّين فيها.




الأب د. سهيل قاشا

أقدم المصادر التاريخيّة التي تخبرنا عن تدهور العلاقة بين الطرفين هو ما كتبه المؤرّخ الفلسطينيّ (من منطقة غزّة) سوزمين (٤٠٠ -٤٥٠م)؛ فيقول أنّه مع تزايد عدد المسيحيّين والتوسّع في بناء الكنائس وتعيين الكهنة والشمامسة، تعمّق امتعاض المجوس منهم، ما أثار حفيظتهم، فاتّهموا أسقف طيسفون شمعون برصبّاعي أمام شابور بأنّه موالٍ لقيصر الروم، وبأنّه ينقل إليه أخبارَ الفرس. صدّق شابور هذا الاتّهام، وشرع في زيادة الضرائب على المسيحيّين، موكلاً جبايتها إلى رجال قساة، ثمّ اعتقل الجاثليق نفسه شمعون، ثمّ قتله، ثمّ أصدر أوامر بقتل الرهبان وهدم الكنائس. وبحسب سوزمين، تولّى المجوس، بالتعاون مع اليهود، تدمير بيوت العبادة.

(١) راجع أخباره في سفر أعمال الرسل ٦: ١- ١٥ و٧: ١- ٦. وممّا يذكر أنّ أوّل شهيدة في المسيحيّة هي مارت تقلا رفيقة مار بولس الرسول.

ولقد شنّت حملة واسعة عارمة، سيق خلالها إلى الموت عشرات من الكهنة والشمامسة ومن بني وبنات العهد، وسائر المؤمنين، نبلاء كانوا أم فقراء، رجالاً أم نساء أم أطفالاً، ومن جملتهم:

كشتازاد حاجب الملك، فوسي وابنته مرتا، آذار الخفيّ وإمريا، ومقيما الأسقفين ورفاقهما، تربو أخت الجاثليق مار شمعون، وأختها وتلميذتها من بنات العهد، ميليس أسقف شوشان، وأبروسام الكاهن وسيناي الشمّاس، بَرْشيبا رئيس الدير ورهبانه، دانيال الكاهن ووردة الراهبة، شهدوست الجاثليق ورفقاؤه المائة والثمانية والعشرون، بربعشمين الجاثليق ورفاقه الستّة عشر، الأربعون شهيدًا، بَدْما رئيس الدير، شهداء باجرمي وحدياب (إربيل)، نَرسا أسقف شهرقرد، واسحق وقافا الكاهنان، والشهداء الكيلانيّون المسبيّون، وآخرون كثيرون بلغ عددهم ما يقارب المائة ألف.

وقد سجّل هذا الاضطهاد بداية حملة الاضطهادات التي تعرّض لها المسيحيّون، والتي احتفظت عنها المصادر القديمة بصورة فظيعة. فقد كان المتّهمون المسيحيّون يسجنون لأشهر عديدة، وأحيانًا لسنوات، يخضعون خلالها للمساءلة، مع إعطائهم فرصة للنجاة إذا تخلّوا وارتدّوا عن المسيحيّة. أمّا الذين يقيمون على إيمانهم فيعذّبون ويعدمون بطرق شيطانيّة: منهم من كان يقطع إلى قطعتين، ومنهم من يقطّع عضوًا عضوًا مثل مار يعقوب المقطّع، ومنهم من يجبرون على ذبح شركائهم في الدين؛ وقد كان حزّ الرؤوس من الأمور الشائعة،.. وذلك على مدى سنوات سنوات. وقدّر سوزمين عدد المسيحيّين الذين قتلوا في هذا الاضطهاد بستّة عشر ألفًا ممّن عرفت أسماؤهم وأسماؤهنّ، فضلاً عن أعداد كبيرة أخرى مجهولي الهويّة، من بينهم الفتيات الألفان اللواتي ألقين بأنفسهنّ معًا في النهر وغرقن لئلاّ ينكرن إيمانهنّ.(٢)

واستمرّت هذه الموجة إلى يوم تولّى الحكمَ يزدجرد الثاني سنة ٣٩٩م.(٣)

مجازر أخرى متفرّقة

من الملاحظ تاريخيًّا، أنّ اليهود كانوا باستمرار يمدّون بأبصارهم إلى الفرس، لعلّهم يجدون فيهم سندًا لصبّ نقمتهم القاتلة على المسيحيّين؛ وقد كانت الحروب الفارسيّة- البيزنطيّة، وهي متعدّدة المراحل، الفرصةَ العظمى المتاحة أمامهم للولوج إلى تحقيق مأربهم. ونورد هنا بعض النماذج:

١. في عهد الإمبراطور البيزنطيّ جوستنان (من ٥٢٧ إلى ٥٦٥) نشبت موجتا حرب بين دولتي المشرق فارس وبيزنطة: الأولى من ٥٢٧ إلى ٥٣٢؛ والثانية من ٥٤٠ إلى ٥٦٢م (تخلّلها هدنة من ٥٥٢ إلى ٥٥٦م).

في الموجة الأولى، اقترب الفرس من أبواب القسطنطينيّة (٥٢٩م)، فاغتنمها السامريّون اليهود فرصة، وكان تمركزهم الأكبر في شكيم (نابلس)، لمهاجمة المسيحيّين، وذلك بأمرة جوليان الذي أعلن نفسه ملكًا وكاهنًا أعلى بمسحة سامريّة خاصّة، فاتّصلوا بالفرس معربين لهم عن استعدادهم لمساندتهم في حربهم مع بيزنطية، آخذين على عاتقهم في المقابل مهمّة القيام بمجزرة في نابلس ومحيطها، بحيث قتلوا أعدادًا كبيرة من المسيحيّين وأحرقوا الكنائس ونشروا الخراب من دون أن تتمكّن القوّات البيزنطيّة المحليّة من السيطرة على الأوضاع واستعادة الهدوء إلاّ بعد مدّة وبصعوبة كبيرة.(٤)

ومن المفارقات في هذه الحادثة أنّ سامريّين عديدين (قدّرت بعض المصادر القديمة عددهم بخمسين ألفًا، وهو بالتأكيد رقم مبالغ فيه) هربوا من فلسطين، بعد أن سيطرت القوّات البيزنطيّة على الأوضاع فيها، والتجأوا إلى قباذ ملك فارس في ذلك الوقت، ووعدوه أن يحكّموه في مناطقهم (في فلسطين) وأن يسلّموا إليه جميع الأماكن المقدّسة فيها، إلاّ أنّ أملهم في قباذ كان في غير محلّه، إذ أمر باسترقاقهم وإرسالهم إلى أرمينيا (وكانت تحت سيطرته) ليعملوا في مناجم المعادن النفيسة.(٥)

٢. ومجزرة أخرى حدثت عندما انتهت الهدنة بين بيزنطية وفارس سنة ٥٥٦. فقد استغلّ اليهود ما اعتبروه انشغال البيزنطيّين في الحرب، وهاجموا بالتحالف مع السامريّين السكّان المدنيّين المسيحيّين أوّلاً في قيساريّة على الساحل الفلسطينيّ، فقتلوا أعدادًا كبيرة منهم ونهبوا كنائسهم وأحرقوها، ثمّ مدّوا اعتداءاتهم إلى

(٢) راجع كتابنا: **مواقف من الشرق**، (جونيه ٢٠١٠)، طبعة أولى، ص ٤٥- ٥٥. (٣) راجع أخبار هذا الاضطهاد في **تاريخ الكنيسة الشرقيّة**، تأليف الأب ألبير أبونا، دار المشرق، ط٥، (٢٠٠٧)، ص ٢١- ٤٤. كتاب **شهداء المشرق** للمطران ادّي شبر، جزءان، الموصل ١٩٠٤- ١٩٠٨. طبعة الآباء الدومنيكان. كتاب **تاريخ الكنيسة** للأسقف يوحنّا الأفسسيّ، ترجمة بطرش قاشا، بيروت، ٢٠١٠. (٤) د. عصام سخيني، **مقاتل المسيحيّين**، ص ٦٨. (٥) المصدر السابق، ص ٦٩.

المناطق المحيطة حتّى وصلوا إلى بيت لحم وأشعلوا النيران في كنيسة المهد وهدموها. وتصف المصادر ما حدث آنذاك بأنّه كان «مجزرة بحقّ السكّان المسيحيّين».(٦)

وتكرّرت مثل هذه المجازر في مراحل أخرى من تاريخ الحروب الفارسيّة-البيزنطيّة؛ ففي آخر هذه الحروب (٦٠٢-٦٢٨) نشبت ثورة داخليّة في الدولة البيزنطيّة (سنة ٦٠٨م) كان على رأسها هرقل الذي تمرّد على الإمبراطور فوكاس بسبب هزائمه أمام الفرس، ولما كان يتّصف به من استبداد وطغيان. وقد استمرّ الصراع العسكريّ بين الرجلين سنتين قبل أن يحسمه هرقل لمصلحته، فيقتل خصمه ويتوّج إمبراطورًا (سنة ٦١٠م). وفي هذه الأثناء شدّد الفرس هجماتهم على مناطق الدولة البيزنطيّة، فوصلوا قريبًا من مدينة أنطاكية على ساحل المتوسّط. وقد استغلّ يهود أنطاكية فرصة هذا الصراع لينفّذوا مجزرة أخرى بحقّ المسيحيّين فيها (٦٠٨/٦٠٩)، فقتلوا أعدادًا كبيرة منهم وأحرقوا منازلهم وبعض كنائسهم، بل وجّهوا حقدهم الدامي صوب البطريرك، ولكن لحسن الحظّ لم يصل الفرس إلى أنطاكية، وتمكّنت قوّة بيزنطيّة في المنطقة من وقف اعتداءاتهم الوحشيّة وإعادة الهدوء إلى المدينة.(٧)

٣. وبعد سنوات قليلة من هذه المجزرة، أي سنة ٦١٣م، تعرّضت كنائس المسيحيّين في منطقة صور (على الساحل اللبنانيّ) للحرق والهدم على أيدي اليهود؛ وذلك لأنّ نسبة كبيرة من القوّات البيزنطيّة انسحبت من سوريا للدفاع عن القسطنطينيّة، فيما الجيش الفارسيّ استولى على مناطق شاسعة من سوريا متّجهًا نحو الجنوب، ما وجد فيه اليهود فرصةً للانقضاض على المسيحيّين هناك. يومها جرت اتصالات مكثّفة بين يهود فلسطين ودمشق ليلتقوا حول صور ويقتحموها. وبالفعل تجمّعت أعداد كبيرة منهم هناك. إلاّ أنّ أهل صور، بزعامة أسقفها، تمكّنوا من إفشال الهدف، بتشديدهم الدفاعات عن المدينة وإلقائهم القبض على عدد من أثرياء اليهود فيها، فما كان من اليهود المهاجمين إلاّ أن أقدموا على إحراق الكنائس في المناطق المحيطة بصور، فردّ عليهم أهل المدينة بقتل عدد ممّن قبضت عليهم منهم، وإلقاء جثثهم من فوق الأسوار. وقد بلغ عدد الكنائس التي أحرقها اليهود في هذا الحصار العشرين كنيسة. ولم ينته إلاّ بعد أن تردّدت أخبار عن قرب وصول قوّة بيزنطيّة إلى صور، ما جعل اليهود يتراجعون عنها ليلتحقوا بالقوّات الفارسيّة المتّجهة نحو القدس.(٨)

مجزرة الشهداء الحميريّين في نجران

أقام اليهود الدنيا ولم يقعدوها حول الهولوكوست الهتلريّة أيّام الحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، ناسجين أحيانًا، إلى الوقائع والحقائق، رواياتٍ وحكاياتٍ شتّى. ونسوا وتناسوا أوّل محرقة ارتكبوها هم في بلاد نجران، وقد أرّخها الأسقف شمعون الأرشمي، الذي أرسل رسائل تقويّة إلى المسيحيّين الحميريّين هناك، يشدّ فيها أزرهم للثبات في الايمان مواجهين الموت من دون خوف أو وجل من العذابات، التي أنزلها بهم الملك ذو نواس اليهوديّ؛ وقد أوردها القرآن كحادثة تاريخيّة مأساويّة لبشاعتها وفظاعتها، بقيت في أذهان العرب.

شنّ الملك مسروق أو ذو نواس اليهوديّ، الذي تملّك على بلاد حمير والنجرانيّين عام ٥٢٣م.، اضطهادًا عنيفًا على المسيحيّين هناك، وفتك ببضعة آلاف منهم: «خدَّ لهم الأخدود، وحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثّل بهم كلّ مِثلة».

لقد روى لنا التاريخ الكنسيّ أنّه حينما تملّك هذا اليهوديّ المنافق ذو نواس، كتب إلى حضرموت وسبأ وحزية وديار يدن وتيمة ونجران وغيرها من البلاد الخاضعة لسلطانه، وتوجّه إلى ظفار عاصمة الحميريّين ليحارب الأحباش فيها، وإذ رأى أنّه لن يتمكّن منهم، أوفد إليهم كاهنًا لاويًّا من طبرية ومسيحيًّا زنديقًا من نجران هو عبدالله بن ملك، ومثيلاً له من جيرة النعمان اسمه كوكب بن موهوبة، وحمّلهم رسائل الأيمان إلى الأحباش، بأنّه لن ينالهم أذى إذا هم خرجوا إليه تلقائيًّا وسلّموا مدينة ظفار.

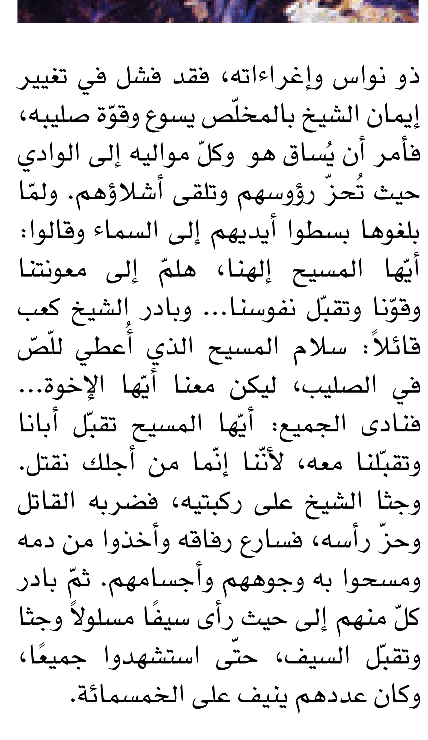
فلمّا تسلّموا تلك الرسائل، خرجوا إليه وكانوا ثلاثمائة رجل، مع رئيسهم أنابوت. رحّب بهم اليهوديّ، ثمّ فرّقهم على عظمائه ليقتلوهم. وفي الصباح وجدت أشلاؤهم كومة هائلة.

وأوفد للحال رسلاً صحبةَ كهنة اليهود إلى البلاد الخاضعة لسلطانه، لقتل المسيحيّين حيثما وجدوا، ألّلهمّ إلاّ إذا كفروا بالمسيح وتهوّدوا، وأمر بأن يُحرَق هو وبيتُه ويُصادرَ مالُه كلُّ من يُخفي مسيحيًّا. فقُتل أوّلاً في حضرموت القسّيس مار إيليّا الذي تهذّب في دير ابراهيم في تلاّ، أو تل موزلت المجاورة لمدينة الرقّة، والذي رسمه قسّيسًا مار يوحنّا أسقف تلاّ، وتكلّلت معه أمّه وأخوها أيضًا؛ وقُتل القسّيس مار توما بعد أن بُترت يسراه، وكان قد تهذّب في دير أنطوخينا في مدينة الرّها. وتكلّل أيضًا القسّيسان مار وائل ومار توما الذي من نجران ويقيم في حضرموت.

وبعث الملك قوّاده الثلاثة على رأس جنودهم إلى مدينة نجران ليحاربوا أهلها؛ فبارزهم النجرانيّون بعدد ضئيل، وطاردوهم بقوّة المسيح، وقتلوا منهم عددًا وافرًا، وعادوا إلى نجران سالمين. ثمّ أعاد الكرّة، فقتل النجرانيّون منهم، وفي هذه المرّة أيضًا، عددًا كبيرًا. وأخيرًا جاءهم هو بنفسه بمئة وعشرين ألفًا من الجند، وطوّق نجران أيّامًا كثيرة، ولمّا عجز عن فتحها بالحرب، أوفد إليهم كهنة اليهود الذين من طبرية، حاملين توراة موسى وكتاب الأيمان مختومًا بختمه، حالفًا لهم بالتوراة وبلوحي موسى

(٦) المصدر نفسه، ٦٩. (٧) ذات المصدر، ص ٧٠. (٨) هنري هارت ميلمان، **تاريخ اليهود من العصور القديمة إلى العصور الحديثة**، نيويورك، ١٨٣٢، ج٣، ص ١٩٧.





وتابوت العهد وإله ابراهيم واسحق ويعقوب، بأنّه لن ينالهم أذى إذا هم سلّموا المدينة طوعًا وخرجوا إليه، فوثق النجرانيّون بالأيمان، وخرج إليه نحو ثمانمائة شخص من الأشراف، فرحّب بهم ببشاشة وتودّد، وكرّر لهم شفويًّا الأيمانَ المكتوبة بأنّه لن ينالهم أذى، ولن يكفّرهم بمسيحهم، ولن يضيّق على أحد بسبب المسيحيّة، وتناولوا الطعام أمامه. ثمّ أمرهم أن يُخرجوا إليه في اليوم التالي ألفَ شخص ويتناولوا الطعام أمامه. فلمّا فعلوا أمرَ ففرّقوا على عظمائه، خمسين لكلّ منهم، حتّى إذا ما انتهوا من تناول الطعام، جُرِّدوا من سلاحهم وكُبِّلوا. وعلى الأثر أرسل الملك يهودًا ووثنيّين، فنبشوا على المسيحيّين ليُروهم عظام الشهداء كلّهم والأسقف مار بولس الذي رُسم أوّل أسقف لمدينة نجران من القدّيس فيلوكسينوس المنبجيّ، والذي نال إكليل الشهادة رجمًا على يد يهود طبرية على غرار اسطيفانس في ظفار. وقد كوّموا تلك العظام في وسط الكنيسة. ثمّ أدخلوا القسوس والشمامسة والأفودياقونيّين والقرّاء والنذراء والنذيرات والشبّان والشابّات، وقد بلغ عددهم الألفين على ما نقل الذين وفدوا من نجران، ثمّ جاؤوا بالحطب وزنّروا به الكنيسة، وأضرموا فيه نارًا أتت عليها وعلى من فيها.

من أشهر شهداء هذه **المحرقة الرهيبة**:

١. الشهيد الشيخ الحارث بن كعب

بعد احتراق الكنيسة وكلّ من فيها، جاء الملك بجميع الأعيان والأشراف، فسألهم: لماذا قصدتم أن تتمرّدوا عليّ ولم تسلّموا إليّ المدينة، إتّكلتم على ذلك الساحر المضلّ إبن الفجور الذي تعبدونه المسيح المصلوب، وعلى هذا الشيخ الأخرق الحارث بن كعب الذي صُيّر لكم رئيسًا؛ ألا تخجل أمامهم في شيخوختك؟!

فأجابه الحارث: بالحقيقة لو تراءى لك اللباس الذي أنا مرتديه الآن لما قلت هذا الكلام؛ فإذ لا يتراءى لك ذلك فقد خلتني واقفًا عريانًا. أقول لك الحقّ: إنّه الآن عظمت نفسي في عينيّ ولا أخجل بعري جسمي، ذلك أنّ المسيح يعرف أنّني خير منك باطنًا وظاهرًا، وأطول وأوفر صحّةً منك. كما أنّ جسمي أقوى من جسمك، وذراعي من ذراعك، ولا يحمل ظهري أثرًا للسهم أو للرمح أو للسيف، بل إنّما ذلك في صدري، لأنّني لم أعطِ قط في الحرب ظهرًا كهارب، وقد انتصرتُ بقوّة المسيح في حروب كثيرة، بل أنا قتلتُ في الحرب أخا الجالس الآن عن يمينك وهو ابن عمّك.

وطال الحوار بين اليهوديّ الملك والشهيد الحارث. ورغم كلّ مراوغات الخبيث ذو نواس وإغراءاته، فقد فشل في تغيير إيمان الشيخ بالمخلّص يسوع وقوّة صليبه، فأمر أن يُساق هو وكلّ مواليه إلى الوادي حيث تُحزّ رؤوسهم وتلقى أشلاؤهم. ولمّا بلغوها بسطوا أيديهم إلى السماء وقالوا: أيّها المسيح إلهنا، هلمّ إلى معونتنا وقوّنا وتقبّل نفوسنا... وبادر الشيخ كعب قائلاً: سلام المسيح الذي أُعطي للّص في الصليب، ليكن معنا أيّها الإخوة... فنادى الجميع: أيّها المسيح تقبّل أبانا وتقبّلنا معه، لأنّنا إنّما من أجلك نقتل. وجثا الشيخ على ركبتيه، فضربه القاتل وحزّ رأسه، فسارع رفاقه وأخذوا من دمه ومسحوا به وجوههم وأجسامهم. ثمّ بادر كلّ منهم إلى حيث رأى سيفًا مسلولاً وجثا وتقبّل السيف، حتّى استشهدوا جميعًا، وكان عددهم ينيف على الخمسمائة.

٢. الشهيدة أليشاع

هي أخت الشهيد القدّيس مار بولس الأسقف. كانت شمّاسة في الكنيسة. أخفاها أحبّاؤها قسرًا في أحد البيوت. فلمّا علمت باحتراق الكنيسة والنذراء وعظام أخيها بالنار، سارعت إلى الكنيسة مردّدةً بصوت عالٍ قائلة: «ها إنّني يا أخي أمضي معك إلى المسيح»، فلمّا عاينها اليهود، ظنّوا أنّها قهرت النار وخرجت من الكنيسة، فقالت لهم: كلاّ، لم أخرج من الداخل، بل جئت من الخارج لأدخل واحترق مع عظام أخي ورفاقه الكهنة. إنّي أشتهي أن أحترق في الكنيسة التي خدمت فيها.

فقبض اليهود عليها وعكفوا رأسها وركبتيها كجمل، ولفّوا عليها الحبال بشدّة حتّى غُرزت في جسمها، وصبّوا على رأسها زيتًا مغليًّا مستهزئين قائلين: اقبلي إكليلك يا شمّاسة ابن النجّارين، ثمّ ربطوها بجمل هائج خبطها بحدّة، فتكلّلت، وكانت في السابعة والأربعين.

٣. الشهيدة تهنة وابنتها

هذه السيّدة لمّا سمعت باحتراق الكنيسة، أمسكت بيمينها ابنةً لها اسمها أُمامه (أُمَّة) وكانت نذيرة، وشخصتا إليها لتحترقا. فلمّا شاهدتها أمتُها واسمُها حُديّة، سألتها قائلة: إلى أين ذاهبة يا سيّدتي؟ فها إنّ الكنيسة والنذراء يحترقون جميعًا بالنار. فأجابتها سيّدتها قائلة: أنا وابنتي هذه النذيرة أيضًا ذاهبتان لنحترق. فقالت لها أمتها: أقسم عليك يا سيّدتي بالمسيح لتصطحبيني كي أتمتّع أنا أيضًا برائحة الكهنة. فأمسكتها هي الأخرى بيدها. وهكذا دخلن ثلاثتهنّ الكنيسة واحترقن مع الكهنة.

٤. الشهيدة مانحة

هي أَمة الشريف الحارث بن كعب. كانت شرّيرة متجرّئة ووقحة وسبّابة.. منبوذة من الجميع. فلمّا بلغها مقتل أسيادها وعشيرتها، هرولت صارخة: أيّها الرجال والنساء المسيحيّون، إنّه لوقت أن توفّوا فيه المسيح ما أنتم مدينون له به. فاخرجوا وموتوا من أجله، كما مات هو من أجلكم، فمن لا يخرج اليوم إلى المسيح فلن يستجاب له غدًا. إنّه لأوان الحرب، فاخرجوا وأنجدوا المسيح ربّكم، فغدًا يغلق الباب ولن تدخلوا إليه. وهذا كان صراخُها حتّى مثلت أمام الملك.

فلمّا رآها اليهود الذين كانوا يعرفونها، قالوا لمليكهم: هذا شيطان المسيحيّين. فليس هناك شيطان إلاّ ويسكن في هذه. أمّا هي فقالت للملك: لك أقول أيّها اليهوديّ الذابح المسيحيّين، قم وامتحنّي أنا أيضًا لأنّي مسيحيّة. إنّني أَمة الحارث بن كعب الذي قتلته. لا تظنّ أنّك قد غلبت سيّدي، بل سيّدي هو الذي غلبك... فأمر الملك فعرّوها. وجاؤوا بثور وحمار، وربطوا رجلاً بهذا ورجلاً بذاك، ثمّ تناولوا عصيًّا، وشرعوا بضربهما. وقد طافوا بها ثلاثًا شوارعَ المدينة حتّى أسلمت روحها. وفي نهاية المطاف علّقوها شهيدةً على شجرة مقابل باب المدينة الشماليّ تجاه قصر سيّدها الحارث.

٥. الشهيدة روهوم بنت أزمع

أرسل الملك اليهوديّ إلى هذه الشريفة يقول أن إذا كفرت بالمسيح عاشت وإلاّ ماتت. فلمّا سمعت هذه الكلمة أسرعت إلى الشارع، هي التي لم ير أحد وجهها خارج دارها، بل لم تمش نهارًا في المدينة حتّى ذلك اليوم الذي حسرت فيه عن رأسها، وهي تصرخ قائلة:

اسمعنني أيّتها النساء النجرانيّات المسيحيّات رفيقاتي... قد قتل بعلي من أجل المسيح، فإذا شئت أن أصير لرجل لا يعسر عليّ... إنّ عندي اليوم بالذات أربعين ألف دينار في خزينتي ما عدا خزينة زوجي، وحليًّا وجواهر وحجارة كريمة... ها بناتي الثلاث قد زيّتهنّ للمسيح بدلاً من زواجهنّ... وإنكنّ ترين وجهي مرّتين: في زفافي الأوّل وفي هذا الثاني. وأتت تمسك ببنتيها، ووقفت أمام الملك من دون وجل، وحلّت ضفائرها ولفّتها على يديها، وكشفت عن قذالها، ومدّت عنقها، وخفضت رأسها صارخة:

إنّني وبناتي مسيحيّات، ومن أجل المسيح نموت. فاقطع رؤوسنا لنذهب ونلحق بإخوتنا وأخواتنا وبأبي بنتيّ.

أمّا الملك فحرّضها ثانيةً قائلاً: قولي فقط إنّ المسيح هو إنسان، وابصقي على الصليب، وامضي إلى بيتك وبنتيك.

ولمّا سمعت حفيدة روهوم، وكانت في التاسعة من عمرها، كلام الملك، ملأت فاها بصاقًا وتفلت عليه قائلةً: البصاق عليك. الكفر بك وبجميع اليهود رفاقك وبكلّ من يكفر نظيرك بالمسيح وبصليبه.

عندها أمر الملك بإلقاء جدّتها على الأرض وبذبحها عليها، فسال دمها في فم الجدّة. ثمّ ذبحت الابنة وسال دمها هي الأخرى في فم أمّها.

بعد ذلك أقامها الملك وسألها: كيف تذوّقت دم بنتيك؟ فأجابت: إنّي تذوّقته بنفسي كقربان طاهر لا عيب فيه. فأمر فحزّ رأسها للحال. وقد تكلّلت روهوم وابنتها وحفيدتها في الأحد الواقع في ٢٠ تشرين الثاني سنة ٥٢٣م.

قُدّر عدد الذين استشهدوا في هذه المحرقة بأكثر من خمسة آلاف، من بينهم رؤساء القسوس: سرجيس الرومي، كبرئيل النجراني، إيليّا من الحيرة، وابراهيم الفارسيّ؛ ورؤساء الشمامسة: يونان الحبشي، شليمون النجراني، موسى بن مازن النجراني، موسى الذي قتل بحدّ السيف، والأرخدياقون حنانيا الرومي؛ ورؤساء الأوفدياقونين: ابراهيم بن معاوية، معاوية بن أموية، وقيوس بن سلمان؛ فضلاً عن باقي الكهنة والنذراء والنذيرات والعلمانيّين، الذين بلغ عددهم، على ما قال النجرانيّون، ألفي شهيد وشهيدة.

مجزرة القدس ٦١٤م

وقعت هذه المجزرة في العام ٦١٤م.، عندما أُطلقت يد اليهود في المدينة تحت راية الفرس، في أثناء الحرب الفارسيّة– البيزنطيّة (٦٠٢–٦٢٨م.)، التي تسبّبت بكوارث ومآسٍ عميقة الأثر، وذكرها القرآن (سورة الروم): «ألم غُلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهم سيُغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، يَنصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله. لا يخلف الله وعدَه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

استمرّ حصار القدس واحدًا وعشرين يومًا ما بين أواخر آذار ومطلع نيسان

٦١٤. وفي أثناء ذلك تمكّن الفرس من إحداث فجوات في أسوارها، مكّنتهم من دخولها هم ومن معهم من اليهود الذين قُدّر عددهم بنحو ٢٦ ألف مقاتل.

وخلال ثلاثة أيّام، حدثت مجزرةٌ ذهبَ ضحيّتها عشرات الآلاف من المسيحيّين؛ يوجز سيبيوس وقائعها بقوله: إنّ الغزاة قتلوا سبعةً وخمسين ألفًا من السكّان، بمن فيهم أعداد كبيرة من الرهبان، وأحرقوا كثيرًا من الأماكن في المدينة، واعتقلوا خمسة وثلاثين ألفًا بمن فيهم البطريرك زكريّا، وأجبروا الرهبان تحت التعذيب على إطلاعهم على المكان الذي كانت خشبة الصليب الحقيقيّ مخبّأة فيه فاستولوا عليه.

ويصف لنا ستراتيجون ما رآه هو، يقول: «إنّه بعد أن دخل الغزاة القدس، أسرع الناس للاختباء في الكهوف والقنوات وخزّانات المياه. كما التجأت أعداد وفيرة منهم إلى الكنائس والأديرة طلبًا للنجاة. إلاّ أنّ الغزاة لاحقوهم بالسيوف والسهام لا يفرّقون بين رجل وامرأة، ولا بين كبير وطفل، ولا بين أناس عاديّين ورجال دين. وبعد أن قتلوا منهم من قتلوا، أمر قائدهم بجمع من نجا منهم، وفرزُ من بينهم من هم خبراء في صناعة البناء لكي يأخذهم أسرى إلى فارس. أمّا الآخرون فقد حجزهم أسرى في بركة ماميلا. وهنا اشترى اليهود من الفرس الأسرى وقاموا بذبحهم كما تذبح الشياه، وفق تعبير ستراتيجون. وعندما انتهوا من هذه المجزرة التفتوا إلى الكنائس فقاموا بإشعال النار فيها».

ويجمل ستراتيجون نفسُه هذه الكارثةَ التي حلّت بأهالي القدس ونتائجها بقوله:

«كم عدد تلك الأرواح التي هلكت من الجوع والعطش. وكم من الكهنة والرهبان قد ذبحوا بالسيف. وكم من الرضّع قد سحقوا تحت الأقدام، أو هلكوا جوعًا وعطشًا، أو عانوا الخوف والرعب من العدوّ. وكم عدد العذارى اللواتي واجهن الموت على أيدي الأعداء، لأنّهنّ رفضن أن تنتهك أعراضهنّ. كم من الآباء قضوا وهم فوق أطفالهم. وكم عدد الناس الذين اشتراهم اليهود وذبحوهم، وقد جاهروا باتّباع المسيح. وكم عدد الآباء والأمّهات والأطفال الذين اختبأوا في الخنادق والصهاريج، فقضوا في الظلام ومن الجوع. وكم عدد أولئك الذين احتموا بكنيسة القيامة وكنيسة صهيون وغيرهما من الكنائس حيث تمّ ذبحهم والقضاء عليهم بالنار. من يستطيع أن يحصي العدد الجمّ من جثث أولئك الذين ذبحوا في القدس؟».

كان عدد القتلى في منطقة بركة ماميلا (مأمن الله) ٢٤،٥١٨ شخصًا كما ذكر ستراتيجون. وقد استند في إحصائه إلى ما قام به نفر من السكّان ممّن نجوا من المجزرة في البحث عن جثث القتلى لدفنهم، وكانت منتشرة في مختلف أنحاء المدينة، وبلغ عددها الإجماليّ ٦٦،٥٠٩ جثث.



غير أنّ المؤرّخ البيزنطيّ تيوفانس (المتوفّى حوالى سنة ٨١٨م) يجعل عدد ضحايا المجزرة أعلى من هذا الرقم، محمّلاً اليهود المسؤوليّة قائلاً: في هذا العام (٦١٤م) استولى الفرس على فلسطين ومدينتها المقدّسة. وقد قتلوا بأيدي اليهود كثيرًا من سكّانها. ويقول البعض أنّ عددهم بلغ تسعين ألفًا. وكان اليهود كعادتهم يشترون المسيحيّين ثمّ يقومون بقتلهم.

مذابح صغرى

قبل الكلام على المذابح الكبرى التي جرت في الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤–١٩١٨) أيّام السفربرلك، لا بدّ من الإشارة إلى ما سبقها من مذابح صغرى:

١. في حلب ١٨٥٠

ليلة الجمعة في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠، علا صراخ عظيم في دار البطريركيّة السريانيّة الكاثوليكيّة، حيث امتلأت بمسلّحين بالسيوف والخناجر والعصيّ، راحوا ينهبون ويسلبون، فسادت البلبلة الكهنة قائلين: يا ويلنا إنّ الإسلام قاموا على المسيحيّين!

وتجمّع في البطريركيّة جموع الهاربين من بيوتهم، يبكون طالبين الحماية، وأكثرهم عُرّوا من ثيابهم وسُلبوا حليّهم، ولاسيّما في محلّة الصليبي حيث ساد النهب والرعب.

دخل المسلحون ديوان البطريرك وهدّدوه بالموت إذا لم يدفع لهم الدراهم وأدوات الكنيسة الثمينة؛ وقد ضربوه فعلاً بالعصيّ والمديات على رأسه وظهره، فيما ضربه أحدهم بالمكيال على صدغه الأيمن فأغمي عليه أرضًا، وضربه آخر بخنجر في كتفه وظهره،

وأمسكه آخر من رجليه وسحله حتّى أخرجه إلى حافّة بستان لذبحه؛ ولكنّ مسلمًا صرخ به: «لا تمدّ يدك إليه» وتقدّم ولفّه بعباءته وحمله إلى القنصليّة الفرنسيّة لدى القنصل موسي دي لسيبس... وهذا البطريرك هو مار اغناطيوس بطرس جروه (١٨٢٠- ١٨٥١).

٢. في مرعش ١٨٩٥

ذكر الدكتور كريكور أبراهام استارجيان الأرمنيّ في مذكّراته التي حقّقناها ونشرناها عام ٢٠٠٤ ما نصّه عن أحداث الفتنة التي نشبت في مدينة مرعش (جنوب تركية):

«... كنت في العاشرة من عمري، وبالضبط في الصفّ الثالث الابتدائيّ، وعلى ما أذكر في أيلول عام ١٨٩٥ بعد الظهر، عندما قرع جرس المدرسة على غير عادته، وجمعنا مدير المدرسة في فنائها وقال: إسمعوا يا أولادي الأعزّاء، إرجعوا، اليوم والآن، إلى بيوتكم وبالسرعة الممكنة، وأرجوكم من دون توقّف في الطرقات والأزقّة. وكرّر هذا القول عدّة مرّات.

أمرنا السيّد المدير بالانصراف، فخرجنا مسرعين، ونحن لا ندري ما يخبّئه القدر. كانت الطرق خالية، وأبواب الدور مغلقة، وكذلك شبابيكها، إضافة إلى المحلاّت والدكاكين التي كانت محكمة الإقفال؛ والناس قد استولى عليهم الخوف والذعر والاضطراب، وشملتهم الحيرة الكبرى.

كانت دارنا بعيدة عن المدرسة. وفي طريقي إليها، رآني شابّ تركيّ يعمل صانعًا لدى حدّاد، وقال لي: أيّها الكافر سوف نحرق مستقبلكم ونلعن أباكم. وصفعني على وجهي صفعة لن أنساها، بعد أن قبض على خناقي وكاد يخنقني..

أسرعت باتجاه الدار، وأوصالي ترتجف. وهكذا كانت بداية المذبحة... حيث جرت دماء الشهداء في طرقات المدينة، والناس شملهم الخوف والذعر لأيّام وشهور».

٣. في الرّها ١٨٩٥

في ٢٨ تشرين الأوّل ١٨٩٥، اصطدم السريان والكلدان والأشوريّون مع المسلمين المسلّحين، الذين هاجموا محلاّتهم وبيوتهم (٢٥٠) في تلّ الفطور وقتلوا منهم كلّ من وجدوه ونهبوا كلّ الأثاثات حتّى لم يبق لهم حصيرة واحدة.

استمرّت هذه الفتنة تنتقل من محلّة إلى محلّة على وسع مدينة الرها السريانيّة/ الأرمنيّة، فنُهب أكثر من خمسمائة دكّان، وقتل عدد كبير من قرى الجوار؛ وقد دام هذا الضيق اثنين وستّين يومًا، بحيث ارتفعت أسعار الموادّ الغذائيّة من ١٥٠ ليرة في اليوم إلى ٩٥٠٠ ليرة. فهذا المبلغ كان يخرج من أيدي المسيحيّين لأكياس المسلمين.

٤. في سويرك ١٨٩٥

استمرّت هذه المذبحة أيّامًا طويلة، فأحرقت القرى العديدة في ديار بكر والسعديّة وميافرقين وقره باش وقطربل وتلّ الأرمن وينابيل والمنصوريّة ونصيبين وماردين وغيرها، وقتل أغلب سكّانها السريان والكلدان والأرمن. وقد كان المسلّحون يصرخون: إنّ الكفرة يجب قتلهم ونهب أموالهم!

مذابح ١٨٦٠

لأسباب اجتماعيّة اقتصاديّة أوّلاً، تأجّجت الفتنة بين الموارنة والدروز في جبل لبنان، بدفع من السلطة العثمانيّة، بل بمؤازرة من الأتراك للدروز. ثمّ ما لبث أن امتدّت إلى زحلة، فدمشق حيث التهبت النعرات الدينيّة وحصدت آلاف الضحايا من الموارنة والروم الملكيّين، ومنهم الرهبان والراهبات والأطفال، والتهمت عددًا من المزارات والمعابد بأبنياتها وأثاثاتها، فضلاً عن نهب الأموال وسلب الأملاك[٩]. ومن أشهر شهدائها الإخوة المسابكيّون الثلاثة. وهنا يُشهد للمجاهد الأمير عبد القادر الجزائريّ ما كان له من وقفة دفاع وحماية؛

مذابح ١٩١٤-١٩١٨

انتهى القرن التاسع عشر بسياسة ظالمة قادها السلطان الأحمر عبد الحميد الثاني (١٨٤٢- ١٩١٨)، مستغلاً العصبيّة الدينيّة ضدّ النهضة القوميّة في بعض مقاطعات السلطنة، ولاسيّما المقاطعات العربيّة.

مهّد الموظّفون الأتراك وشيوخ العشائر الكرديّة لذلك بسلسلة من الاجتماعات في مدن ديار بكر، اتفقوا فيها على جمع السلاح من المسيحيّين.

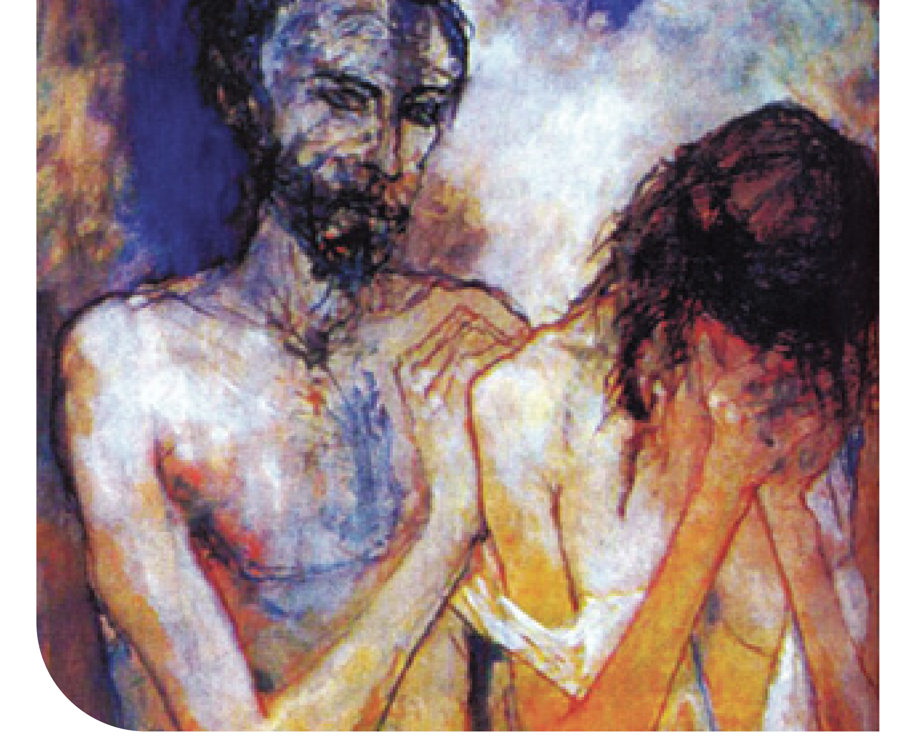
في أواسط أيّار سنة ١٩١٥، بدأ هؤلاء بحملة جمع السلاح، وفي علمهم أنّ السريان لا يملكون منه الكثير، فكانوا يدخلون البيوت والكنائس بهذه الحجّة يفتّشون وينبشون قبور بعض المطارنة، بل يدسّون الأسلحة في الكنائس ليرموا السريان بتهمة الخيانة.

كتب الأب اسحق أرملة السريانيّ:

«وفي هذا اليوم أبصر واهفُ (قندلفت) كنيسة السريان الكاثوليك قومًا من العسكر الخمسيني يخفّون تحت الليل إلى الخندق الملاصق لشارع الكنيسة ليدفنوا فيه أسلحة، فما تمالك أن عارضهم واحتجّ عليهم، فكتموا عنه الحقيقة ورجعوا بصفقة خاسرة. ومنذئذ جُعلت العيون على الأزقّة ليل نهار، حَذَرَ أن يَطمر فيها الخصمُ، فينقلب ويدّعي أنّ السريان أخفوها لوقت الضرورة، ليصيب منهم حجّة للتنكيل بهم وسفك دمهم».[١٠]

من المرجّح أنّ بداية المذابح تمّت بأوامر من رشيد باشا والي ديار بكر، إذ بدأت في مدينة ديار بكر في أواخر شهر نيسان. فبين ٢٥ و٢٧ نيسان تمّ نقل حوالى

(٩) راجع أخبار هذه الفتنة بالتفصيل في أطروحة الدكتوراه للأب أنطوان ضو المنشورة.
(١٠) الخوري اسحق أرملة، **القصارى في نكبات النصارى**، ص ١٤٧...



٨٠٠ مسيحيّ، أغلبهم من الأرمن، إلى خارج المدينة، حيث قتلوا جميعًا. وظلّ الأتراك يجمعون المسيحيّين في قوافل ويرسلونها نحو الموصل حيث يقتلونهم في الطريق.

في أواخر حزيران، انتشرت المذابح في معظم مدن وقرى ديار بكر. ففي الرّها قصف الألمان بالمدفعيّة الحيّ الأرمنيّ، فيما هاجمهم الأتراك، فكانت المذبحة الرهيبة، التي مات فيها أيضًا عدد كبير من السريان.

أمّا في ماردين فقد ألقى الأتراك القبض على وجهاء الأرمن ومطرانهم (مار مالويان) وعلى عدد كبير من السريان أرسلوهم في قافلة إلى خارج المدينة حيث قتلوا جميعًا، وهم ٤١٧ نسمة، وذلك بين ١٠ و١١ حزيران. أمّا في القافلة التالية، في ١٥ حزيران، فأعفي عن السريان، ولكن قتل الأرمن جميعًا وكانوا أكثر من تسعين نسمة. وقد توالى سَوقُ قوافل النساء والشيوخ والأطفال إلى خارج ماردين، حيث ينتظر الأكراد لتصفيتهم.

ثمّ توالت المذابح التركيّة في : ديركه، وقلّث، وحصن كيفا، وويران شهر، وسعرد، وكربوران، ومديات، وصلح، وبات، وغيرها من القرى.

ومن الملاحظ أنّ الأتراك نكّلوا أوّلاً بالسريان الكاثوليك والكلدان والإنجيليّين والأرمن، ثمّ بالسريان الأرثوذكس حين بدأوا يحتاطون ويقاومون كما حصل في مذيات وعينورد وآزخ وغيرها.[١١]

ومن الملاحظ أيضًا أنّ العشائر الكرديّة هي التي تكفّلت بالقرى الآهلة بالسريان أو بالمسيحيّين عامّة. أمّا في المدن فإنّ الخطّة كانت تقضي بقتل المسيحيّين خارجها. ومن هنا كان سوق القوافل، وادّعاء الأتراك أنّها وصلت إلى المنفى بسلام.[١٢]

وهنا لا بدّ من أن نشير إلى فِرَق العمّال التي كوّنها الأتراك من المسيحيّين، لتعمل بالسخرة في إنشاء الطرق أو تأهيلها؛ ومع ذلك كانوا يقضون عليهم، إلاّ حين كانت الحكومة تصدر العفو وخاصّة عن السريان.[١٣]

وقد قدّر الأب اسحق أرملة عدد القتلى من السريان والكلدان والآشوريّين بستمائة وعشرين ألفًا في ولاية ديار بكر فقط.[١٤]

نوجز هذه المأساة الرهيبة التي أودت بحياة أكثر من مليونَي إنسان أرمنيّ وسريانيّ بشهادة شهود القوافل:

«حينما بدأت القوافل بالسير، كان الأفراد يحملون سمات البشر، لكن بعد ساعات قليلة، كسا غبار الطريق وجوهم وثيابهم.. وبسبب التعب والوهن الشديدين، بسبب وحشيّة «حُماتهم»، كانوا يشبهون نوعًا جديدًا وغريبًا من فصائل الحيوانات. كانوا يعرّجون داخل الوديان وخارجها، ويتسلّقون كلّ الجبال والهضاب، عارفين أنّ الطرق كلّها تؤدّي حتمًا إلى الموت. قرية بعد قرية، ومدينة بعد مدينة فُرّغت من سكّانها الأرمن والسريان، فهُجّر حوالى المليون والربع من الناس إلى الصحراء السوريّة والجبال العراقيّة. «صلّوا لأجلنا» كانوا يقولون وهم يهجرون بيوتهم وأرضهم التي عاش فيها أجدادهم مدّة ثلاثة آلاف سنة».

لم يكن الأرمن والسريان مع الكلدان والآشوريّين قد تركوا بيوتهم حينما بدأت الاضطهادات. كانت الطرق التي يمشون عليها ضيّقة كدروب الدوابّ. كانت القافلة، التي تبدأ بالسير بانتظام، تتحوّل إلى جموع زاحفة من دون ترتيب. فُصلت النساء عن أطفالهنّ، والأزواج عن زوجاتهم. انقطع الاتصال بين المسنّين وعائلاتهم بسبب تعبهم الشديد. كان سائقو عربات الثيران

(١١) شاهد عيان، **القصارى في نكبات النصارى**، ص ٤٠٦- ٤٠٧. (١٢) ذكر الأب أسحق أرملة في كتابه: «**القصارى في نكبات النصارى**» أنّ الناجين من الموت كانوا بالعشرات، بينما المدفونون على يد العمّال كانوا بالآلاف. (١٣) جاء في كتاب **القصارى في نكبات النصارى**، ص ٤٣٩. والجدير بالذكر أنّ المطران أفرام برصوم (بطريرك السريان الأرثوذكس في سنة ١٩١٥م.) ذكر في تصريحه أمام اللجنة الأميركيّة المعروفة بكينغ كراين، أنّ عدد القتلى السريان الأرثوذكس في سنة ١٩١٥ وحدها، كان تسعين ألفًا. (١٤) من المعلوم أنّ الشعب الأرمنيّ يقيم في ٢٤ نيسان من كلّ عام، ذكرى المذابح التي تعرّض لها خلال سنة ١٩١٥. أمّا الشعب السريانيّ فإنّه لم يقم أيّ ذكرى أو نصب لشهدائه (١٩١٤- ١٩١٨)؛ ولذا نقترح إقامة مثل ذلك، علمًا أنّ الرابطة السريانيّة في لبنان مهّدت له منذ سنوات قليلة.

الأتراك يرمونهم ويرمون ممتلكاتهم على قارعة الطريق بعد ابتزازهم حتّى آخر قرش.

كان الدرك يمشون حاملين بنادقهم المحشوّة، والحراب مثبتة عليها. فيحثّونهم بوحشيّة على الانضمام إلى القافلة. وحتّى المرأة التي تلد تجبر على ذلك حالاً.

كان المهاجرون يُجرّدون من كلّ أنواع الأسلحة قبل بداية السفر. وكان الأكراد يندفعون من بيوتهم الجبليّة ويهاجمون الفتيات ويخطفون الجميلات منهنّ نحو التلال، بل الصغيرات أيضًا بدون رحمة، ويستولون على الأطعمة والثياب دون حساب لعري وجوع.

إنّ أفظع المشاهد حدثت قرب الأنهار، وخاصّة قرب الفرات. كان الدرك في بعض الأحيان يدفعون بالنساء إلى الماء لدى عبورهنّ النهر، ويطلقون الرصاص على كلّ من تحاول النجاة بالسباحة. أخبرت إحدى الناجيات بمعجزة بأنّها ترتعد كلّما تذكّرت كيف قتل مئات الأطفال بالحراب وأُلقوا في الفرات، وكيف عُرّي الرجال والنساء ورُبطوا بالمئات وقُتلوا بالرصاص وأُلقوا في النهر... وذكرت أنّه في حنيّة النهر الضيّقة عند مدينة أرزيجان ألقيت آلاف الجثث، حتّى أنّ النهر غيّر مجراه لزمن غير قصير مسافة مئات من الياردات بسبب هذا السدّ البشريّ.

من السخف إذًا إدّعاء الحكومة التركيّة أنّها «نقلت الأرمن إلى بيوت جديدة». إنّ الطريقة التي عوملت بها القوافل، تبيّن بجلاء أنّ الهدف الرئيس لأنور باشا وطلعت باشا كان الإبادة.

ألا ما أكثر التفاصيل الفظيعة!

طاغوت داعش

التاريخ يعيد نفسه. قبل مئة عام استقبل مسيحيّو الموصل وقره قوش وبركلي وغيرها في العراق، كما في سوريا، استقبلوا قوافل المهاجرين الهاربين من القتل والسلب والنهب، أيّامَ دولة بني عثمان وسيوف باشواتها القتلة في حزيران ١٩١٥.. واليوم (حزيران- تمّوز ٢٠١٤) هاجمهم السفّاحون الإرهابيّون من بني داعش وسيوفِ كفّارها وشرّدوا منهم مئات الآلاف تحت شروط: القتل، أو اعتناق الإسلام أو دفع الجزية، ونحن في القرن الحادي والعشرين تحت نظر العالم اللامبالي بكلّ مؤسّساته الكرتونيّة؛ فأين الأمم المتحدة، وأين مجلس الأمن، وأين الحضارة والانسانيّة؟!

نعم مجازر اليوم كمجازر الأمس صورٌ ناطقةٌ بالهمجيّة والوحشيّة تحت ألوية التكفير.. والتكبير!

فأيُّ إله هذا الذي يتلذّذ بالذبح والقتل، والسلب والنهب والاغتصاب، وكلّ أنينٍ وعويلٍ ونواح؟! إنّه «إلههم» الذي من جحيمهم هم!!





ويا للصدفة أن بعد مئة عام، ينزلُ بمسيحيّينا في العراق وسوريا ما نزلَ بهم قبل مئة عام، وقبلَ قبلَ مئاتِ الأعوام؛.. تتعدّد الأسماءُ يهودًا فرسًا أتراكًا دواعش، وصليبُنا واحدٌ، هذا الذي به نحيا وفي سبيله نموتُ!!

المصادر والمراجع

لقد آثرنا عدم تكرار الحواشي خوف الإطالة. أمّا المصادر والمراجع فمنها:

١. شاهد عيان، **القصارى في نكبات النصارى**، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٢٠.
٢. شاهد عيان، **مذبحة الرها**، المطران أفرام نقاشه، (مخطوطة) محفوظة في خزانتنا.
٣. شاهد عيان، **مذبحة الرها**، للقسّ حنّا زلّو (مخطوطة) محفوظة في خزانتنا.
٤. شاهد عيان، **مذبحة حلب**، للمطران بولس دانيال، نشرناها ضمن كتاب مذكّراته عام ٢٠٠٠ في بيروت، مع التعليق والتحقيق.
٥. شاهد عيان، **مذبحة مرعش**، للدكتور كريكور أبراهام استارجيان، في مذكّراته التي نشرناها عام ٢٠٠١، مكتبة السائح، طرابلس.
٦. كرسام أهورنيان، **القضيّة الأرمنيّة أمام الرأي العالم العربيّ**، بيروت، ١٩٦٥.
٧. عزيز آحي، **مأساة شعب**، بيروت، ١٩٩٦.
٨. الأخ إياسنت الدومينكيّ، **ماردين البطلة**، دار نعمان للثقافة، جونيه، ١٩٩١. نقله إلى العربيّة من الفرنسيّة، ناجي نعمان، والأصل مخطوطة محفوظة في دار البطريركيّة السريانيّة الكاثوليكيّة في بيروت.
٩. لجنة الدفاع عن القضيّة الأرمنيّة، **تركيا عاصمة الإجرام**، بيروت، ١٩٨٣.
١٠. جريدة **آرارات** (عدد خاصّ) «مجازر الأرمن، صرخة دائمة»، بيروت، ١٩٩٥.
١١. الملفونو عبد المسيح نعمان قره باشي، **الدم المسفوك**، ترجمة المطران تيوفيلس جورج صليبا من السريانيّة إلى العربيّة، مطبعة توما، بيروت، ٢٠٠٥.
١٢. الأب سهيل قاشا، تاريخ ما أهمله التاريخ، مكتبة السائح، ٢٠٠٦.
١٣. **هنري مورغنطاو**، ترجمة الدكتور ألكسندر كشيشيان، بلا تاريخ.

العصرُ للتّفكير، لا للتّكفير، ولا كافِرَ إلاّ المُكَفِّر مِئة... وتَستمِرُّ الإبادة

ناجي نعمان

وَأنا أُهيِّئُ لكتابٍ في مناسبة مئويَّة الإبادة الَّتي جَرَت في حقِّ الأرمَن وسواهم من مَسيحيِّي السَّلطنة العثمانيَّة (١٩١٥-٢٠١٥)، تَوقَّفتُ طويلاً أمامَ العنوان الَّذي سأختارُه لوَليدي الجديد قبلَ أنْ أُقرِّرَ أنَّه سيَكون: «مِئَةٌ... وتَستمرُّ الإبادة»؛ ولا غرابةَ في الأمر، فالإبادةُ الَّتي جرَتْ منذ قرنٍ في حَقِّ المسيحيِّين بعامَّةٍ، والأرمَن بخاصَّةٍ، لَمَّا تَنتهِ بَعدُ فصولاً؛ وأيَّامُنا تَشهَدُ على ذلك، ونحن نَشهَد!

وكأنَّ المَسألةَ الشَّرقيَّةَ الَّتي بدأتْ مع رجل أوروبَّا المريض، ما زالَت مُستمرَّةً فُصولاً تطبيقيَّةً منذ العام ١٨٣٠ إلى اليوم، وإنْ هي انتقلَت مُؤخَّرًا، وجُغرافيًّا على الأقلّ، من البلقان إلى المَشرق العربيّ.

نَعَم، الإبادةُ مستمرَّةٌ، والمَعنيُّون بها، وبنتائجها، اليومَ، كلُّ مُكَوِّنات هذا المَشرق التَّعِس، ومن دون أيِّ استِثناء؛ وكيف تكونُ استِثناءاتٌ والتَّكفيريُّون يَتَكافرون ويَتقاتلون كما لم يَتقاتَلْ مِن قَبلُ بَشَر، فيما العصرُ عصرُ تفكيرٍ لا تكفير، ولا كافِرَ إلاَّ المُكَفِّر كما لَطالَما رَدَّدت؛ وأُضيف: إنَّما الفَقرُ فَقرُ الفِكر وفِكرُ الفَقر؛ ولا أحَدَ يَحتكِرُ الحقيقة، لا أحد؛ وكَذا لا أحدَ يحتكرُ اللهَ، لا أحَد، ولا حقَّ لأحَدٍ بالكَلام عنه، وباسمه، لا أحَد؛ ثمَّ إنَّه، تعالى، لا يَقِفُ مع بَشَريٍّ دونَ الآخَر، أو ضِدَّ هذا لِحساب الآخَر!

ولَعَلَّ ما هو أبشعُ من قَتل التَّكفيريِّين «الكُفَّارَ»، فيَحزُّون رؤوسَهم، أو يَدفنونَهم أحياءً، أو يُرَحِّلونهم قسرًا فَيَلقَون مَصرعَهم على يَدِ الطَّبيعة القاسِيَة؛ قُلتُ، لَعَلَّ ما هو أبشعُ ممَّا سبَق، جَعلُ البعض يَعتنِقُ الإسلامَ على يَد التَّكفيريِّين، عنوةً، بحيث يَسترجِعُ ناسُ اليوم كيفَ «تَبَخَّرَ» مَسيحيُّو المَشرق- وكانوا، بين دجلة والنِّيل، خمسةَ عشرَ مليونًا عندَ الفَتح، ولأصبحوا، السَّاعةَ، بمِئات الملايين- ويَروحونَ يُرَجِّحون أنَّ «التَّبَخُّرَ» حصلَ، على الأرجَح، بحَدِّ السَّيف والسَّبي ومَبيع النِّساء، كما بالتَّهرُّب من دَفع الجزية، لا بحُسن المِثال، وطيبِ المُعاملة، والفضائلِ الإنسانيَّة!





ناجي نعمان

أربعةَ عشَرَ قرنًا، ذابَ فيها المسيحيُّون، وسواهم من مُكَوِّنات المَشرق، وتَحوَّلوا الكتلةَ الأكبَرَ من مُسلمي مُجتمعنا الرَّاهِن، ومن هذا المُجتمع التَّكفيريُّون أنفسُهم! فهَل يُدرِكُ «البَلَديُّون» من تكفيريِّي الألف الثَّالث أنَّهم من مُكَوِّنات المَشرق القديمة؟ وإنْ هم أدركوا ذلك، كيف لهم أنْ يَقتلوا جذورَهم بقَتل مَن صَمَدَ فَبَقِيَ على مُعتقداته من أبناء تلك المُكَوِّنات؟

إنَّ التَّكفيريِّين، في ما يُقدِمون عليه، يُسيئون إلى الإسلام، أيُّما إساءة، ويُسيئون إلى المُسلمين، بجَميع تَنَوُّعاتِهم، والتَّنَوُّع، في الوَعي والانفتاح، غِنًى، وفي الجَهل والتَّقَوقُع، مأساة. ثمَّ إنَّهم يُسيئون إلى المسيحيِّين، وإلى سائر المُكَوِّنات المَشرقيَّة الأخرى، من إزيديِّين وصابِئَةٍ وشبَكٍ، وسواها؛ ذلك أنَّ في كلٍّ من أبناء هؤلاءِ، وبَناتِهم، جُزءًا هامًّا من الإسلام العَفيف النَّظيف الفَضيل الرَّحيم، ممَّا تَكَسَّبوه، وتَكَسَّبنَه، على مَرِّ الزَّمان، من جيرانهم المُسلمين، بحيثُ قد يَجوزُ الحديثُ عن مَسيحيِّين مُتأسلِمين، وكَذا عن إزيديِّين وصابِئَةٍ وشبَكٍ مُتأسلِمين... واللاَّئحةُ طويلة!

والله، إنَّ التَّكفيريِّين، الدَّقيقةَ، إنَّما يَقتلونَ المُؤمِنين المُؤمِنين، عنَيتُ: المُسلِمَ المُسلِمَ، والمسيحيَّ المسيحيَّ، وكلَّ مَن سارَ في دَربِ عَقيدته بالإيمان

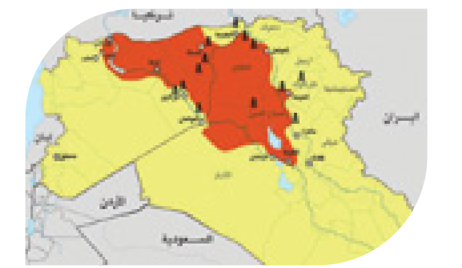
الَّذي يَملك، فكيف للمُكفِّرين أن يَقتلوه... بأيمانهم، وبما ملكَتْ أيمانُهم؟

أَلا فَلْنُدْرِكْ أنَّه، أيًّا كانَ مدى حُبِّنا اللهَ، فإنَّ اللهَ، بالتَّأكيد، يُحبُّنا أكثر، وهو يُريدُنا أنْ نَتَحابَّ باسمِه، لا أنْ نَتقاتَلَ، تَحقيقًا لِمَآربنا الخاصَّة، مُستَخدِمين اسمَه. ثمَّ إنَّ الأديانَ للإنسان، وليس الإنسانُ للإديان؛ والإنسانُ كانَ قبلَ الأديان، وسيَظلُّ بعدَها.

أوَّلاً: بالعودة إلى المَسألة الشَّرقيَّة

قامَتِ المَسألةُ الشَّرقيَّةُ، إذًا، بين القوى الأوربِّيَّة والسَّلطنة العثمانيَّة، «رجلِ أورُبَّا المَريض»، بمَعنى تَخَلُّص تلك القوى من ذاك الرَّجل؛ وبلغَت، ابتداءً من العام ١٨٣٠، مرحلتَها الثَّالثة، التَّنفيذيَّةَ والأخيرة. وفيما عملَتِ القوميَّاتُ الموجودةُ في نطاق السَّلطنة على استِعادة حُرِّيَّاتِها بعدَ قرونٍ من الأسْر العثمانيِّ المُكَلَّلِ بالتَّخلُّف الَّذي يَلي انحِطاطَ الإمبراطوريَّات بعامَّةٍ، سَعَت قوى ذلك الزَّمن الأورُبِّيَّة للاستِيلاء على المزيد من الأراضي والثَّروات مِن طريق توسيع مناطق نفوذها واستِعمارها على حساب السَّلطنة.

وإذْ أفاقَ البَلقانيُّون، وتحرَّرَ الصِّربيُّون، واستقلَّ الألبانيُّ محمَّد علي بمِصرَ في ثلاثينيَّات القرن التَّاسعَ عشَر، فدخلَ فِلِسطينَ وسوريا، وكادَ يصلُ إسطنبولَ لولا تدخُّلُ القوى الأورُبِّيَّة عَينِها خوفًا من فقدانها حصَّتَها من الغَنائم؛ قُلنا، في إثْر ما سبَقَ، وسواه من الأمور، سُجِّلَ للعثمانيِّين – وقد أحَسُّوا بأنَّ تحرُّرَ الأُمَم اقتربَ من مَعقلهم في آسيا الصُّغرى- انقِضاضُهم على اليونانيِّين السَّاعين للاستِقلال بدورهم، ولاسيَّما في جزيرة سِيُو الَّتي عرفَت، في نيسان ١٨٢٢،



مجزرةً قامَ بها ٤٥ ألف رجلٍ أعادوا احتلالَ الجزيرة – وقد تَحرَّرَت- فدمَّروها وقتلوا كلَّ الرِّجال ما فوق سنِّ الثَّانية عشرة، وكلَّ النِّساء ما فوق الأربعين من العُمر، وكلَّ الأطفال ما دون الثَّانية، فقَضى ٢٠ ألف نسمة، وتمكَّن ما بين ١٠ آلاف و١٥ ألفًا من الفِرار إلى جُزُرٍ أخرى في بحر إيجه، فيما بيعَ ٤٥ ألفًا في سوق النِّخاسة، ممَّا دَعا فكْتُر أُغُه إلى كتابةِ قصيدته الشَّهيرة «الطِّفل»؛ ومن ترجمتنا الخاصَّة للقصيدة، نقتَطِف:

هنا مَرَّ الأتراكُ، فحَلَّ الدَّمارُ والحِداد.
سِيو، جزيرةُ الخُمور، لم تَعُدْ سوى مَكسَرٍ حزين،
سِيو، تلك الَّتي لَطالَما فَيَّأَتْها الخَمائِلُ...
كلُّ شيءٍ غدا صحراءَ إلاَّ، بالقرب من الجدران المُسوَدَّة،
طِفلٌ أزرقُ العَينَين، طِفلٌ يونانيٌّ، جالِسٌ،
وقد طَأطَأَ رأسَه المَذلولَ...
أَتُريد، حتَّى تضحكَ لي، عصفورَ غابةٍ جميلاً،
يَشدو شَدوًا أعذبَ من المِزمار
وأسطعَ من الصُّنوجِ؟
ماذا تُريد؟ أَزهرةً، أَثَمَرَةً جميلةً،
أم العُصفورَ المُدهِشَ!
يا صديقي، قالَ الطِّفلُ اليونانيُّ، قالَ الطِّفلُ الأزرقُ العَينَين،
أُريدُ بارودًا ورصاصًا.

وكما في جزيرة سِيُو، كذلك في جزيرة پِسْارا، مَرَّ الأتراكُ من هناك، في تمُّوز ١٨٢٤، وكانتِ الحصيلةُ ١٧ ألف نسمةٍ بين قتيلٍ ومَسوقٍ إلى العُبوديَّة!

إنَّ ضعفَ السَّلطنة العثمانيَّة وعدمَ إدراكها ضرورةَ إعطاء ما سُمِّيَ بالـ«مِلَل» على أراضيها حقوقَها، طَوعًا، من جهة، وطمعَ الأورُپِّيِّين بأنْ يَرِثوا السَّلطَنَة حيَّةً، مُتَدخِّلين في شؤون تلك الـ«مِلَل» الَّتي هي في أصل وُجود المَشرِق، من جهةٍ أخرى، أمران جَعَلا السَّلطنةَ تُخَطِّطُ لمُستقبَلٍ «نَقيٍّ» من غير المُسلِمين ومن غير الطُّورانيِّين على أراضيها. وعليه، لم تَكُ أيدي السَّلطنة بريئةً من دم المسيحيِّين في لبنان وسوريا، زمنَ الاقتِتالات الطَّائفيَّة بين المَوحِّدين الدُّروز والموارنة في لبنان (١٨٤٠، ١٨٤٥، ١٨٦٠)، تلك الاقتِتالاتُ الَّتي امتدَّ آخرُها إلى مسيحيِّي دمَشق، ولاسيَّما الكاثوليك منهم، وكادَ يتحوَّلُ إبادةً- إذ أُزهِقَت فيه أرواحُ ٢٥ ألف نسمة- لولا تدخُّلُ (الأمير) عبد القادر بن محيي الدِّين (الجزائريّ)، المَنفِيِّ من الجزائر بعدَ أسرٍ على يَد الفرنسيِّين، وحمايتُه هؤلاءِ في مَقرِّ إقامته وفي قلعة المدينة.

ولا نَنْسَيَنَّ «قَوْمَةَ حلَب» الَّتي جرَت في تشرين الأوَّل من العام ١٨٥٠، والَّتي تحوَّلَتْ، من انتِفاضةٍ ضِدَّ السُّلطة العثمانيَّة الَّتي أرادَتْ تَجنيدَ المُسلِمين، إلى مَجزرةٍ أصابَت مسيحيِّي المدينة على يَد «الثَّائِرين»، قتلاً ونهبًا وحرقًا وتدميرًا، على مرأًى من حاكِم المدينة الَّذي، لتَهدئَة الخَواطِر، أمرَ بإعلان العفو العامِّ عن الجُناة، وبإعفائهم من «الجنديَّة»، فيما منَعَ الكنائسَ من قَرع الأجراس، إلى إظهار الصَّليب خارجَ المعابِد!... وكانَ من أسباب الاعتِداء على المسيحيِّين جَسارةُ بطريرك الرُّوم المَلَكيِّين الكاثوليك، مَكسيموس الثَّالث مَظلوم، في أن «يدورَ أحيانًا بشوارع حلَب وهو راكبٌ بأُبَّهةٍ زائدةٍ وموكبٍ حافلٍ يَتلقَّى المسلمون منه ذلك كإرغامٍ لهم وتَعالٍ»، على ما يَذكرُ الشَّيخ كامل الغزِّيّ («نهر الذَّهب في تاريخ حلَب»، المجلَّد الثَّالث، ص٢٨٧).

وما فعلَه الأتراكُ، بالحيلة والواسِطَة والتَّآمُر، بمَسيحيِّي دمشقَ وسواها، سيَفعلونه بالأرمَن، وإنَّما بالتَّخطيط والتَّنفيذ شِبه المباشر.

هذا، ولَطالَما مثَّلَ استِقلالُ جبل لبنانَ زمنَ المُتصرِّفيَّة (١٨٦٠-١٩١٤)، وكانَ ناجحًا، أنموذَجًا خَطِرًا في قلب المنطقة العربيَّة الَّتي يُسَيطرُ عليها العثمانيُّون، و«لا يُحتَذى» بالنِّسبة إلى السَّلطنة، ويجبُ عدمُ تكراره، وبخاصَّةٍ متى تعلَّقَ الأمرُ بالأرمَن القاطِنين في قلب آسيا الصُّغرى الَّذي يَعُدُّه الأتراكُ عَرينَهم! وهكذا، ألغى العثمانيُّون استِقلالَ الجبل مع بداية الحرب الكونيَّة، وضَيَّقوا عليه في عِزِّ حصار الحلفاء شؤاطئَ البحر الأبيض المتوسِّط الشَّرقيَّة، فقَضى ثلثُ أبنائه، وهاجرَ ثلثٌ ثانٍ، وبَقيَ ثلثٌ ثالثٌ في العَوَز؛ إلى تعليق المَشانق بالأحرار من الوطنيِّين في بيروتَ ودمشق، ناهيكم بأعمال السُّخرة... وسَفَر بَرْلِك.

ثانيًا: ... وجاءَ دورُ الأرمَن، ومعهم الآثوريُّون والكلدان والسُّريان

جاءَ دورُ الأرمَن بعدَ حين، لكنَّ ما قاسوه تعدَّى التَّضييقَ والمَشانقَ والمَجازرَ التَّأديبيَّةَ إلى عمليَّةِ إبادةٍ مُمَنهَجَة: فالسُّلطانُ «الأحمَر» عبد الحميد الثَّاني حرَّضَ الأكرادَ ضِدَّ الفلاَّحين الأرمَن العُزَّل، وما بين أيلول ١٨٩٤ وصيف ١٨٩٦، ذُبحَ نحوَ ثلاثمئة ألف أرمنيّ، إلى خمس وعشرين ألفًا من الآثوريِّين (الأشوريِّين) في دِيار بَكر.

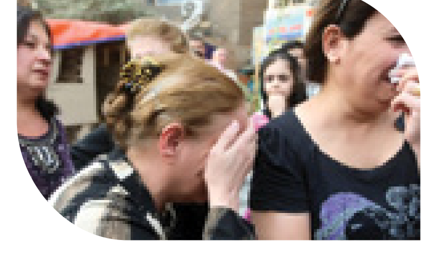
ولمَّا خلَعَت حركةُ «تركيا الفتاة» السُّلطانَ عبد الحميد الثَّاني، وأعلنَتِ الدُّستورَ في العام ١٩٠٨، أَملَ الأرمَنُ خَيرًا، لاسيَّما وأنَّ أحزابَهم سانَدَتِ الحركةَ. إلاَّ أنَّهم دَفعوا ثمنَ ذلك غاليًا: فالسُّلطانُ الأحمرُ قامَ بثورةٍ مُضادَّة، وحرَّضَ على ارتِكاب المَجازر ضِدَّهم، فقُتِلَ منهم نحو ٣٠ ألف نسمةٍ في العام ١٩٠٩ في قيليقيا والقرى الأرمنيَّة غربيَّ ولاية حلَب.

ولمَّا استَتَبَّ الأمرُ لحركة «تركيا الفتاة»، راحَت تعملُ على تَتريك السَّلطنة، فثارَ عليها، إلى الأرمَن، عربُ الشَّام والعراق واليمن، ومَن بقيَ تحت سلطتها من شعوب البَلقان. وقرَّرَتِ الحكومةُ التُّركيَّة، في الرَّابع والعشرين من نيسان ١٩١٥، تَدجينَ أرمَن إسطنبول، فألقَتِ القبضَ على ستّمئةٍ من أبرز شخصيَّاتهم، ونفَتْهم قبلَ أنْ تقضيَ عليهم.

وحَلَّتِ المأساةُ الكبرى: ففي جميع قرى أرمينيا التُّركيَّة، قَضى الرِّجالُ بالسَّواطير والرَّصاص، ورُحِّلَ الأطفالُ والنِّساءُ قَسْرًا إلى صحراء بلاد الشَّام، سَيرًا على الأقدام، فقَضى معظمُهم تعبًا وجوعًا وعَطَشًا. وهكذا، هَلكَ من أرمَن تركيا نحو مليون ونصف المليون نسمة بين ١٩١٥ و١٩١٨، ولم يَصِلْ مَواطِنَ الجَلاء سوى مئَتَي ألف شخص.

هذا، وفيما استُهدفَ الأرمَنُ أوَّلَ الأمر، توسَّعَتِ المجازرُ لتشملَ كلَّ المسيحيِّين المَشرقيِّين، من آثوريِّين وكلدانٍ وسُريانٍ وسواهم. وتُشيرُ الأرقامُ إلى إبادة ٦٥٢ ألفًا من هؤلاءِ، فيما الهدفُ «تنقيةُ» آسيا الصُّغرى، عِرقيًّا ودينيًّا، وَفقَ خطَّةٍ مُسبَقَةٍ نُفِّذَت تحت جنح ظلام الحرب القائمَة.

وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ إبادةَ الأرمَن استمرَّتْ فُصولاً بعد نكبة ١٩١٥-١٩١٦ الكبرى: ففي أواخر العام ١٩٢٢ ومطلع العام التَّالي، جرَت مجازرُ في مدينة إزمير وجوارها، غربيَّ تركيا الحاليَّة، ضِدَّ الأرمَن واليونانيِّين، قضى في إثْرها نَحو ٢٠ ألف نسمة؛ كما جرَت، مُزامَنَةً، مجازرُ في مُدُن قيليقيا وقُراها، راحَ ضحيَّتَها نَحو ٢٠ ألف نسمة أخرى. وأعقبَتْ عمليَّةَ تسليم الفرنسيِّين الأتراكَ لواءَ الإسكندرون (١٩٣٨-١٩٣٩)، عمليَّاتُ تهجيرٍ أصابَتْ مَن بقيَ من الأرمَن هناك، وكذا بعضَ المَجموعات النَّاطِقَة بالعربيَّة، ولاسيَّما من المسيحيِّين والعَلَويِّين.







ثالثًا: ألدَّورُ لِهتلرَ وستالين وبُل بُتّ

إفتتحَتِ المَجازرُ الكبرى ضدَّ الأرمَنِ، في الرُّبعِ الأوَّلِ من القرن العِشرين، عصرَ الإبادات الحديثة والمُعاصِرة، المُستمرّ حتّى يومنا الرّاهن.

ولعلَّ من أبرز المَجازر والإبادات الّتي جَرَت منذُها تلك الّتي حصلَتْ ضِدَّ اليهود والپولنديّين والغَجَر في أوربَّا، خلالَ الحرب العالميَّة الثّانية، على يد النّازيّين؛ وتلك الّتي ارتكبَها الصّهاينَةُ في حقِّ الفِلسطينيّين، قبلَ ١٩٤٨، وبعدَ هذا العام، وما زالوا يَرتكبونها؛ وكذا ما ارتكبَه هؤلاء، ويَرتكبونه، في حقِّ جيران فِلسطين، القريبين منها والبَعيدين؛ بالإضافة إلى ما افتعلَه جوزف سُتالين بِشعوب الاتّحاد السُّـڤـيـيتيّ، ومنها الجُرْجيُّون- وهو منهم- وبشعوب البُلدان المجاورة، وبخاصَّةٍ الپولنديُّون؛ وقَدَّرَ البعضُ عديدَ مَن أُزهِقَت أرواحُهم (قتلاً، وترحيلاً قسريًّا، وسُخرةً) على أوامِرَ منه بما بين ٨ ملايين و٢٠ مليون نسمة، فيما رفَعَ البعضُ الآخرُ الرَّقَمَ إلى ٥٠ مليونًا، بحيث يَغدو هولاكو وهتلرُ «هاوِيَين قاصرَين» إذا ما قورِنا به؛ وكذا ما افتعَلَه پُل پُتّ في كمبوديا، زمنَ الخَمير الحُمر، بشَعبه، إذْ أبادَتْ سياستُه ما يقلُّ عن ٣ ملايين مواطن بقليل... مِن أصل ٨ ملايين! ولا بأسَ من التّذكير، هنا، بالمَجازر الّتي بدأَتْ بين قبيلتَيِ الهوتو والتُّتسي بِرُوَنْدا، في العام ١٩٥٩، وتحوّلَت شِبهَ إبادةٍ في فترةٍ امتدَّت على نحو مئة يوم بين السّابع من نيسان ١٩٩٤ ومنتصف شهر تمّوز من العام عَينه، وقُدِّرَ عددُ القتلى بين نصفِ المليون والمليون من الرُّونديّين، أي ما يُمثِّلُ عِشرين بالمئة من مجموع سكّان البلاد، وسبعين في المئة من مجموع أفراد التُّتسي المُقيمين فيها بتاريخه!

نَعَم، ما حصلَ في حقِّ الأرمَن في الرُّبع الأوَّل من القرن العِشرين، ولم يَعترفْ به، بَعدُ، أبناءُ مُرتَكبيه، وأحفادُهم، ولم يُحاسَبوا عليه، ويُعوِّضوا عنه، غدا أنموذجًا سيِّئًا احتذاهُ سَيِّئو العُقود التّالية، وطامِحوها، ولكلِّ عَقدٍ سيِّئوه وطامِحوه!



رابعًا: سَيِّئو العقد الحاليّ، وطامِحوه

لا شكَّ في أنَّ سَيِّئي عَقدنا الحاليّ، وطامِحيه، يَتمثّلون بأولئك الّذين يَشغلون بالَنا حاليًّا، وسيَشغلونه إلى أنْ يُقضى عليهم من داخلهم، لأنَّ الزّمَنَ لا يَعودُ إلى الوراء، وهم يَحملون في جيناتهم و«ثقافتهم» بُذورَ القضاء على أنفسهم.

ولا نَظلُمَنَّ هؤلاء؛ نَعَم، لا نَظلُمَنَّهم! فعُقودٌ من الكَبت والفَقر والجَهل، أي عُقودٌ ممَّا يُمثِّلُ طريقًا مَضمونًا للتَّخلُّف، تُضافُ إليها عُقودٌ من الشَّحن الدِّينيِّ الخاطئ الّذي عَدَّ دواءً ناجعًا للضَّغط على الشُّعوب وحَملها على تَقبُّل الكَبت والفقر والجَهل بانتظار سماءٍ ما في حياةٍ أخرى، كلُّها أمورٌ أدَّت إلى تَفلُّت «المارد» من قمقمه.

ولئن تَفلَّتَ الماردُ، فقد صَبَّ جامَ غَضبه على الجميع، وراحَ يَخبط، بالعَشواء، ويُخيف. وأمام مَشرقٍ مُثخَنٍ بـ«ربيعاتٍ» لا تَتحقَّقُ، فلا تُحقِّقُ شيئًا، وفي وجود «أباطِرَةٍ» يَحكمون إلى المَوت، تَراجعَتِ القوميَّةُ العربيَّةُ المُقاوِمَة، وقد ثَكَلَتْها الجِراحُ، على حساب تَوسُّعِ إسلاميٍّ تكفيريٍّ جاهلٍ يأخذُ المنطقةَ وشعوبَها إلى المَجهول.

وإذْ يَتحوَّلُ الضُّعفاءُ، بعامَّةٍ، ضحايا الحُروب، و«فَشَّةَ خلق» المُتطَرِّفين؛ ولَمَّا كانَ ضُعفاءُ عَقدنا الحاليِّ كُثُرًا: مسيحيُّون من مختلِف الطَّوائف، ومغالون، وأتباعُ دياناتٍ خاصَّةٍ؛ سنكتفي، في الآتي، بالكلام على ثلاث مَجموعات مُمَيَّزَةٍ: الصَّابئة، والإزديُّون (اليَزيديُّون)، والشَّبك، كونها من المَجموعات غير المَعروفة في لبنانَ. مع الإشارة إلى أنَّ لبنانَ، لَئِن عُدَّ بلدَ الطَّوائف الثَّماني عشرة، فإنَّ في سوريا عددًا أكبرَ من الطَّوائف، وفي العراق عددًا أكبرَ وأكبر. ونُشيرُ إلى أنَّ مُجمَلَ المَعلومات أدناه مُستقاةٌ من مجلَّدنا المُعنوَن «المَجموعاتُ العِرقيَّةُ والمَذهبيَّةُ في العالَم العربيّ»، الصَّادر عن دار نعمان للثّقافة في الفصل الأوَّل، ١٩٩٠، مع بعض التَّحديثات.

خامسًا: من الضُّعفاء، الصَّابئة

يُمثِّلُ الصَّابئةُ، تاريخيًّا، جَماعتَين مُتمايزتَين: المندائيِّين، وهم أتباعُ فرقةٍ يهوديَّةٍ- مسيحيَّةٍ مَعمَدانيَّةٍ ظهرَت في بلاد ما بين النَّهرَين، وصابئَةَ حَرَّان، وهم من الوثنيِّين الّذين عاشوا طويلاً تحت حكم الإسلام واشتَهروا بعُلمائهم.

ويَبدو أنَّ تسميةَ الصَّابئَة- الواردةَ في القرآن الكريم ثلاثَ مرَّات، والَّتي صَنَّفَت هؤلاء، مع اليهود والمسيحيِّين، بين «أهل الكتاب»- كان يُقصَدُ بها المنداثيُّون، بَيْدَ أنَّ صابئَةَ حَرَّان تَستَّروا وراءَها للإفادة من تَساهُل المُسلمين مع أهل الكتاب.

■■■■

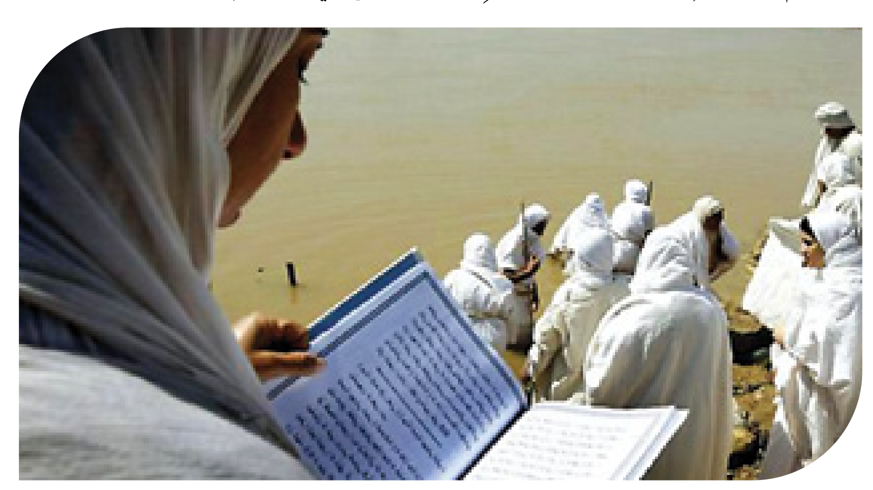
إلى هذا، فإنَّ لفظةَ صابئَة آراميَّةُ الأَصل، جُذورُها «صبَّ» أي غَطَّس، بمَعنى عَمَّدَ بالتَّغطيس، وتلك إشارةٌ واضحةٌ إلى ممارسة سِرِّ العماد بين الصَّابئَة. وثمَّةَ مَن يُعيدُ التَّسميةَ إلى كلمة سَبَأ، المملكةِ القديمة. وعُرفَ الصَّابئَةُ أيضًا بالكلدانيِّين في الكتابات الآثوريَّة والتَّقاليد البابليَّة، كما أُطلِقَت عليهم تسميةُ «مَعمَدانيِّين» نسبةً إلى القدِّيس يوحنَّا المَعمَدان، وكذلك تسميةُ «عَبَدَة النَّجمة القطبيَّة» لِما يُذكَرُ عن تَعَبُّدهم لها.

وأمَّا المندائيَّة، وهي ديانةُ الصَّابئَة، فمَذهبٌ غنوصيٌّ؛ والغنوصيَّة، تَعريفًا، نزعةٌ فلسفيَّةٌ تهدفُ إلى إدراك كُنْه الأَسرار الرَّبَّانيَّة. كما أنَّ المندائيَّةَ مذهبٌ توفيقيٌّ تلفيقيٌّ بين مذاهبَ مُتعارضَة، يضمُّ عناصرَ مسيحيَّةً ويهوديَّةً وفارسيَّة، إلى عناصرَ أخرى، لا يُستهانُ بها، من ديانات بلاد ما بين النَّهرَين القديمة، ذلك أنَّ الصَّابئَةَ، على الأرجَح- في فتراتٍ مختلِفة، وخشيَةَ الاضطِهادات الدِّينيَّة- تَبعوا عَقائدَ المَجموعات المُسَيطِرة على الأرض والضَّاغطة عليهم، ممَّا جعلَ مذهبَهم يتأثَّرُ بفسيفساء من الأفكار المتنوِّعَة الَّتي جاءَت لِتختلطَ بمبادئهم الأساسيَّة.

والصَّابئَةُ يَتعبَّدون للنَّجمة القطبيَّة، ويُصَلُّون في اتِّجاهها، ويُديرون معابدَهم ومقابرَهم انطلاقًا منها؛ ومن هنا تسميتُهم بعَبَدَة النَّجمة القطبيَّة. وللقدِّيس يوحنَّا المَعمَدان، لديهم، مَنزلةٌ هامَّةٌ، بحيث أُطلِقَت عليهم، أيضًا، تسميةُ «مَعمَدانيِّي القدِّيس يوحنَّا». والعماد، عندهم، سِرٌّ أساسيٌّ، ويتمُّ بالتَّغطيس في مَجاري المياه الَّتي هي، لديهم، مصدرُ قوَّةٍ حيويَّة.

وثمَّةَ، لدى الصَّابئَة، تأثُّراتٌ هامَّةٌ بالنُّصوص التَّوراتيَّة؛ وأمَّا تأثُّرهم بالزَّرَدَشتيَّة فلا يَقلُّ أهميَّةً، إذ نجدُ في كتاباتهم الرَّمزيَّة، الثُّنائيَّةَ إجمالاً، أنَّ كياناتِ الشَّرِّ تُواجِهُ كياناتِ الخير المُتجَسِّدة بمَنده، المَبعوثِ السَّماويّ، المُنبَثِق من الإشراق، كائنِ النُّور، وقمَّةِ الميثولوجيا (عِلم الأساطير والخرافات).

ويَعترفُ الصَّابئَةُ باثنَي عشر مُخَلِّصًا؛ ويَلبسون الأبيضَ إجمالاً لانشغالهم بفكرة النَّقاوة وما يُعاكسُها؛ ويَحرِصون على تطهير أنفسهم من دَنَس الشَّهوات؛ ويَتطهَّرون بالماء إذا لَمَسوا جسدًا. كما أنَّهم يُحرِّمون الختان، ويَمنعون الطَّلاق، إلاَّ بأمرٍ من القاضي، ويَرفضون تعدُّدَ الزَّوجات، ويُؤدُّون القيامَ بثلاث صلواتٍ يوميًّا، ويَمتنعون عن لحم الخنزير، والكلب، والحمام، والطُّيور ذات المَخالب. وللصَّابئَة تأثيرٌ واضحٌ في عقيدة الإزديِّين (اليَزيديِّين).



ونُشيرُ إلى أنَّ المؤرِّخين المُسلمين، ولاسيَّما منهم الشَّهرستانيُّ في «المِلَل والنِّحَل»، والدِّمشقيُّ في «نخبة الدَّهر من عجائب البحر»، اهتمُّوا بالصَّابئَة ومذهبهم، فذَكَروا أنَّ هؤلاءِ يُعَدُّون بين الرُّوحانيِّين الّذين يَقولون بوُجود وسائطَ بين الله والعالَم تُمَثِّلُ الأسبابَ المباشرةَ للتَّغيُّر، كونها تُديرُ الكونَ وتفيضُ عليه الوجود؛ وقد تَفنَّنوا في إقامة هياكل لهذه الوسائط، وَرَدَ وصفٌ دقيقٌ لها في أعمال الدِّمشقيّ.

■■■■

ويُفترَضُ بالصَّابئَة أن يكونوا، عِرقيًّا، ساميِّين مُتَحَدِّرين من حُكَّام مملكة سَبَأ القديمة، جنوبيَّ الجزيرة العربيَّة. وقد حَلَّ الحِمْيَريُّون مَحلَّهم في ما بَعد. وقد عرفوا هجرةً نحو الشَّمال الشَّرقيّ، فَسَكَنوا وادي الفرات، من الدِّلتا حتّى حوران في سوريا الحاليَّة.

ويُشيرُ التّأريخُ الآثوريُّ، كما التّقاليدُ البابليَّة، إلى الصَّابئَة بِاسم الكلدانيِّين الّذين عُرِفوا به في ما بعد. وقدِ انتَشروا، أوَّلَ ما انتَشروا، شماليَّ بلاد ما بين النَّهرَين، وتَمَحوَروا حولَ حرَّان، وكانتِ السُّريانيَّةُ لغةَ طُقوسهم الدِّينيَّة.

فكَّرَ الخليفةُ المأمون في اضطِهادهم، إلاّ أنَّ بَراعتَهم العِلميَّةَ شفعَت بهم، إذ كان بينهم المُترجمون والرِّياضيُّون والنَّباتيُّون والوزراء. ولمَّا اختلفَ أحدُ عُلمائهم، ثابت بن قرَّة، مع رفاقٍ له في الدِّين، حوالى العام ٨٧٢، حُرمَ في حَرَّان، فقصدَ بغدادَ حيث أنشأَ فرعًا جديدًا من الصَّابئَة. وعاشَ صابئَةُ بغدادَ في سلامٍ لبعض الوقت، بَيْدَ أنَّ الخليفةَ القاهر بدأَ بِاضطِهادهم وأجبرَ سنان، ابن ثابت، على الدُّخول في الإسلام.

وتمكَّن أبو اسحق بن هلال الصَّابئ، وكانَ وزيرًا لدى الخليفتَين، المُطيع والطَّائع، من استِصدار مَنشورٍ يَقضي بالتَّساهُل مع صابئَة حَرَّان والرَّقَّة وديار مُضَر، وكذا بحماية صابئَة بغداد.

وكان ثمَّةَ، بَعدُ، في بغدادَ، مَطلعَ القرن الحادي عشر، طائفةٌ هامَّةٌ من الصَّابئَة. إلاَّ أنَّ هيكلَهم الوحيدَ في حَرَّان، هيكلَ القمر، سقطَ بيَد الفاطميِّين. ويبدو أنَّ آثارَ صابئَة حَرَّان فُقدَت أواسطَ القرن المَذكور، فيما استمرَّ وُجودُ هؤلاءِ في بغدادَ حتّى نهايته.

ومن رجالات الصَّابئَة وعُلمائهم، بالإضافة إلى ثابت بن قرَّة، الرِّياضيِّ اللاّمع، والفلكيِّ المُمَيَّز، والفيلسوفِ والمُترجِم، يَذكرُ الدِّمشقيّ: سنان بن ثابت، الطَّبيب وعالِم الأرصاد؛ وثابت بن سنان وهلال بن المحسِّن، المُؤرِّخان؛ وأبو اسحق بن هلال، الوزير؛ والبتَّاني، الفلكيّ الشَّهير؛ وأبو جعفر الخازن، الرِّياضيّ؛ وابن الوحشيّ، صاحب «الزِّراعة النَّباتيَّة»، وإنِ ادَّعى الإسلام. ويُرَجَّحُ أنَّ جابرًا، الكيميائيَّ المَعروف، كان على دين الصَّابئَة.

■■■■

تمكَّنَ الصَّابِئَةُ، إلى اليوم، من المحافظة على وجودٍ لهم، جنوبيَّ العراق، وإنْ بأعدادٍ مَحدودة. وهم يَنسَجِمون في المُجتمع العراقيّ، ودونَما إشكالاتٍ تُذكَر، ولَطالَما انخرَطوا في صفوف الحزب الشُّيوعيِّ العراقيّ. وهم يُعَدُّون ببضع عشرات الآلاف في العراق، ولهم وُجودٌ رمزيٌّ في إيران؛ ويَتكلَّمون بلَهجةٍ آراميَّةٍ قديمة؛ والآراميَّةُ كم هو مَعروف، هي اللُّغةُ الَّتي تكلَّمَ بها السَّيِّدُ المسيح.

سادسًا: ومنهم، أيضًا، الإزدِيُّون (اليَزيديُّون)

الإِزدِيُّون، أو اليَزيديُّون- عَبَدَةُ الشَّيطان بحَسَب بعض عُلماء المُسلمين الأقدَمين- مَجموعةٌ دينيَّةٌ مُمَيَّزَةٌ في الشَّرق؛ يَعودون، في تَسميتهم، على الأرجَح، إلى إزدا، وهو من آلهة بابِل القدماء (الألف الثَّاني قبلَ الميلاد)، ويُعَدُّون، على نحوٍ أو على آخَر، مِن بَقايا دينٍ بابليٍّ وثنيٍّ قديمٍ دخلَتْه تأثيراتٌ يهوديَّةٌ زردَشتيَّةٌ مسيحيَّةٌ غنوصيَّةٌ مانويَّةٌ إسلاميَّة.

وثمَّةَ مَن يَنسبُ الإِزدِيِّين إلى المُتَصَوِّف عُدَي (آدي) بن مسافر بن يَزيد بن معاوية الَّذي قصدَ الموصِلَ في القرن الثَّاني عشَر. وإذ طردَه واليها لَمَّا شَكَّ في بَعض تعاليمه، انتقلَ إلى باعذرا (بيت العذارى) بِحَكياري (شيخان الحاليَّة)، وهناك سكنَ في دير قديمٍ مَهجورٍ للكنيسة النَّسطوريَّة (دير مار يوحنَّا، وقد قُبِرَ فيه لاحقًا)، والتفَّ حولَه السُّكَّانُ، فقادَهم بحَسَب تعاليمه المتأثِّرَة بالإسلام والمسيحيَّة.



وكانَ الشَّيخُ آدي وُلِدَ في بيت فار، بالقرب من بعلبكَّ اللُّبنانيَّة، ودرسَ في بغداد، واتَّصلَ بأشهر الصُّوفيِّين، ولاسيَّما بعبد القادر الغيلاني الَّذي نالَ إعجابَه قبلَ أن ينعزلَ في جبال حَكياري. ولمَّا تَجمَّعَ حولَه بعضُ التَّلاميذ، أسَّسَ جمعيَّةً عُرفت باسمه: الأدَّاويَّة؛ وكانَ يعلِّمُ الدِّينَ الحَنيف، والمُؤلَّفاتُ الَّتي تركَها تَشهدُ على ذلك. إلاَّ أنَّه، بعد وفاته، حوالى العام ١١٨٠، وقعَ أتباعُه مِن الَّذين لم يَتَمَرَّسوا بالإسلام بَعدُ، في الهَرطَقَة، حتَّى إنَّ بعضَ المسلمين، في أواسط القرن الثَّالثَ عشر، عَدَّهم من الوثنيِّين الخَطِرين.

ولَئِن بَدا الإِزدِيُّون، اليومَ، شِبهَ مُتَأَكردين، فإنَّ دينَهم، وتنظيمَهم الاجتماعيّ، يُفَرِّقانهم عن الأكراد. وهم عرَفوا، في تاريخَيهم، القديمِ والحديث، سلسلةً من الاضطهادات والمَجازر كانَ من شأنها أنْ أضعفَتهم عدديًّا، وشتَّتَتْهم في أكثرَ من دولة شرق أوسطيَّة.

▪▪▪▪

يُقَرِّبُ البَعضُ الإزدِيَّةَ من دين الصَّابِئَة لأنَّ عَقيدتَها تَضمُّ خَليطًا من المبادئ الدِّينيَّةِ المُتَبَعثِرَةِ الجُذور، العَديدَتِها، فلم تُحافظْ، بالتَّالي، إلاَّ على اليَسير من تَعاليم الإسلام؛ ولِذا، أجازَ المُسلمون، سنَّةً وشيعةً، اضطهادَها في ما مَضى، تحت سِتار إقامة حفلات تَهَتُّكٍ وخلاعةٍ يَجري فيها تَدنيسُ المُقَدَّسات الإسلاميَّة. ولا شكَّ في أنَّ الرَّقصات الانخِطافيَّة الَّتي يَقومُ بها الإِزدِيُّون خلالَ اجتماعاتِهم اللَّيليَّة قد أسهمَت في تأكيد هذه الشَّائعة الَّتي هي، من شِبه الأكيد، مُضَخَّمَة.

ووُصِفَ الإزدِيُّون، من جهةٍ أخرى، بأنَّهم من «عَبَدَة الشَّيطان»؛ وهذا ما حَدا المُسلمين إلى شَجب عَقيدتهم الَّتي لَطالَما جهلَ الإزدِيُّون أنفسُهم ماهِيَّتَها، لكَون مَعرفتها تقتصرُ على بعض المُلِمِّين بها من بينهم. مع الإشارة إلى أنَّ العقيدةَ الإزدِيَّةَ ما زالَت تُنقَلُ شَفَوِيًّا ضمنَ أسرةٍ واحدةٍ من الشُّيوخ لها الحقُّ في إتقان الكتابة والقراءة.

وللإزدِيِّين كتابان مقدَّسان: كتاب الوحي، والكتاب الأسود. ونَجدُ فيهما أنَّهم يُؤمِنون بإلهٍ واحد، يُعاونُه سبعةُ ملائكة. والملائكةُ السَّبعةُ كائناتٌ شِبهُ إلهيَّة: فهنالك طاووس الملائكة، وهو الأرفَعُ رتبةً، يَليه سلطان آزي، وشَي (شيخ) شمس، وشَي آدي، وشَي حسن، وشَي فخر الدِّين، وشَي مَنْد. ويَعتقدُ الإزديُّون بأنَّ كلاًّ من الملائكة، باستِثناء طاووس الملائكة، عاشَ على الأرض عندما أسَّسَ الشَّيخ آدي المَجموعة، وقد شُبِّهَ أحيانًا بملاك، وأحيانًا أخرى بنَبيّ. وأمَّا الملاكُ آزي فما هو إلاَّ الخليفة يَزيد بن معاوية، فيما، مَن بقيَ من الملائكة، يُمَثِّلون خلفاءَ الشَّيخ آدي من ذرِّيَّة أخيه، وقد رُفِعوا إلى مستوى الكائنات شِبه الإلهيَّة. والمسيحُ نفسُه، في نَظر الإزدِيِّين، ملاكٌ تجسَّدَ، ولكنَّ موتَه على الصَّليب ليس صحيحًا، وهم يَنتظرون عودتَه ثانيةً.

وأمَّا نظريَّةُ الإزدِيِّين حولَ الكَون فتُظهرُ العالَمَ على أنَّه نشأَ نتيجةَ دوراتٍ مُتعاقبةٍ من الخَلق المُستمرّ، وتؤكِّدُ أنَّنا، اليومَ، أصبَحنا في دورة الخَلق السَّبعين. والإزدِيُّون، كالصَّابِئَة، يَمقتون اللَّونَ الأزرق، ولا يَلبسونه؛ ويَتَطَلَّعون، عندَ الصَّلاة، إلى النَّجم القطبيِّ والشَّمس. وأمَّا احترامُهم النَّارَ الَّتي يَجبُ ألاَّ تُدنَّس، فهي ذاتُ تأثير زَرَدَشتيّ.

ويَتجلَّى الإسلامُ عندهم بالصِّيام والتَّضحية والحجِّ والكتابة على القبور. ويُسمحُ بالختان لديهم، لكنَّه غيرُ إجباريّ، فيما المَعموديَّةُ، هي، إلزاميَّة. وأمَّا التَّقاليدُ المأخوذةُ عن المسيحيَّة، فَبالإضافة إلى المَعموديَّة، كسرُ الخبز ورتبةُ شرب النَّبيذ اللَّذان يُمَثِّلان نوعًا من الأفخارستيَّا (الذَّبيحة الإلهيَّة)، وزيارةُ الكنائس عند الزَّواج، إلخ... وثمَّةَ بعضُ الظَّواهر الصُّوفيَّة لديهم كالرَّقص الانخِطافيِّ وإجلال المُتَصَوِّفين، وبعضُ الظَّواهر الشَّامانيَّة كالمُواراة في التُّراب وتفسير الأحلام والرَّقص.

وتَحقُّ للنِّساء الإزدِيَّات إقامةُ الشَّعائر الدِّينيَّة، تمامًا كما يَحقُّ للنِّساء الدُّرزيَّات الاطِّلاعُ على أسرار المَجموعة، وذلك نادرٌ في الشَّرق الَّذي لا يَستسيغُ دخولَ المرأة في هذا المِضمار. وأمَّا الممنوعاتُ في مأكل الإزدِيِّين فتَقتصرُ على الخسِّ ولحم الخنزير.

هذا، ولا يدخلُ الإزديُّ الحمَّامَ، ويُفَضِّلُ قضاءَ حاجته في الفلاء لأنَّ الخُروجَ نَجَسٌ؛ كما أنَّه لا يكذبُ على الإطلاق، ويعشقُ الملابسَ المُلَوَّنة. ويُحَرِّمُ الإزدِيُّون أكلَ الخَسِّ لأنَّ الخَسَّ أبى إخفاءَ مَعبودهم حينما هَربَ من أعدائه، ويُكثِرون من أكل البَصَل الأخضَر الَّذي اختَفى فيه مَعبودُهم. وهم لا يَلعَنون، ويَتحايلون على الكلمات لعَدَم لفظ حرف الشِّين فيها، فيَقولون مثلاً «المَي الكبيرة» بدلَ الشَّطّ، وذلك لأنَّ حرفَ الشِّين بدايةُ كلمة الشَّيطان!

وأمَّا أشهرُ أعيادهم فالنّوروز، عيدُ أكيتو في الأصل، رأسُ السَّنة البابليَّة، ويَحتفلون به لعشرة أيَّامٍ، شُربًا ورَقصًا.

▪▪▪▪

يُوجَد، في قمَّة الهَرَم المرتَبيِّ الإزديِّ شخصان يُؤلِّفان، مع أُسرتَيهما، الطَّبقةَ الاجتماعيَّةَ العُليا: الأوَّلُ هو أميرُ الإزدِيِّين الَّذي يُمارسُ السُّلطةَ الزَّمنيَّةَ عليهم، وله امتيازُ تَمثيلهم في الخارج، ويجبُ أن يَتَحدَّرَ من سلالة الخليفة يَزيد بن معاوية؛ والثَّاني هو الشَّيخُ الأعلى، ويجبُ أن يَتَحدَّرَ من سلالة الشَّيخ حسن، شقيق الشَّيخ آدي، وهو يَتمتَّعُ بالسُّلطة المُطلَقَة في جميع المسائل الرُّوحيَّة، وله حَقُّ حرم أيِّ إزديّ.

وأمَّا الطَّبقةُ الاجتماعيَّةُ الثَّانيةُ فتَجمعُ أُسَرَ الشُّيوخ الآخرين المُتَحدِّرةَ من الملائكة

السَّابقة الذِّكر، والَّتي تجسَّدت لتَعيشَ بين البَشَرِ وتَدلُّهم إلى طريقِ الخلاص. ويُذكرُ أنَّ جميع الأُسَر المَعنيَّة هي، أساسًا، من شيخان، وقد توزَّعت لاحقًا على التَّجمُّعات الإزدِيَّة المختلِفة.

ويُساعدُ المُلَقَّبون بـ«البير» الشُّيوخَ في وظيفتهم، وهم يحصُلون على مراكزهم بالوراثة أيضًا، ويتمتَّعون ببعض النُّفوذ على المُريدين الَّذين يدفعون لهم جزيةً سنويَّة.

وثمَّةَ، كذلك، طبقةُ «الفَقيران»، والكلمةُ كرديَّةٌ مُشتَقَّةٌ من كلمة فَقر العربيَّة، ومَوضوعةٌ في صيغة المثنَّى؛ وكانت كلمةُ فَقير تدلُّ في الماضي إلى بعض أتباع الجمعيَّات الإسلاميَّة. ويؤلِّفُ الفَقيران عند الإزدِيِّين طبقةً اجتماعيَّةً غريبةً، فهم، بعدما كانوا أعضاء في الأدَّاويَّة، تطوَّعوا للعمل لدى الأُسَر والعشائر، فكوَّنوا طبقةً اجتماعيَّةً جديدةً مُحترمَةً، تُخشى، ويُخضَع لها. وتُمَثِّلُ «الفادرابي» العنصرَ النِّسائيَّ المُرادِفَ للفَقيران.

وأخيرًا، هناك طبقة «القوَّال» الَّتي تتألَّفُ من جَماعاتٍ تقطنُ شيخان، ولا توجَدُ في أيِّ منطقةٍ غيرها، ويَقتصرُ دورُ أفرادها على نَقل «السّندجاك» من منطقةٍ إلى أخرى؛ والسّندجاك عبارةٌ عن تماثيلَ صغيرةٍ من المعدن، تُمثِّلُ طاووسَ الملائكة، وتُذَكِّرُ الإزدِيِّين بواجباتهم الدِّينيَّة.

هذا، ولا تَزاوجَ بين الطَّبقات ولا انتقالَ من واحدةٍ إلى أخرى إلاَّ بشروطٍ قاسية!

▪▪▪▪

> **.. يا صديقي،**
> **قالَ الطِّفلُ اليونانيّ،**
> **قالَ الطِّفلُ الأزرقُ العَينَين،**
> **أُريدُ بارودًا ورصاصًا.**

عرفَتِ الإزديَّةُ انتِشارًا ما لبثَ أنِ اصطدمَ بالاضطِهادات الَّتي جاءَتها من كلِّ حَدَبٍ وصَوْب: المَغول (بين عامَي ١٢٢١ و١٢٥٧)، والمُسلمون (في عامَي ١٢٤٤ و١٢٤٥)، فتَعرَّضَ أتباعُها للمَذابح، ولقيَ شيوخُها نهاياتٍ مأساويَّةً. ثمَّ عرفَت، في القرنِ الرَّابعَ عشرَ، انتشارًا واسعًا، فانضمَّ إليها كثيرون، حتَّى حلَّ العامُ ١٤١٤، ودُمِّرَ معبدُ الشَّيخ آدي في شيخان على يَد أمراء الجزيرة المُسلمين كابن عمر، وأمراء جرش ويوكال. وكانت، تلك، ضربةً حاسمةً للإزدِيَّة الَّتي عجزَت، في ما بَعدُ، عن مواجهة القبائل الكرديَّة والعربيَّة المجاورة لها، والَّتي كانت تَكيلُ لها الضَّربةَ تلوَ الأخرى.

هذا، وتنافسَ الإزدِيُّون في ما بينهم؛ وفي زمن العُثمانيِّين، تقلَّبَت أوضاعُهم بحَسَب مُهادنة الأتراك لهم، أو استِمالتهم إيَّاهم، أو التَّضييق عليهم. وهكذا، تحوَّلَ أبناءُ قبيلتَي المحمودي ودونبالي إلى الإسلام في نهايات القرن السَّادسَ عشَر، وانحصرَ وجودُ الإزدِيِّين في منطقتَي شيخان وسنجار، ولم تَعُدْ ممكِنَةً لهم مواجهةُ أعدائهم الَّذين غَدوا يُغيرون عليهم كلَّ عام، فيَرتكبون المَجازرَ في حقِّهم، ويَنهبون أرزاقَهم، ويَسبون نساءَهم.

وزادَ اضطِهادُ الإزدِيِّين في القرن التَّاسعَ عشَر، ولاسيَّما على يَد القائد العثمانيِّ عمر وهبه باشا، في العام ١٨٩٢، الَّذي جاءَ لاستِيفاء الضَّرائب، وهدَّدَ الإزدِيِّين بالإبادة إلَّم

يُنكروا دينَهم ويَعتنقوا الإسلامَ. وإذ لقيَ منهم الرَّفضَ، هاجمَهم بمساندة الشّمَّار وبعض القبائل الكرديَّة، واجتاحَ شيخان وسنجار. وأثارَتِ الفَظاعاتُ الَّتي ارتكبَها عمر وهبه باشا في حقِّ الإزديِّين على الأخير نقمةَ السَّلطنة العثمانيَّة ودول الغرب في آنٍ واحد.



وظلَّتِ الذِّكرى ماثِلَةً في أذهان الإزدِيِّين. ولمَّا بدأ العثمانيُّون باضطِهاد المسيحيِّين، في العام ١٩١٥، سارعَ سكّانُ سنجار إلى استقبال الأرمَن والآثوريِّين الهاربين، ورفضوا تسليمَهم السُّلطاتِ التُّركيَّة، على الرَّغم من تَرغيبها لهم حينًا، وتَرهيبها أحيانًا، وابتنَوا لهؤلاءِ الكنائس!

وإبَّان الحرب الكونيَّة، وفي إثْر قُدوم الإنكليز إلى العراق، سارعَ إسماعيل بَي، ابن عَمِّ أمير شيخان، إلى بغداد، ووَضعَ نفسَه في تَصرُّف الحلفاء. وحافظ الإزدِيُّون، عند انتهاء الحرب، على عَهدهم، أسوةً ببَقيَّة الأقلِّيّات، وانضمُّوا إلى قوّات الانتِداب الإنكليزيَّة في العراق (الـ«ليـڤيز») والفرنسيَّة في سوريا.

وعندما نالَ العراقُ استقلالَه، لم يُبدِ الوطنيُّون رِضاهم على خُصوصيَّة الإزدِيِّين، فضَيَّقوا عليهم، وأجبَروهم على الإذعان لقانون التَّجنيد الإجباريِّ الَّذي صُدِّقَ عليه أواخرَ العام ١٩٣٤ (صدرَ فرمانٌ في العام ١٨٤٩، أيَّامَ العثمانيِّين، أعفى الإزدِيِّين من الخدمة العسكريَّة). لكنَّهم أظهروا، في ما بَعدُ، رغبةً في المشاركة بفرقة خاصَّةٍ بهم، تَعبيرًا عن إرادتهم في الاستِقلال. وعارضَ الحكمُ العراقيُّ الفكرةَ لأنَّه أرادَ أن يجعلَ من الجيش بوتقةً لصَهر جميع أبناء البلاد في سبيل بناء الدَّولة. وأُقيلَ، نتيجةً لذلك، قائمقامُ بلاد سنجار الَّذي كان دومًا مسيحيًّا، حتّى تحت الحكم العثمانيّ، واستُبدلَ بآخَرَ، مُسلمٍ، في محاولةٍ لفَرض سياسةٍ أشدَّ حزمًا.

وعَدَّ الإزدِيُّون الأمرَ تحدِّيًا لهم، فتمَرَّدوا في تشرين الأوّل ١٩٣٥، ولكن، سرعان ما قضى الجيشُ العراقيُّ على تمرُّدهم، فهربَ كثيرون إلى سوريا، واقتيدَ البعضُ إلى مَشانق الجنرال بَكر صدقي الَّذي كانَ يُديرُ العمليَّات، وهو كرديٌّ، وصاحبُ أوّل انقلابٍ عسكريٍّ في العالَم العربيّ (٢٩ تشرين الأوّل ١٩٣٦)! ولَقيَ اثنان من المسيحيِّين البارزين في الموصِل المصيرَ عَينَه بعدما اشتبهَ صدقي بأنَّهما مُتواطِئان مع الميهيرخان، القائدِ الإزديّ.

وتجدَّدَ الصِّراعُ، عنيفًا، بعدما حاولَتِ الحكومةُ العراقيَّةُ تسليمَ قسمٍ كبيرٍ من بلاد سنجار إلى زعيمٍ عربيٍّ بدويّ، وشيخ قبيلة شمَّار، فثارَ آغواتُ الإزدِيِّين الَّذين كانوا ما زالوا مُوالين لحكومة بغداد. وظهرَت دعوةٌ إزدِيَّةٌ جديدةٌ تقولُ إنَّ المَهديَّ سيَخرجُ من البِحار في الغرب على رأس جيش جرَّار، وسيَنقضُّ على الأتراك والعراقيِّين، ويَهزمُهم، ويَبسطُ سلطة الإزدِيِّين على العالَم أجمَع! وكانَ أن غضَّت بغدادُ الطَّرفَ عن قيام فرقة إزدِيَّةٍ في جيشها، لكنَّ الإزدِيِّين، هم، ما لبثوا أن أذعَنوا للواقع وتَخلَّوا، شيئًا فشيئًا، عن استقلاليَّتهم، وقَدَّموا شبابَهم للخدمة العسكريَّة في الإطار الوطنيّ.

▪▪▪▪

تَمَحوَرَت أهمُّ تجمُّعات الإزدِيِّين في العراق، حتّى أشهرٍ قليلة، في شيخان، مركزِهم الدِّينيّ (شماليَّ غربيَّ الموصل)، وفي سنجار (غربيَّ المدينة عَينِها)، وقُدِّرَ عددُهم (والأرقامُ الآتِيَةُ أكثرُ من تَقريبيَّة) بمئة ألف نسمة. بَيْدَ أنَّ العامَ ٢٠١٤ أطلَّ على الإزدِيِّين بمَجازرَ جديدةٍ، دفعَت كثيرين، بالقوَّة، إلى هجرة أرضِهم، وقِلَّةً، بالقوَّة أيضًا، إلى تَرك دينها، وهذه المرَّة على أيدي مُرتَكِبي الفَواحِش. وما زالتْ دُموعُ نائبةُ الإزدِيِّين الوحيدةُ في البرلمان العراقيّ، فيَّان الدَّخيل، حاضِرَةً في ضَمائرنا لِتُذَكِّرَنا بمَصائب هذا الشَّعب!

وأمَّا الإزدِيُّون، خارجَ العراق، فيُوجَدون في سوريا منذ القرن الثَّالثَ عشَر، وقد حافظوا على مَكانَتهم فيها حتّى القرن السَّادسَ عشَر. زادَتْ أعدادُهم بعدَ نُزوح إزديِّي تركيا إلى سوريا في القرن التَّاسعَ عشر، لكنَّ أغواتِهم قبلوا بهَيمَنَة القبائل الكرديَّة السُّنِّيَّة القريبة منهم. ولَئِن لم يُعانِ إزدِيُّو سوريا ما عاناه إخوانُهم في تركيا والعراق من اضطِهادات ومَجازر، فقد ظلُّوا فريسةَ الظُّلم الاجتماعيِّ والاقتصاديّ، وانصَهروا في المَجموعات السُّوريَّة الكبرى، وكادوا يُضيِّعون هُوِيَّتَهم، ولم يبقَ منهم سوى نحوَ ٢٥ ألف نسمة. كما أنَّهم يُعانون حاليًّا من نتائج الحرب الدَّائرة في البلاد.

وأمَّا في تركيا، فلم يبقَ سوى عددٍ قليلٍ من الإزدِيِّين (بضعة آلاف)، يَنتشرون في محيط ديار بَكر وسرت وفان وبهتان، وفي منطقة بيراجيك. وكَذا في إيران حيث ثمَّةَ بعضُ الإزدِيِّين، ولاسيَّما بالقرب من تبريز.

هذا، ويَبقى التَّجمُّعُ العدديُّ الأكبرُ للإزدِيِّين في جُرجيا وأرمينيا، حيثُ يَعملون في رَعي الماشية، ولهم حَيٌّ في العاصمة الجُرجيَّة، تِبليسِّي، كما يُقيمُ بعضُهم في العاصمة الأرمنيَّة، يـرِفان. وكانَت أعدادُهم في البلدَين في حدود المئَتَي ألف نسمة، قبلَ هجرة قسمٍ هامٍّ منهم، لأسبابٍ اقتِصاديَّة، إلى أورُپّا، ولاسيَّما إلى ألمانيا. وما زالَ الإزدِيُّ، أينما ماتَ، يُفَضِّلُ أنْ يُدفَن، إمَّا في سنجار، وإمَّا... في أرمينيا.



سابعًا: ومنهم، أيضًا وأيضًا، الشَّبَك

يُدرَجُ الشَّبَكُ من ضِمن الفِرَق المُغالية؛ والمُغالون مَجموعاتٌ مذهبيَّةٌ مختلِفةٌ ترتكزُ على الغُلُوِّ في عليٍّ بن أبي طالب، ومن ثَمَّ، في أعقابه، ومنها، إلى الشَّبَك: البكتاشيَّة، والقزلباشيَّة العلويَّة، والشَّيخيَّة، والكشفيَّة، والكاكائيَّة، والإبراهيميَّة، والعَلي-إلهيَّة، وسِوى هذه من الفِرَق.

والشَّبَكُ جَماعةٌ تَقطنُ (أو قُل كانَت تَقطنُ حتّى أشهرٍ خَلَت) منطقةَ الموصل بعامَّةٍ، وتَعُدُّ بضعةَ آلاف، وهي تَختلطُ، في أماكن وجودها، بمَجموعاتٍ أخرى، مِن عربٍ وتُركمان وأكراد وعشائر الباجوان السُّنِّيَّة. وأمَّا لِسانُهم فمَزيجٌ من الكرديَّة والعربيَّة والفارسيَّة والتُّركيَّة، والأخيرةُ الغالِبَةُ. ولا يُعرَفُ لهم أصلٌ أكيد: قيلَ إنَّهم قدِموا من جنوبيِّ إيران، فيما لِسانُهم يُرَجِّحُ أصلَهم التُّركيّ.

والشَّبَكُ من الفِرَق المُتَصَوِّفَة المُغالِيَة، ويَميلُ بعضُ أفرادها إلى الحُلوليَّة والتَّناسُخ، فيما يَميلُ بعضٌ آخَرُ إلى الأخذ بمبدإٍ وَحدة الوجود. والمَعروفُ أنَّه، لَئِن ظلَّ بعضُ فِرَق المُتَصَوِّفَة نقيًّا، كالرِّفاعيَّة والقادريَّة والشَّاذليَّة والنَّقشبَنديَّة، فإنَّ بعضًا آخرَ منها غالى إلى أقصى حدود التَّطرُّف. وأمَّا الشَّبَك، فعلى الرَّغم من مُغالاتهم في حُبِّ عليٍّ، ونَعتِهم إيَّاه بأوصافٍ لا يُقِرُّها الإسلام، فإنَّهم يُؤمنون بواجب الوجود كما لدى المُسلِمين، فيما محمَّدٌ نَبيُّهم المُبَجَّل.

▪▪▪▪

ولِرجال الدِّين، عندَ الشَّبَك، مَراتِبُ، وهي ١٢، وترمزُ، على الأرجَح، إلى الأيمَّة الـ ١٢، وربَّما إلى النُّجوم الـ١٢، والأبراج الـ١٢.

ويُصلِّي الشَّبَكُ مرَّةً واحدةً في الأسبوع، فيَجتمعون ليلةَ الجمعة في دار البير (رجل الدِّين)، ويُكَوِّنون حلقةً وهم قُعود، فتُتلى استِظهاراتٌ من الكلنبك (قصائد في أهل البَيت، بالتُّركمانيَّة)، ومَحفوظاتٌ؛ ثمَّ يسجدُ الجميع، ويقرأُ البير فيهم قراءات. ولا يُمكنُ الطِّفلَ حضورُ الصَّلاة قبلَ سنِّ السَّابعة.

ولا يَصومُ الشَّبَكُ صومَ المُسلمين في رمضان، بل الأيَّامَ التِّسعةَ الأولى من شهر مُحَرَّم. ولا زكاةَ إسلاميَّةً لديهم، بل يُؤدُّون خِمسَ مَدخولهم إلى أناسٍ من صلب النَّبيّ. كما إنَّهم لا يحجُّون إلى مكَّةَ والمدينة، إلاَّ أنَّ البعضَ منهم يَزورُ كربلاء والنَّجف. ويُعتَقَدُ أنَّ الحجَّ إلى كربلاء يجبُ أن يحصُلَ سبعَ مرَّات.

ويُحتَفَلَ برأس السَّنة لدى الشَّبَك في الأيَّام العِشرين، ابتداءً من اللَّيلة الأولى من كانون الأوَّل. ويَعترفُ الشَّبَكيُّ للبير بخطاياه وذنوبه، فيُنشدُ البيرُ الكلنبكَ الخاصَّ بالاعتِراف، ويحلُّ المُذنبَ من آثامه. وثمَّةَ ليلةٌ يَغفرُ فيها المُتباغضون بعضَهم للبعض الآخَر، وهي ليلةُ التَّعاذر، وأصلُها بكتاشيٌّ وقزلباشيّ، وإن كانت تتمُّ، عندَ الشَّبَك، بطقسٍ خاصّ.

وإلى جانب الكلنبك، ثمَّةَ كتابُ المَناقب، وهو مُقَدَّسٌ لدى الشَّبَك، نُشر بالتُّركيَّة الآذريَّة، لغتِه الأصليَّة، وتُوجَدُ ترجمةٌ مختَصَرَةٌ له بالعربيَّة، يُسَمُّونه «بويوروق» أي «ما يتفضَّل به»، أو، اختِصارًا، «برخ»، وهو حوارٌ بين الشَّيخ صدر الدِّين والشَّيخ صفي الدِّين في آداب الطَّريقة.

وعندَ ولادة طفلٍ شَبَكيّ، يُقدِّمُه والداه، بعدَ سبعة أيَّام، إلى البير، ويُحضِران معهما خبزًا وخمرًا وكبشًا. يقرأُ البيرُ كلنبكًا خاصًّا، ويَنحرُ القصَّابُ الكبشَ، ويوزِّعُ لحمُه على الضُّيوف، وينتهي الاحتفالُ بالـ... دبكة، ويُسمُّونها جوبي.

وأمَّا الطَّلاقُ فصَعبٌ لدى الشَّبَك، إذ على المُطلِّق أن يَبيعَ كاملَ أملاكه ويقسِّمَها إلى اثنَي عشر قسمًا، يأخذُ منها قسمًا واحدًا، ويُقدِّمُ الباقي إلى البير؛ وتَلي ذلك طُقوسٌ تَدخلُ من ضمنها أربعون زجاجةً من... العَرَق. ونسألُ: أيكونُ أصلُ هؤلاءِ الشَّبَك من عندنا، أقلُّه لجهة رقص الدَّبكة وشرب العَرَق؟ أم العكسُ هو الصحيح؟!



وأمَّا عاداتُ الشَّبَك عندَ المَوت فشَبيهةٌ بتلك الَّتي عند المُسلمين، من غَسلٍ وتَكفينٍ ودفن. لكنَّ البيرَ يَقرأُ على المَيْت كلنبكًا خاصًّا، ويُوزِّعُ أهلُه، في إثْر الدَّفن، الطَّعامَ على الفقراء.

ولجهة الشَّكل، فإنَّ الشَّبَكَ من الشُّقر بعامَّةٍ، وإنْ مالَت شُقرتُهم إلى السَّمار بفعل الشَّمس. وهم قَوِيُّو الأبدان، طِوالُ القامة، قلَّما يَحلقون لُحاهم أو يَحفُون شواربَهم، فيُرى الشَّعرُ وقد سَتَرَ أفواهَهم. ويُقالُ إنَّهم، حين يأكلون، يَرفعون شَعرَ وجوههم بيُسراهم، ويَتناولون الطَّعامَ بيُمناهم.

ويُؤخَذُ على الشَّبَك احتِفالُهم بـ«ليلة الكشفة»، وهي قريبةٌ من «البقبَيْشَة» الإسماعيليَّة، وفيها تُستباحُ المُحَرَّماتُ (على ما يُقال)، وتُشربُ الخُمور، ويكونُ كلُّ شخص برفقة امرأته، فتُطفَأُ الأنوار، وتسقطُ المَحظورات. ونرجِّحُ أنَّ هذه اللَّيلة لا وجودَ لها عند الشَّبَك، بل إنَّ الأمرَ اختلطَ على البعض، واللَّيلةُ المَعنيَّةُ ما هي إلاَّ ليلةُ التَّعاذُر.

وشُربُ الخَمر، عند الشَّبَك، مُباحٌ. وهم يَقولون إنَّ الله لم يُحَرِّمْه، وإنَّ له فوائدَ طبِّيَّةً. وأمَّا أسماؤهم فمن أسماء أهل البيت وتَخلو من بعض الأسماء من مِثل أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وآخرين عادَوا عليًّا. وهم يَهزأون من عمر بتسميته عمروك، ومن عائشة بتسميتها عشعشة.

ثامنًا: بِمَثابة العِبرة

وبَعدُ، وبالعَودة إلى ما يَجري مِن حولِنا هذه الأيَّام من مآس، نُوقِنُ أنَّنا الخاسِرون: فقَتلى البشر قتلانا، ودمارُ الحَجر دمارُنا، وسقوطُ الأنفُس سقوطُنا، ومالُ الحروب مالُنا، ومشكلةُ إعادة إعمار البَشَر والحَجَر والأنفُس والاقتصاد مُشكلتُنا. وأمَّا الغربيُّون، فدائمًا وأبدًا، رابِحون: نَمُدُّهم بالمال فيَبيعوننا أسلحةَ القَتلِ والدَّمار، ويُنقِذون اقتصاديَّاتِهم، إلى تأمين مَصالحهم في شتَّى المَجالات. وأمَّا عن النَّفط فلا نَتَحَدَّثَنَّ قطُّ!

ثمَّ، يا ما أُحَيْلى الغريزةَ لدى الحيوان إذا ما قُورِنَت بعُنف مَن يَهوى قلبَ الحروف من بَني الإنسان، فيقلبُ الفِكرَ كُفرًا. ويَحضرُني، هنا، مَشهَدان وَرَدا في إحدى نشرات الأخبار التِّلفازيَّة: في المَشهَد الأوَّل، تَكفيريٌّ يَجلدُ في ساحةٍ عامَّةٍ، وأمامَ الجمهور، رجلاً لعنَ الكهرباءَ، وربَّها، لِغياب الأخيرة المُتَكَرِّر، وكَم نَلعنُها، الكهرباءَ، كلَّ يوم! وقد مُنِحَ صاحِبُنا المَحظوظُ الجلدَ عوضًا عن القتل «تسامُحًا» من ذَوي الشَّأن «ولمرَّةٍ واحدةٍ فقط»؛ وفي المَشهَد الثَّاني، بعدَ دقائق، كَلبٌ صغيرٌ أمامَ سمكاتٍ ابتَعَدنَ عن الماء عندَ شَطٍّ، أو ابتعَدَتِ الماءُ عنهنَّ، وهو، أي الكَلب، يُحاولُ بِلسانه أنْ يُسعفَهُنَّ، أنْ يَنقُلَ الماءَ إلى المُهَدَّدات بالمَوت، وإنَّما عبَثًا!

تُرى مَن الإنسانيُّ أكثَر، البَشَريُّ وقد كَفَّرَ فتَحَيْوَن، أمِ الكلبُ وقد أعملَ غريزتَه فتأَنسَن؟

وفي مَشهَدٍ تِلفازيٍّ آخَرَ، بعدَ أيَّام، زانِيَةٌ «مُفتَرَضَةٌ» تُساقُ للرَّجْم، وتُرجَمُ على يَد مَن شَرَّعوا السَّبيَ والمَبيعَ في سوق النِّخاسَة، فيما أُلفيَّتان مَضتا على «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَر»؛ ويا لَمأساتِك يا ابنَ البَشَر! وأَسألُ: أيأتي زمنٌ يَنسى فيه بعضُ المُسلمين الآيتَين الكريمتَين (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)؟ ونسألُ: أيأتي زمنٌ يَنسى فيه بعضُ المُسلمين الآيتَين الكريمتَين (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)؟ وإلامَ استِرجاعُ الجاهليَّة بإفراطٍ في الجَهل، وإبدالُ فروسيَّة أبناء خِيام الأمسِ بحَقارة ساكِني ناطِحاتِ اليوم؟ وأَنَقبَلُ، بعدَ فَجر الإسلام، وصَدرِه، أنْ يأتيَ زمنٌ نَحرِ الإسلام؟ أَلا فَلْنُعْتِق الأديانَ، وَلْنُنْصِفِ الإنسانَ، فقد أهنَّاها الأديانَ، حتَّى لَهَرَبَ اللهُ منَّا، وهَزَّأناهُ الإنسانَ، حتَّى لاستَطابَ المِسكينُ المَماتَ!

▪▪▪▪

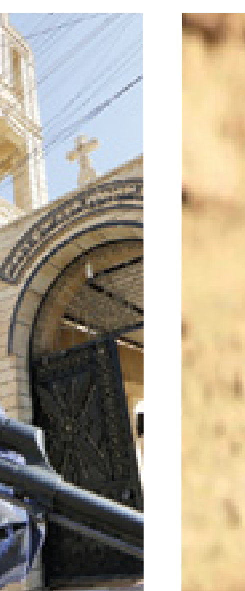
على الإنسان، في مواجهة المآسي البَشَريَّة، وعلى رأسها الإبادات، أنْ يَغضبَ حتَّى لا يَنسى، وأنْ يأملَ حتَّى يَستمرَّ، ويَتقدَّم. والإنسانُ فوقَ الأديان والأعراق والأوطان، فالدِّينُ والعِرقُ والوطنُ للإنسان، لا العَكس! وليَكُنْ تنافُسٌ، وحرِّيَّةُ اختِيارٍ وانتِقال، إلى حدود اللاَّدين واللاَّعِرق واللاَّوَطن، ولْنُبْدِلِ العُهودَ الإلهيَّةَ والأسطوريَّةَ باللاَّعَهد الجديد: العَهدِ الإنسانيّ!

وأيًّا تَكُ، بحَسَب كلٍّ منَّا، العَناصِرُ الَّتي تُنشِئُ الأُمَمَ (أرض، عِرق، لغة، دين، تاريخ مُشتَرَك...)، فإنَّ تلك العناصِرَ، إلَّم تَقتَرِنْ بمبادئَ إنسانيَّةٍ جامِعَة، عَبَثًا تُحاولُ الأُمَمُ العَيشَ، وعَبَثًا تُحاولُ التَّعاونَ والتَّكتُّلَ، ووَداعًا لحُلُم الوَحدة الإنسانيَّة المُرتَجاة!

ثمَّ إنَّ الفارِقَ بين الشُّعوب إنَّما يَكمُنُ، اليومَ، بعامَّةٍ وأساسيًّا، بينَ الذَّكاء الغَربيِّ «المُتَغابي»، والغَباءِ الشَّرقيِّ «المُتَذاكي». فمتى نُصبحُ أذكياءَ؟ متى نُبْدِلُ التَّذاكي بالذَّكاء؟ متى نَدَعُ الآخَرَ يَعيش، ونَعيش؟!

والحياةُ قصيرةٌ، ومنها لا يَأخُذُ المَرءُ شيئًا، فحتَّى الخشَبَةُ هي الَّتي تأخُذُه. نَعَم، لا يَأخُذُ المَرءُ من الحياة سوى وقفةِ عِزٍّ حين يَعِزُّ العِزُّ!

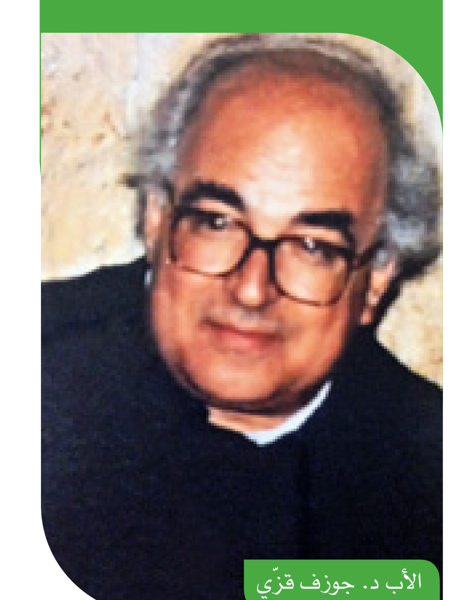




أبحاث

العروبة في حقيقتها؟!

الأب د. جوزف قزّي


الأب د. جوزف قزّي

مقدّمة

يخلط المسلمون بين الإسلام والعروبة، فيقولون بأنّ العروبة هي مادّة الإسلام، والإسلام هو روح العروبة. والروح لا يمكن أن توجد من دون مادّة. وكذلك هو الإسلام لا يمكن أن يوجد من دون العروبة.

هذا قول شائع بين المسلمين كافّة. وهو، في الحقيقة، قول خطأ، تاريخيًّا ودينيًّا. فالعروبة، كما سيتبيّن لنا في هذا البحث، لا علاقة لها بالإسلام. لقد كانت قبل الإسلام، ومستقلّة عنه؛ بل هي عدوّة له. والإسلام أيضًا مستقلّ استقلالاً تامًّا.

أوّلاً. بين الإسلام والعروبة ترابط عضويّ

١. قال د.أنور عبد الملك: «العلاقة بين الإسلام والعروبة.. بين القوميّة العربيّة والحضارة الإسلاميّة.. إنّما هي علاقة ترابط عضويّ جذريّ تكوينيّ، علاقة هي بحقّ عروة وثقى».

وعلى غرار الدكتور عبد الملك اعتبر الدكتور عبد العزيز الدوري أنّ في «الترابط بين الإسلام والعروبة أساسًا في تحديد الهويّة»، أي هويّة كلّ إنسان عربيّ مسلم.

ومثلهما قال منير شفيق: «إنّ كلمة المسلمين.. تتضمّن فورًا العرب»، أي إنّ هناك، بحسب قوله أيضًا: «وحدة عضويّة بين الإسلام والأمّة العربيّة».

وبالنسبة إلى الدكتور الطاهر لبيب، إنّ «هذا طبعًا قول لا يناقش».

وكذلك قول عادل حسين: «إنّ مفهوم العروبة لا ينفصل عن الإسلام. وأكاد أقول: إنّ الإسلام هو الوجه الآخر للعروبة».

وفي مفهوم الدكتور الحبيب الجنحاني: «إنّ الانصهار بين مفهومَي العروبة والإسلام هو انصهار كلّيّ». و«كلّ محاولة للفصل بين الثقافة العربيّة والإسلام هي محاولة تعسّفيّة».

ويرى الدكتور عبد القادر زبادية أنّ في «العروبة والإسلام شيئًا واحدًا في شكله التكامليّ».

وفي رأي الدكتور حسن حنفي «إنّ العروبة هي الوعاء الحضاريّ والثقافيّ للإسلام».

ويدعو منح الصلح إلى «احترام التلازم القائم بين العروبة والإسلام». ويرى «الإسلام إنّه اسم آخر للقوميّة العربيّة ليس إلاّ...»، ويقول: «العروبة تعني الإسلام بهذا المعنى الرفيع الذي لا تعصّب فيه ولا تمييز».

وعند الدكتور محمّد عمارة «إنّ الإسلام الحقّ والعروبة الحقّة يكوّنان مزيجًا واحدًا»، و«الذين افتعلوا بين الإسلام والعروبة تناقضًا أرادوا من ورائه هزيمة العروبة والإسلام جميعًا».

فالعروبة، إذًا، عملٌ مسيحيٌّ تامّ. ولكن، لمّا رأى المسلمون فيها إفادة للدين الإسلاميّ، جعلوها قرآنيّة منزلة من لدن ربّ العالمين، كما جعلوها «ردّة فعْل» على كلّ شيء يأتي من الخارج

ويتحمّس ناصر الدين ليقول: «في رأينا أنّه يصعب جدًّا أن يكون مسلمٌ غيرُ عربيٍّ مسلمًا... بل ينبغي له ليكون كذلك أن يصير عربيًّا بلسانه وثقافته وميوله».

ويسأل محمّد غزالي: «أيّة عروبة تبقى بعد انتزاع الإسلام منها»؟ وفي رأيه «أن الرابط بين العروبة والإسلام قضيّة بديهيّة... رابطة طبيعيّة كالرابطة بين الأجرام السماويّة وقوّة الجاذبيّة».

٢. وحذا حذو المفكّرين المسلمين مفكّرون غيرُ مسلمين أمثال ميشال عفلق، الذي أصبح في أواخر حياته مسلمًا، وكمال جنبلاط الدرزيّ وأدمون ربّاط وقسطنطين زريق ونبيه فارس وسلامة موسى ومكرم عبيد وخليل اسكندر القبرصيّ الذي وجّه نداء إلى المسيحيّين العرب دعاهم فيه إلى «اعتناق الإسلام لأسباب أهمّها أنّ الإسلام دين العرب».

٣. والمسيحيّون، أنفسُهم، في رأي منح الصلح، «عندما تستيقظ فيهم قوميّتُهم (العربيّة) سوف يعرفون بأنّ الإسلام هو لهم ثقافة قوميّة يجب أن يتشبّعوا بها، ويحبّوها، ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم».

وعليهم أن يفهموا جيّدًا، في نظر الطبري، أنّ «مَن دخل الإسلام صار عربيًّا».

والحلّ الوحيد لهم، لعيشهم في بلاد الإسلام، بحسب العقيد معمّر القذّافي، رئيس الجماهيريّة اللّيبيّة، «هو باعتناق الإسلام».

٤. والمسلمون، في ذلك كلّه، اتّبعوا النبيّ واقتدَوا به. فهو القائل: «إذا عزّ العرب عزّ الإسلام، وإذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام». وقال: «أُحبّ العرب لثلاث: لأنّي عربيّ، والقرآن عربيّ، ولسان أهل الجنّة في الجنّة عربيّ». وقال: «مَن أحبّ اللهّ ورسوله أحبّ العرب ولغتهم العربيّة». وقال: «مَن أحبّ العرب فقد أحبّني، ومَن أبغض العرب فقد أبغضني». وقال: «حبّ العرب إيمان وبغضهم نفاق». وقال: «لا يَكره العربَ إلاّ منافق». وقال: «إنّ مِن اقترابِ الساعة هلاك العرب»، أي إنّ نهاية العرب هي من دلائل نهاية العالم.

٥. بسبب هذا الترابط العضويّ بين الإسلام والعروبة كان همّ المسلمين وسعيهم الدائم في إقامة دولةٍ عربيّةٍ واحدةٍ من المحيط الأطلسيّ حتّى الخليج الفارسيّ.

يقول د. محمود كامل: «الوحدة العربيّة تحت شكلِ دولة عربيّة واحدة هي المثال الأعلى للأمّة العربيّة».

ويردّد هذا القول سماحةُ مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة الشيخ حسن خالد، ويُظهر سعيَه الدائم إلى الوحدة، فصرّح في ١٩٧٦/٤/٣ للموفد الأميركيّ دِين بْراون إذ قال: «إنّنا ننظر إلى البلاد العربيّة من المحيط إلى الخليج على أنّها بلد واحد».

ويقول سلّوم سركيس: «لا هداية إلى الذات العربيّة إلاّ بالوحدة العربيّة». و«الانعزاليّ، في نظره، هو كلّ عربيّ مسلم لا يحقّق في نفسه حلم الوحدة».

وفي رأي علي ناصر الدين أنّ «هذه الأقطار من المحيط الأطلسيّ إلى الخليج العربيّ إنّما تدعى بحقٍّ الوطن العربيّ وليس العالم العربيّ».

ومنذ سنة ١٩٠٤ بدأت جمعيّات ورابطات وأحزاب، وعُقدت مؤتمرات ونواد... تدعو إلى الوحدة العربيّة في وطن عربيّ واحد..

وفي سنة ١٩٤٥ تأسست «جامعة الدول العربيّة»، وهي، اليوم، على ما يقول الدكتور جورج جبّور، تأخذ «بجديّة مسألة تعديل الميثاق لكي ينصّ فيه على أنّ الوحدة هدف عمل الجامعة».

٦. هذه الوحدة كانت هدفًا رئيسيًّا لمعظم دساتير الدول العربيّة. فكثير منها أدخلت على اسمها كلمة «العربيّة».. ومعظمها تنصّ على أنّ شعبها «جزء من الأمّة العربيّة». وكلّها تهدف إلى هدفها الأخير وهو الوحدة العربيّة الكاملة. وكلّها تقريبًا تنصّ على أنّ الدين الرسميّ لها هو الإسلام.

واللّبنانيّون يعرفون جيّدًا، ويتذكّرون تمامًا مواقف المسلمين من هذه العروبة أو من الوحدة العربيّة. وقد عبّر الشيخ حسن خالد مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة عن ذلك مرارًا وتكرارًا:

في ١٩٧٦/٤/٢ طالب بتعديل الدستور «بحيث يحرص على ذكر أنّ لبنان جزء من الأمّة العربيّة»؛ ومع الموفد البابويّ بْريني في ١٩٧٦/٤/٢ أخذ على المسيحيّين قولهم: «إنّ لبنان لبنانيّ يعني غير عربيّ. فهذا قول مردود لأنّ لبنان بلد عربيّ». وفي حديث إلى جريدة البعث السوريّة في ١٩٧٧/٣/٢، قال: «نؤمن بأنّ لبنان يمثّل جزءًا من الأمّة العربيّة... إنّي كنت ولا أزال مع الذين يؤمنون بالوحدة العربيّة». وفي حديثه إلى مجلّة الصيّاد في ١٩٧٣/٥/٣١ قال: «إنّ لبنان الحديث هو لبنان العربيُّ الوجهِ والدم واللسان. وما زلنا نعرفه هكذا حتّى الآن، ولا نريد أن نعرفه إلاّ هكذا على مدى الأزمان».

هذا هو الواقع اليوم، أمّا في البداية فلم يكن الأمر كذلك؛ بل ربّما كان غير ذلك. فلننظر في حقبات التاريخ ونستنتج.

ثانيًا. معاني العروبة

١. أطلقت لفظة «عرب»، أوّل ما أطلقت، على سكّان «غربيّ الفرات»، وقد أطلقها عليهم الآراميّون سكّان شرقيّ الفرات. وفي اللغات الآراميّة والعبرانيّة، لا تزال لفظة «عرب» ومشتقّاتها تعني «الغرب» و«الغروب». وفي اللغة العربيّة الجاهليّة كان تعبير «يوم العروبة» يعني «يوم الجمعة» لأنّه يوم غروب الأسبوع، قبل بداية يوم السبت، الذي هو بداية الأسبوع عند اليهود والنصارى الأوائل.

٢. ولمّا كان هؤلاء «الغربيّون»، أي سكّان غربيّ الفرات، يعيشون حياة بداوة، في بادية الشام بين دمشق وبغداد، وبالتحديد في منطقة الأنبار، «أصبحت لفظة «عرب» تُطلق على كلّ مَن قطن البادية وعاش حياة البداوة والاعرابيّة والجفاف والفقر»[(١)]. «وبما أنّ تلك البلاد- التي عاش عليها هؤلاء السكّان- صحراء بادية صار لفظ عرب، في اللغات الساميّة، يدلّ على البادية».[(٢)]

٣. هؤلاء السكّان أنفسهم سمّاهم العبرانيّون «بُني قِدِم»، أي «أبناء الشرق»، «لأنّ مقامهم في تلك البادية يقع شرقي فلسطين»[(٣)]. فمنذ النبيّ أرميا (ت ٥٨٠ ق.م.)، وهو أوّل مَن ذكر لفظة «عرب»، كان يفهم منها «البداوة والبادية والأعرابيّة ليس غير»[(٤)]. وكذلك عند أشعيا وحزقيال وغيرهما. وحتّى «اليوم إذا سمعت بدويًّا يقول إنّه مشرّق، فهمت منه أنّه ضارب في البادية مهما كان اتجاهُه فيها».[(٥)]

٤. واللفظتان معًا «الغربيّون» و«الشرقيّون» استعملهما اليونان والرومان على بدو الصحاري والبوادي الواقعة بين غربي الفرات وشرقي فلسطين وبلاد كنعان. وتكلّموا على «أرَبِيَا» arabia و«شراقيني» أو «شرقيّ» Sharky وSarakenoi. وعرف المسعوديّ هذه اللفظة اليونانيّة الرومانيّة بـ «ساراقينوس» التي أطلقت على العرب[(٦)]. ويحدّد الجغرافيّ سترابون (+٢٥ ب.م؟) منازل هؤلاء «الساراقينوس» على حدود سوريا الشرقيّة، وفي مكان آخر يعتبرهم من بدو العراق. وكذلك هيرودوتس، قبله بأربع مائة سنة (+٤٢٤ ق.م.) لم يكن يحسب اليمن جزءًا من «الجزيرة العربيّة»، بل كان يسميّها «أثيوبيا آسيا». كما أنّ سكّانها لم يُعرفوا بأنّهم عرب، بل بأسماء خاصّة بهم، كالسبأيّين والحِميريّين والمعينيّين وغيرهم...

٥. أمّا في نصوص الممالك المتعاقبة على اليمن وتخومها فلسنا نجد لفظة عرب، بل لفظة «أعراب» في لقب أحد ملوك حمير، جاء فيه «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمن وأعرابها»، في أواخر القرن الأوّل للميلاد. و«أعرابها» تعني هنا «بدوها». وفي هذا دليل، كما يقول جرجي زيدان، على أنّ «أهل اليمن حضر من أقدم زمانهم. ولذلك لم يطلق عليهم اسم العرب قديمًا»[(٧)]، ولم تطلق لفظة «عرب» على أيّة دولة من دول الجنوب، ولا على أيّة لغة من لغاتها. وذلك بسبب تحضّرها.

٦. وفي المنطقة الوسطى ممّا يسمّى بالجزيرة العربيّة، لم يصل إلينا أيّ نصّ يحمل في كلماته لفظة «عرب». وليس ما يشير إلى وجود اللفظة في لغات ثمود ودِيدان ولَحيان والصفويّة، تلك القبائل التي حكمت الحجاز ونجد وتهامة، والتي تركت آثارًا هامّة في أرضها.

٧. وفي المنطقة الشماليّة ليس لدينا غير نصّ واحد من سنة ٣٢٨م. ورد فيه تعبير «مر القيس بر عمر ملك العرب كلّهم» (أي: أمرؤ القيس بن عمر، ملك الأعراب كلّهم)، وهو بالحرف النبطيّ المشتقّ من الآراميّ. و«المقصود بـ «لعرب»: «الأعراب»، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيّام».[(٨)]

* فدولة الأنباط مثلاً كانت تتكوّن «من قبائل آراميّة عراقيّة، جاء بهم نبوخذنصّر في القرن السادس قبل الميلاد لمّا اكتسح فلسطين، فأنزلهم في بطرا وما يليها»[(٩)]. وتكلّم الأنباط لغةً خاصّةً بهم قريبةً من لغة أهل الشمال الآراميّة. ولم تكن لهم أيّة صلة مع بدو الحجاز، لا في حياتهم، ولا في عباداتهم وتقاليدهم، ولا في آلهتهم...

* ودولة تدمر التي تركت حضارةً هي مزيج من العناصر اليونانيّة والرومانيّة والآراميّة والفارسيّة، ليس في أرضها أثر واحد باللغة المسماة عربيّة. لغتها آراميّة، وقومها من أصل آراميّ، من بلاد ما بين النهرين، جيء بهم رقباء على تحرّكات البدو على تخوم الدولة الرومانيّة الشرقيّة.[(١٠)]

* وأمّا المناذرة، سكّان غربيّ الفرات، فهم خلفاء أولئك «الغربيّين». وهم الذين

(١) رَ.د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جزء ١، ص ١٨ و١٤. (٢) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٧. (٣) جرجي زيدان، المرجع السابق نفسه، ص ٤٨. (٤) جواد علي، المرجع المذكور سابقًا، ١٩/١. (٥) فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ٧٤. (٦) المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف، ص ١٤٣.

أنشأوا «الحضارة» في العراق وشرقي بلاد سوريا، وبخاصّة في الحيرة والأنبار. وهم الذين أعطوا «القلم العربيّ» للغةِ القرآن. وهم الذين نشروا لغتهم وقلمهم، مع إيمانهم النصرانيّ، في مكّة والحجاز، واستقطبوا «تجّار قريش» فأعطوهم ما لم يعطه أيُّ شعب.

والحقّ يقال: إنّ المناذرة كانوا، بالنسبة إلى مكّة والحجاز، كالفينيقيّين بالنسبة إلى اليونان والعالم اللاتينيّ.

٨. أمّا في القرآن فهناك لفظتان فقط : «أعراب» (١١ مرّة) و«عربيّ» (١٠ مرّات). أوصاف «أعراب القرآن» هي هذه : إنّهم منافقون، كفرة، متخلّفون عن الجهاد مع النبيّ، يؤمنون في الظاهر دون الباطن، لا يجاهدون مع المسلمين إلاّ في سبيل المغانم، تشغلهم أموالهم، يهتمّون بالتجارة، يعتذرون عن الرسالة، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، جلف الطباع، غلظ. نصيبهم في الآخرة عذابات جهنّم الخالدة.

«أعراب القرآن» هؤلاء هم «بدو كلّ شعب»، وليسوا على جنس معيّن، أو عرق خاصّ: هم تارةً من الفرس، وطورًا من الروم، وثالثًا من اليمامة، ورابعًا من بدر، أو خيبر، أو الحديبية... هم من كلّ شعب، ومن كلّ مكان، وفي أيّ مكان...

٩. أمّا لفظة «عربيّ» أو «عربيًّا» فلم تُطلق في القرآن إلاّ على لغته. فهو لا يتكلّم مطلقًا على شعب عربيّ، أو أمّة عربيّة، أو أرض عربيّة، أو بلاد عربيّة... ولا يتكلّم أبدًا عن عنصريّة عربيّة، أو عرق عربيّ، أو جنس، أو إثنيّة.. إنّه لا يصف بلفظة «عربيّ» إلاّ «اللغة» التي نزل بها فقط. وهو يقصد بهذا أنّه لم ينزل بلغات الوحي القديمة المعروفة، كالعبرانيّة، واليونانيّة، ثمّ الآراميّة واللاّتينيّة. هذه «اللغات» سمّاها القرآن بلفظة واحدة: «أعجميّة». و«الأعجميّة» (٥ مرّات) هي صفة كلّ لغة غير لغة القرآن العربيّة. وهي بذلك، كالعربيّة، لا تعني جنسًا معيّنًا، أو عرقًا خاصًّا؛ ولا تُطلق على شعبٍ معيّن، كما هي الحال اليوم حيث تُطلق على الفرس.

١٠. والأحاديث النبويّة هي أيضًا تفهم بـ«العروبة» اللغةَ العربيّة. قال النبيّ: «إلاّ أنّ العربيّةَ اللسان»، عن معاذ بن جبل في رواية لابن كثير. وقال أيضًا: «ليست العربيّة بأحدكم من أب ولا أمّ. وإنّما هي اللسان. فمن تكلّم العربيّة فهو عربيّ»، عن تهذيب ابن عساكر... ولكن، إذا كانت بعض الأحاديث تتكلّم على «قرى عربيّة» أو «خيول عربيّة» أو «أقواس عربيّة»... فهي، إذا صحّ إسنادها، لا تعني قوميّةً أو عرقًا عربيًّا؛ بل هي صفات تدلّ على صنعها على يد الأعراب..

وما رأيناه سابقًا من أحاديث نبويّة تعظّم العرب، فليست إلاّ أحاديث موضوعة في زمن الصراع بين الشعوبيّة والفاتحين، أي إنّها أحاديث متأخّرة جدًّا، ولا علاقة لها بالنبيّ. إنّها من العصور العباسيّة، عندما أصبح الصراع على حدّته بين العجم والعرب.

ثالثًا. تاريخ العروبة ومداها الجغرافي

هناك أيضًا مجموعة ثانية من الأدلّة نأخذها من التاريخ والجغرافيا:

١. حدود ما يسمّى بشبه الجزيرة العربيّة، من جهة الغرب: البحر الأحمر، ومن الجنوب: خليج عدن، ومن الشرق: خليج فارس. هذا واضح، أمّا من الجهة الشماليّة فـغير واضح[(١١)]، بل هو، «خطّ وهميّ يمتدّ من خليج العقبة حتّى الخليج العربيّ».[(١٢)]

يخرج من هذا التحديد إذًا ما يُسمّى اليوم بالهلال الخصيب، أي: الأردن وفلسطين، وسوريا والعراق ولبنان... ولذلك صعب على الجغرافيّين أن يعطوا رقمًا دقيقًا عن مساحة الجزيرة، بسبب عدم تأكّدهم من حدودها الشماليّة. فمنهم مَن يمسحها بـ ١٠ ملايين كلم٢... ومنهم مَن يمسحها بـ ٣ ملايين كلم٢.

وممّا يؤكّد لنا هذا الاختلاف اختلاف في المناخات، والطبيعة، ولون البشرة، ونوعيّة فئة الدم، وأنواع المعاش، والتاريخ، والآثار، والتقاليد، والأعراف، والعبادات الدينيّة، والممارسات الطقسيّة، والمميزات الخلقيّة، والأحكام العامّة، والقيم الانسانيّة... هذه كلّها ليست هي في جنوبيّ «الخطّ الوهميّ» كما في شماليّه. وهي أيضًا ليست هي نفسها في البقاع الشماليّة المختلفة بطبيعتها ومناخها وأرضها وشعوبها وقيمها[(١٣)]...

٢. ثمّ إذا رجعنا إلى تقسيم الجغرافيّين اليونان والرومان والمسلمين أيضًا لما يسمّى بالجزيرة العربيّة، نرى عندهم اختلافًا لا يقلّ شأنًا عن اختلافهم حول حدودها الشماليّة: فسترابون قال بقسمين: «العربيّة السعيدة» (أي اليمن ومخاليفها)،

(٧) جرجي زيدان، المرجع السابق نفسه، ص ٢١٥. (٨) جواد علي، المرجع المذكور آنفًا، ٢٣/١. (٩) جرجي زيدان، المرجع السابق، ص ١٠٤. (١٠) جواد علي، المفصّل..، ٨٢/٣. (١١) حتّي ٤٠، غوستاف لوبون ، ص ٥٥، (١٢) ج. علي، ١٤٣/١.

العربيّة الصحراويّة (أي نجد وتهامة والحجاز والدهناء). وقال بطليموس (١٧٠م) بقسم ثالث سمّاه: العربيّة الصخريّة (حيث الأنباط وجنوبيّ الهلال الخصيب). ومع هذا لا نجد حدودًا طبيعيّة بين هذه الأقسام.

أمّا المسلمون فقسّموا العربيّة إلى خمسة أقسام: نجد، والحجاز، وتهامة، واليمن، والعروض. وهي تقسيمات تعتمد على طبيعة الأرض. ويبدو أنّها لا تتضمّن القسم الشماليّ. لكأنّهم يرفضون أن يكون هذا القسم ضمن العروبة، لاختلافه عن القسمين الآخرين في كلّ شيء. وهو ما يؤكّد لنا مرّة أخرى صوابيّة «الخطّ الوهميّ»...

٣. مع هذا التقسيم اليونانيّ الإسلاميّ هناك اعتراف بأنّ العروبة الحقيقيّة الصريحة الخالصة نشأت في «العربيّة الجنوبيّة» أو «السعيدة» أي في «اليمن» حيث، بحسب المسلمين، وجد آدم، وكانت جنّة عدن، وتملك قحطان، وابنه يعرب الذي إليه نسبت «العروبة» وكلّ ما يمتّ إلى العرب بصلة. ومن هنا قالوا «إنّ جزيرة العرب وحدها هي العربيّة السعيدة».(١٤)

٤. وقالوا أيضًا إنّ سكّان العربيّة الوسطى لم يكونوا سوى «أخلاط» من شعوب وقبائل متنوّعة المصادر والأصول، فنفوا عنها، بذلك، العروبة الحقّة، وسمّوها بتعبيرهم «العروبة المستعربة»، أي المنتمية إلى العروبة انتماءً. أمّا سكّان العربيّة الصخريّة أو الشماليّة حيث دولة الأنباط «فلم يعرفها العرب ولا وجدنا لها ذكرًا في كتبهم»(١٥). بقي إذًا أن تكون «العروبة العاربة» في العربيّة الجنوبيّة، أي في اليمن.

٥. ولكنّ عروبة اليمن مشكوك بها أيضًا، إذ ليست من مملكة قامت فيها دُعيت في التاريخ عربيّة. لهذا كان يقال «ممالك سبأ وهمدان وحِمير ومعين وقتبان...»، ولم توصف مطلقًا هذه الممالك بأنّها عربيّة. وكذلك لغاتها، التي تختلف في قلمها وألفاظها وتراكيبها عن لغة القرآن. وهي لم توصف أبدًا بأنّها عربيّة.

ومن هنا تجرّأ بعضهم على القول: «إنّ العربيّة السعيدة (أي الجنوبيّة) لم تكن عربيّة، لا بلغتها ولا بحضارتها»(١٦). وأكّد بعضهم الآخر بأنّ العروبة صفة لا كيان، وحالة عيش لا نوع من أنواع الإثنيّة والعرق.

٦. والحقيقة، بالتّالي، هي أنّ العروبة الخالصة لم تكن لا في اليمن ولا في وسط الجزيرة. بل هي نسبة إلى موقعها الجغرافيّ في غربيّ الفرات. هي إذًا من القسم الشماليّ.

٧. بقي نوع من العروبة سمّاها المسلمون «العرب البائدة». ويقولون عنهم بأنّ هؤلاء «وحدهم الذين كانوا عربًا صرحاء خُلّصًا ذوي نسب عربيّ خالص»(١٧). هذه حقيقة، ولكنّها تعني «أنّ العروبة متى لفحتها رياح الحضارة تموت»، أي «تَبيد». والإسلام هو تلك الحضارة التي قضتْ على العروبة. والنبيّ قال في ما قال: «إنّ التعرّب بعد الهجرة إحدى الكبائر»، أي من رجع إلى العروبة بعد أن يكون أسلم ارتكب كبيرةً، وحكمه كحكم المرتدّ، أي يُقتل.

٨. ثمّ هناك نتيجة أخرى، يُجمع عليها المسلمون كافّة، وهي أنّ النبيّ كان من العرب المستعربة، والعرب المستعربة «أغراب دخلوا البلاد وتجنّسوا بجنسيّتها»(١٨). وبكونهم أغرابًا جرى بينهم وبين العرب العاربة عداءٌ مستحكِم واقتتالٌ استمرّ طوال التاريخ الإسلاميّ تحت أسماء عديدة: عداء بين قيسيّ ويمنيّ، عداء بين أنصار ومهاجرين، عداء بين هاشميّين وأمويّين، وعداء بين سنّة وشيعة... إلخ.

٩. وخير من عبّر عن صراع العرب كان الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وقد جاء في قوله عنهم: «هؤلاء عرب وأنتم عرب، وهلاك كلّ شيء من جنسه»(١٩). وجاء في قول خالد بن الوليد لحامل رايته في اليرموك: «أنتم عرب وأعداؤنا عرب، والحديد لا يقطعه إلاّ الحديد»(٢٠). وحديثًا قال غوستاف لوبون: «إنّ القهر إذا وقع كان على أيدي أعراب آخرين. فلا يفلّ الأعراب إلاّ الأعراب».(٢١)

١٠. ولا شيء يشير إلى تغيير حال العرب عمّا كانوا عليه من اقتتال وصراع وعداء مستحكم بينهم. وهو اليوم، كما في الأمس، وكما سيكون في الغد، على أشدّه... وكم حمل لواء العروبة قوم هم لها أعداء، كالنصيريّين العلويّين، والدروز الموحّدين، والمصريّين الأقباط والفراعنة!!! وإسرائيل إيضًا.

رابعًا. اللغة العربيّة

أمّا المجموعة الثالثة من البراهين على معاني العروبة، فنأخذها من اللغة المسمّاة عربيّة :

١. أيّة لغة عربيّة هي؟ ما هي أصولها؟ وتفرّعاتها؟ وما هو مصدرها؟ أين نشأت؟ في مكّة؟ أم في قبيلة قريش وحدها؟ أم هي لغة القبائل النازحة من اليمن؟ أم أنّها من غربيّ الفرات؟ أم أنّها لغة أهل الجنّة أنزلت على آدم تنزيلاً؟ ثمّ على أبنائه من بعده؟ ثمّ أعيدت إلى إسماعيل بن ابراهيم بعد أن هداه اللهُ إليه؟ وهو ما يجمع عليه المسلمون كافّة؟!

٢. يصعب علينا التصديق بنشأة اللغة العربيّة منذ آدم. ويصعب علينا القول بأنّها لغة إسماعيل وأبنائه. ثمّ يصعب علينا أن نصدّق بأنّها كانت في مكّة لغة واحدة، وعليه يقول الطبري: «إنّ ألسنتهم كانت كثيرةً كثرةً يعجز عن إحصائها».(٢٢)

(١٣) راجع جرجي زيدان، ص ٤١. (١٤) ج. علي ١/١٦٧، ١٦٣. (١٥) جرجي زيدان، المرجع المذكور آنفًا، ص ٩١. (١٦) أمين صايغ، تطوّر المفهوم القوميّ عند العرب، دار الطليعة ١٩٦١. (١٧) خزعل، تاريخ الجزيرة العربيّة، ط٣، ص ٥. (١٨) حتّي، ص ٦٠. (١٩) فتوح الشام، ٢/١٨٥. (٢٠) المرجع السابق نفسه، ١/٢٠١. (٢١) لوبون، ص ٩٣. (٢٢) الطبري، تاريخ، ١/١٥. (٢٣) طبقات ٤، خصائص ٣٩٢. (٢٤) تازيخ البلاذري، ص ٤٥٦.

ويصعب علينا القول أيضًا بأنّها من أصل «يمنيّ»، وعليه يقول أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حِمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا».(٢٣)

٣. بقي أن تكون لغةُ القرآن من الشمال. وبعض المسلمين أصاب الهدف. ومعظم المستشرقين يؤكّد بأنّ القلم العربيّ القرآنيّ كان من الحِيرة والأنبار في العراق غربيّ الفرات. ودليلهم: مقارنة القلم العربيّ بالقلم الآراميّ، وكيفيّة كتابة الحروف، باتّصالها وانفصالها، وترتيبها. وشهادة البلاذري فيها «أنّ أهل مكّة تعلّموا العربيّة من موضع قريب من الحِيرة، ووضعوا الخطّ وقاسوا هجاء العربيّة على هجاء السريانيّة»(٢٤). والسيوطي يقول عن جَدّ معاوية إنّه تعلّم من أهل الحِيرة، وأهل الحِيرة من أهل الأنبار...

٤. والدليل الآخر نأخذه ممّا تبقى من نقوش أثريّة من عصور ما قبل الإسلام. هذه النقوش هي ثلاثة حتّى اليوم: واحد يُعرف بنقش النمّارة في أمّ الجمال في الحرّة الشرقيّة من جبل الدروز، من سنة ٣٢٨م. والثاني يُعرف بنصّ زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبيّ شرقيّ حلب، من سنة ٥١٢م. والثالث يعرف بنقش حَرّان في المنطقة الشماليّة من جبل الدروز، من سنة ٥٦٨م. والنصّان الأخيران وُجدا فوق باب الكنائس.

٥. وكما قال لوفنسون، أستاذ اللغات الساميّة في جامعة القاهرة: «إنّ لهجات الشمال كانت في العصور القريبة من ظهور الإسلام ذات سلطان قويّ، ونفوذ واسع؛ فكانت تبتلع اللهجاتِ الجنوبيّةَ ابتلاعًا، الواحدة تلو الأخرى، فاللهجاتُ التي أصبحت سائدة في أغلب أقاليم الجزيرة العربيّة قبيل الإسلام إنّما هي شماليّة بعد أن التهمتْ أكثرَ اللهجات الجنوبيّة وتغذّتْ بها.

«وقد أخذتِ اللهجاتُ الشماليّة، في القرون القريبة من ظهور الإسلام، تتمتّع بقوّة وعزّة واستقلال، فكانت تتدفّق في جميع نواحي الجزيرة بقوّة وفتوّة وروح يملؤه النشاط، حتّى كوّنت لنفسها أدبًا جديدًا وشعرًا فتيًّا».

٦. ثمّ إنّ هذه اللغة لم تنشأ في قريش أو مع قريش، ولو كان الأمر كذلك لما تخلّف القرآن عن ذكر نسبتها إلى قريش، ولو مرّة واحدة. بل لا نجد في القرآن سوى كلامه على «اللسان العربيّ» في عشر مرّات.

وما رُوي من أحاديث عن «لغة قريش» فليس إلاّ لأنّ قريشًا أجادت في كلامها وأفصحت حتّى أصبح فتيانُها مَثلاً في جذالة لغتهم. وهكذا روي عن عثمان بن عفّان الذي قال للّجنة التي أوكَل إليها جمْعَ القرآن قال: «إذا اختلفتم، أنتم وزَيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما أنزل بلسانهم». ورُوي عن زيد بن ثابت: «اكتبوه بلغة قريش فإنّ القرآن نزل بلغتهم». وعن ابن قتيبة: «إنّ القرآن لم ينزل إلاّ بلغة قريش». وعن ابن خلدون: «كانت لغة قريش أفصحَ اللغات العربيّة وأصرحَها».



٧. والسبب في اعتبار لسان قريش أفصح اللغات هو أنّ قريشًا، منذ عهد قُصَيّ، الجدِّ الرابعِ للنبيّ محمّد، من القرن الخامس، كانت أهمّ واسطة لإدخال اللغة العربيّة من غربيّ الفرات إلى مكّة والحجاز. والحقّ يقال إنّ قُصَيًّا الذي ساعدته قبيلة أمِّه، بنو عذرة النصرانيّة على تملّك مكّة، هو الذي «جمع» قبائل مكّة في قبيلة واحدة سمّاها من حينه «قريشًا» أي «تجمّعًا»؛ وأنّ قريشًا كانتْ، منذ عهد هاشم، وبشهادة القرآن نفسه، تقوم بالتجارة مع بلاد الشام؛ وأنّ سيّاحًا ومبشّرين مسيحيّين عديدين كانوا يؤمّون مكّة للتبشير؛ وأنّ كثيرين من سكّان مكّة الأغنياء كانوا يُرسلون أولادهم إلى الحِيرة والأنبار ليعلّموهم في مدارسها..

وفي كتاب الأغاني إنّه «كان في الحيرة معلّمون يعلّمون الأطفال القراءة والكتابة، يذهبون إلى بيوت الأطفال يعلّمونهم... وكثير من أهل مكّة كانوا يجلبون لأولادهم معلّمين من الحيرة». واشتهر أساتذة في مكّة من قبيلة بني أياد النصرانيّة، على ما يقول الطبري.

٨. نستنتج أنّ اللغة العربيّة جاءت مكّةَ بواسطة تجّار قريش، كما بواسطة المبشّرين من النصارى. واضطُرّ أهلُ قريش لتعلّمها لكي ينجحوا في تجارتهم مع بلاد الشام، موردِ رزقهم وعيشهم الوحيد. كما اضطرّ رهبانٌ من النصارى إلى تعليم أهل قريش وسكّانِ مكّة لغتَهم لكي يَفقهوا رسالتهم التي لأجلها جاؤوا مكّةَ والحجاز.

خامسًا. الإسلام الأوّل والعروبة

أمّا المجموعة الرابعة من الأدلّة فنأخذها من واقع الإسلام منذ نشأته:

١. سكّان مكّة والحجاز هم من «العرب المستعربة»، أي ليسوا من «العرب العاربة». يعني هم «أخلاط» من أجناس مختلفة ومتنوّعة؛ هم من الممالك اليمنيّة، ومن فارس، والروم، ونصارى الحبشة، وزنج السودان، وأقباط مصر! كما هم من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس وعبدة الأوثان... كلّهم «تجمّعوا» في مكّة لألف سبب وسبب، أي لأسباب دينيّة، ومعيشيّة، وتجاريّة، وثقافيّة...

٢. وقبيلة قريش، قبيلة النبيّ محمّد، هي، كما تعني لفظة «قريش»، «تجمّع»، أي تجمّع قبائل وعشائر عدّة ومختلفة، في قبيلة واحدة في أيّام قُصَيّ الذي دُعي «مُجمِّع». «وسمّيت بذلك لتقرّشها، أي تجمّعها إلى الكعبة بعد تفرّقها»[٢٥]. وقال اليعقوبي «وكان قُصي أوّل من أعزّ قريشًا... فجمعها وأسكنها مكّة»[٢٦]. وقال ابن الكلبي: «إنّما قريش جمّاع النسب ليس بأبٍ، ولا بأمٍّ، ولا حاضن، ولا حاضنة»[٢٧]. وفي ذلك قال الشاعر:

قُصَيٌّ أبوكم كان يُدعى مجمِّعًا ... به جمَع اللهُ القبائلَ مِن فَهَرِ

٣. فقبيلة قريش إذًا هي من كلِّ نوعٍ ولونٍ وعِرْق. تضمّ أناسًا مختلِفي الأعراق والإثنيّات. وللنبيّ حديث مشهور يقول فيه عن قريش وسكّان مكّة: «كذب النسّابون»[٢٨] في إيجاد نَسَب واحد لأهل قريش.

ثمّ إنّ هناك عداوةً مستحكمة بين العرب العاربة والعرب المستعربة، أي بين القحطانيّين والعدنانيّين، بين اليمنيّين والقيسيّين... وقد عمل النبيّ على التّوفيق بينهما... وليس أدلّ على عمق الخلاف ممّا جرى بعد وفاة النبيّ بين المهاجرين والأنصار، أي بين أهل مكّة وأهل المدينة. على أنّ المهاجرين هم من قريش من العرب المستعربة، والأنصار من أصل يمنيّ قحطانيّ، أي من العرب العاربة.

٥. وكم طُعن العدنانيّون بعروبتهم. وإذا كانت عروبتهم مطعونًا بها فعروبة النبيّ، وهو منهم، مطعون بها أيضًا، ومن دون شكّ. وقد يكون صمتُ القرآن عن عروبة محمّد من هذا القبيل. ففي الإحدى والعشرين مرّة، حيث ترد كلمتا «عربيّ» و«أعراب» في القرآن، لا نجد مرّة واحدة في آيةٍ واحدة، ما يشير إلى عروبته، فمن أين جاء المسلمون، إذًا، بتعبير «النبيّ العربيّ»؟! ومن أين جاءوا أيضًا بنسب الإسلام إلى العروبة؟!

٦. أضف إلى ذلك قول النبيّ في حديث شهير له. يقول فيه: «إنّ التعرّب بعد الهجرة إحدى الكبائر»، أي إنّ الرجوع إلى العروبة بعد اعتناق الإسلام كبيرة. حكمه كحكم المرتدّ، أي القتل.

٧. وأقوى سهمٍ يصوّبه الإسلام إلى صدر العروبة هو أنّ التاريخ عند المسلمين يبدأ بالهجرة، الهجرة من مكّة إلى يثرب، أي من العروبة إلى الحضارة. ولهذا كتب المسلمون تاريخَهم بدءًا بالهجرة، لا بالمولد النبويّ (سنة ٥٧٠)، ولا ببدء البعثة النبويّة (سنة ٦١٠)، ولا بوفاة النبيّ محمّد (سنة ٦٣٢)، وهي محطّات أَولى أن تكون مرجعًا لبدء التاريخ الإسلاميّ.

٨. أضف إلى ذلك أنّ العروبة لم تكن في بدء الإسلام شيئًا يُذكَر؛ بل لم تكن موجودةً أصلاً... لكنّها وُجدت عندما قوي العنصر الفارسيّ في زمن الدولة العباسيّة، عندما راح العرب والفرس يهجون بعضُهم بعضًا. فاضطُرّ المسلمون الزاحفون من الجزيرة إلى أن يجدوا لهم عرقًا ينتسبون إليه، كما وجدوا عند الفرس والعراقيّين والسوريّين واليهود أنسابًا يفتخرون بها... فراحوا «كردّة فعل» ضدّ الفارسيّة، أو الأعجميّة، يفتخرون بعروبتهم.

(٢٥) راجع سيرة ابن هشام ٨٧/١، الأرز في، تاريخ مكّة ١٠٨/١. (٢٦) تاريخ البعقوبي، ٢١٤٠/١. (٢٧) طبقات ابن سعد، ٦٦/١.
(٢٨) طبقات ابن سعد، ٥٦/١.

٩. ثمّ لو كانت فكرة العروبة عند المسلمين الأوّلين ذات أهميّة لما أدخلوا في دينهم وأدبهم كلَّ شيء من الخارج، ولما نقلوا مركزَ الخلافة من مكّة ثمّ إلى المدينة ثمّ إلى دمشق، ومنها إلى بغداد حيث الحضارة الآراميّة والفارسيّة والتركيّة تفاعلت فيها في العمق، ثمّ أخيرًا إلى اسطنبول.

١٠. أمّا قول القائلين بأنّ الأمّة العربيّة هي «خير أمّة أخرجت للناس» فهو قول يردّه القرآن نفسه، إذ ليس فيه آية واحدة من ٦٤ آية الواردة فيها لفظة «أمّة» ما يشير إلى «الأمّة العربيّة». «الأمّة» في القرآن، هي أمّة دينيّة صرفة، لا أمّة عِرقيّة، أو قوميّة، أو عصبيّة، أو سياسيّة، أو اجتماعيّة...

سادسًا. نستنتج

١. أنّ العروبة، في اسمها، ولغتها، ونشأتها، وأهلها، هي نصرانيّة من غربيّ الفرات. زحفتْ إلى مكّة والحجاز «حضارةً»، وعاشت في مكّة والحجاز «بداوة». ولمّا جاء الإسلام- كحضارة- حاربها من حيث هي «بداوة».

٢. العروبة لم تستعدْ هويّتها الحضاريّة إلاّ عندما افتتح المسلمون بلاد الشام، ورأوا حضارة المناذرة والغساسنة، كما لمسوا أنّ الشعوب التي حاربوها تفتخر بإثنيّاتها وأعراقها، فراحوا هم يوجِدون لهم هويّة يفتخرون بها، فانتسبوا إلى العروبة. ولم تَسْتَعِدِ العروبةُ ذاتها إلاّ كردّة فعْل بإزاء الشعوبيّة الفارسيّة.

٣. لم ينهض المسلمون نهضتَهم العلميّة إلاّ على أيدي المسيحيّين السريان الذين قاموا بفتْح المدارس، وبترجمة العلوم والفلسفة من اليونانيّة إلى اللغة العربيّة...

٤. وماتت العروبة طويلاً عندما استقلّ المسلمون بحكْم البلدان التي افتتحوها بالسيف والعنف. لقد ماتت العروبة أيّام الفاطميّين والأيّوبيّين والمماليك والمغول والتتر والعثمانيّين... ولم ينهض بها إلاّ المسيحيّون، وبخاصّة مسيحيّو لبنان، في أواخر القرن التاسع عشر، فأنشأوا «قوميّة عربيّة» بإزاء القوميّة العثمانيّة...

٥. ثمّ ماتت العروبة مجدَّدًا إلى أن أُنشِئت «جامعة الدول العربيّة»، والتي كان لبنان عضوًا فاعلاً في تأسيسها، والتي دعا أحد المسيحيّين إلى اعتبار «الوحدة العربيّة» خيرَ هدف يجب أن تسعى إليه...

فالعروبة، إذًا، عملٌ مسيحيٌّ تامّ. ولكن، لمّا رأى المسلمون فيها إفادة للدين الإسلاميّ، جعلوها قرآنيّة منزلة من لدن ربّ العالمين، كما جعلوها «ردّة فعْل» على كلّ شيء يأتي من الخارج، أي من أوروبّا وأميركا وأستراليا، وما إلى ذلك.

أبحاث

شعر سميح القاسم
بين الواقعيّة الاشتراكيّة والواقعيّة الجديدة

د. ناتالي الخوري غريب

د. ناتالي الخوري غريب

من الشعراء الفلسطينيّين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والمقاومة والقضيّة الفلسطينيّة.

ولد القاسم لعائلة درزيّة في مدينة الزرقاء في الأردن في ١١ أيّار العام ١٩٣٩، عندما كان يعمل والده ضابطًا هناك، وهو أصلاً من بلدة الرامة في الجليل. تعلّم في مدارس الرامة والناصرة. درّس. زاول النشاط السياسيّ في «الحزب الشيوعيّ»، وتركه متفرّغًا لعمله الأدبيّ. مرّات سُجن ووُضِعَ رهن الإقامة الجبريّة والاعتقال المنزليّ وطُرِدَ من عمله وواجَهَ تهديدات بالقتل، في الوطن وخارجه. شارك في تأسيس صحيفة «كلّ العرب» وصار رئيس تحريرها الفخريّ، إلى جانب إسهامه في تحرير «الغد» و«الاتحاد»؛ ثمّ رَئِسَ تحرير جريدة «هذا العالم» عام ١٩٦٦. ولاحقًا عاد إلى العمل مُحرّرًا أدبيًّا في «الاتحاد» وأمين عامّ تحرير «الجديد» ثمّ رئيس تحريرها. أسّسَ منشورات «عربسك» في حيفا، مع الكاتب عصام خوري سنة ١٩٧٣. وأدار فيما بعد «المؤسّسة الشعبيّة للفنون» في حيفا. وترأّس الإتحاد العامّ للكتّاب العرب والفلسطينيّين منذ تأسيسها.

له أكثر من ٨٠ كتابًا في الشعر والقصّة والمسرح والمقالة والترجمة، وقد صدَرتْ الناجزُ منها في سبعة مجلّدات، في القدس وبيروت والقاهرة. تُرجم عدد كبير من قصائده إلى الإنجليزيّة والفرنسيّة والتركيّة والروسيّة والألمانيّة واليابانيّة والإسبانيّة واليونانيّة والإيطاليّة والتشيكيّة والفيتناميّة والفارسيّة والعبريّة ولغات الأخرى.

توفّي في ١٩ آب، ٢٠١٤، بعد معاناة من مرض السرطان.


سميح القاسم

لا يمكن لنا أن نتناول أدب سميح القاسم من دون الغوص على أبعاده الفكريّة والإيديولوجيّة في سياق الشعر المقاوم، إذ يشكّل القاسم جزءًا من كلّ في سيرورة المقاومة التي رفعت الكلمة سلاحًا غير منتهي الصلاحيّة ولا يمكن أن يتآكله الصدأ في مواجهة الاحتلال الإسرائيليّ.

وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ هذا البحث سيتناول النزعة الواقعيّة الاشتراكيّة والواقعيّة الجديدة في القضايا التي تبنّاها القاسم ضمن لواء الأدب الملتزم، مهملين المناحي الفنيّة والجماليّة كونه كان أقرب إلى التقريريّة والمباشرة، وبخاصّة في الفترة التي سيتمّ تناولها، لأنّ القضيّة التي استحوذت على كيانه جعلته يعلي من شأن المضمون على القوالب التي صبّت فيها، وهذا لا ينفي الجماليّة الإيقاعيّة التي حرص عليها في شعره الموزون أو الحديث، من أجل الحماسة المطلوبة في بثّ الروح النضاليّة في الجماهير. وقد تميّز القاسم كما جميع الشعراء المقاومين في أنّهم استطاعوا أن يبسّطوا أفكار أحزابهم الإيديولوجيّة ليجعلوها في متناول الفئة الشعبويّة كي يتسنّى ضخّ أفكارهم النضاليّة على المستوى الثورويّ الذي ينهض بالأمّة بعيدًا من جفاف الفكر، فيكون القالب الشعريّ سلاحًا نضاليًّا بأيدي الشعب ويكون الشاعر بذلك قد قام بدور الحلقة التي تصل بين المستوى الفكريّ النخبويّ الذي يفبرك الأفكار النظريّة وبين عامّة الشعب الذي يجب أن تصله هذه الأفكار بأسلوب يفهمه العالم والجاهل ويحرّك فيه مكامن الثورة على الظلم وأبعادها.

ومادّة البحث ستكون المجموعات الشعريّة التي ضُمّت في ديوانه: «الديوان» الصادر عن دار العودة، بيروت، لبنان، العام ١٩٨٧. أمّا لماذا اخترنا هذا الديوان تحديدًا وفي هذا التاريخ، فلأنّ الديوان يضمّ خمسة دواوين أخرى في مراحل مختلفة، ولأنّ ما ضمّه العام ١٩٧٨، أعاد قراءاته فحذف من القصائد والعناوين الكثير، منها ما حُذف قسرًا من الرقابة الصهيونيّة، ومنها ما حذف طوعًا[١]، وستكون قراءتنا الحذفَ في هذا البحث من منظور التحوّلات من الواقعيّة الاشتراكيّة إلى الواقعيّة الجديدة، لأنّ القاسم غيّر الكثير من مبادئه وقناعاته في ما يتعلّق بالحزب الشيوعيّ الذي انتمى إليه وهذا لا يمكن أن ينتقص طبعًا من قيمة أدبه فكريًّا لأنّ الإنسان في مراحله العمريّة والنضاليّة يمرّ بالكثير من التحوّلات على صعيد المبادئ والاقتناعات وفقًا للظرفيّة التي يكتب فيها والعوامل المتضافرة محليًّا وإقليميًّا.

أوّلاً: الواقعيّة الاشتراكيّة: في شعر المقاومة الفلسطينيّة: القاسم ومحمود درويش وتوفيق زيّاد

تشابهت موضوعات الشعر الفلسطينيّ المقاوم بشكل عامّ[٢]، وتحديدًا محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زيّاد. كان للنكبة الأثر البالغ والمدى العميق في وجدان الشاعر الفلسطينيّ المقاوم. فلقد فجّرت حرب ٦٧ في الذات العربيّة والذات الفلسطينيّة تيّارات ذات إيديولوجيّات محافظة وأخرى ثوريّة. لكنّ اللافت في دواوين الشعراء الثلاثة في تلقّي النكبة كان سمة التفاؤل[٣] التي تميّز خواتيم قصائدهم، من باب وعيهم مسؤوليّة ضرورة التزامهم بحركة الثورة المحليّة. ولا شكّ في أنّ النكبة ساهمت في بلورة الاتجاه الواقعيّ في الشعر الفلسطينيّ في نهاية الخمسينات وبداية الستينات، فاتّسمت جميع كتاباتهم بالنفس اليساريّ[٤] الذي تسلّل إلى أدبهم عبر الصحف الروسيّة وتبنّي مجلّة الجديد مقتطفات منها، ومن خلال «الطريق»[٥] و«الآداب»[٦]، واطّلاعهم على مؤلّفات أدباء وشعراء يساريّين كـ: «مياكوفسكي»، «ناظم حكمت»، «لوركا»، وعلى دور الشخصيّات النضاليّة العالميّة نحو: «تشي غيفارا»، و«فيدل كاسترو»، «باتريس لومبا»، «مانلس غليزوس»، «إيفان ألكسييفيتش أكتوبر» وقد خصّه القاسم بقصيدة كاملة[٧]، المؤمنين مع الاشتراكيّين أنّ التاريخ يصنعه أوّلاً المقهورون، «فنزعة اليسار نزعة تقدّميّة متجذّرة لمكافحة العنصريّة والرجعيّة. وقد تبنّى الفكر السياسيّ اليساريّ مسألةَ العنف الثوريّ وناقشها في اقترانها بالعنف القمعيّ»[٨]. وإنّنا لنجد تأثيرات هذا الفكر في شعر درويش والقاسم وزيّاد، الذي اتّسم في الستّينات والسبعينات بالتمرّد والثورة والمقاومة والتّحدّي. فحملوا قضيّة كرامة شعب سُلبت أرضه وتشرّد في المنافي. في هذه المرحلة كانوا متأثّرين «بالواقعيّة الاشتراكيّة» ويعانون مع


محمود درويش

(١) ينظر محمّد بزراوي، **سميح القاسم، دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة**، دراسة أعدّت لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا من جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين، إشراف الدكتور عادل الأسطة، ٢٠٠٨.

(٢) **الشعر الفلسطينيّ- والعربيّ بشكل عامّ- تاريخ طبيعيّ وأدبيّ وفكريّ لمأساة الفلسطينيّين، وحياتهم المشبّعة بالقهر والعذاب**، وقد برع الشعراء الفلسطينيّون في رصد صور الإرهاب الصهيونيّ، لتصبح شهادات حيّة على مجازر العدوّ وانتهاكاته المتواصلة لشرعة حقوق الإنسان، وضربه عرض الحائط بكلّ القوانين والأعراف الدوليّة.. من الشعراء بالإضافة إلى الشاعر سميح القاسم معين بسيسو الذي قال: «واقترعوا يا شعبي/من يأخذ ثوبي بعد الصلبْ.../كأس الخلّ بيمناي /وإكليل الشوك على رأسي/ باراباس ابن السكين طليقٌ/ وابنك يا شعبي/ساقوه إلى الصلب وللرجمْ/ لن أهرب من كأس الخلِّ/وإكليل الشوكْ/ وسأنحت من عظمي مسمار صليبي / وسأمضي/أبذر قطرات دمائي في الأرضْ/ إن لم أتمزّقْ... كيف ستولد من قلبي/كيف سأولد من قلبك يا شعبي/معين بسيسو»، ديوان (المعركة)، دار الفنّ الحديث، ١٩٥٢، ص١٣٣. والشاعر يوسف الخطيب «تحدّيت أنّ شعبي يباع، وموطني يباح،/ وأن أغلي الحصى قوت أطفالي/صعاب دروبي، في الموات اجتبيتها/وفي الشوك والجلمود، والأفق العاري/ويا أيّها الجلاّد أوثقت معصمي/فمن أين يا جلاّد توثق إصراري». يوسف الخطيب، **واحة الجحيم**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٤م، ص١٦٣-١٦٨. والشاعر حنّا بو حنّا: «كيف العزاء وكيف يسلو الويلَ شعبٌ ثاكلُ/ عصفت بروحه الخطوبُ وصارعته نوازلُ/ ما زال يحملُ جرحَه في صدره ويطاولُ/ وتسير في درب الدماء على خطاهُ غوائلُ/ نبتتْ كأنياب الوحوش تنوشه وتصاولُ/ أبدًا تطوف على الرقاب معاولٌ ومناجلُ». حنّا أبو حنّا، **ديوان نداء الجراح**، دار العودة، ١٩٧٠م، ص١٢٦-١٢٧؛ هذه النماذج مستقاة من ««صور الإرهاب الإسرائيليّ في الشعر الفلسطينيّ على هذا الرابط»:
http://www.al-najaf.org/re-salah/12/06_palastine2.htm.

(٣) ويتحدّث غسّان كنفاني عن أدب المقاومة إثر الهزيمة فيقول: «إنّ أدب المقاومة أدب لا ينوح ولا يبكي، لا يستسلم ولا ييأس (...) لأنّ رؤيته لم تكن ارتجالاً عاطفيًّا، ولكن وعيًا عميقًا ومسؤولاً لأبعاد المعركة التي وجد نفسه في صميمها، ولذلك فقد تجنّب ظاهرة الانتكاسات الذاتيّة الرومنطيقيّة التي شهدها معظم الشعر العربيّ في هذه الآونة، والتي نلاحظ أنّها تشتدّ وتأخذ طابع النواح والهستيريا والتنصّل كلّما كانت تجربة الشاعر نفسه أكثر بعدًا من إدراك أبعاد التزاماته ووعيها في السابق. نقلاً عن رقيّة زيدان: **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، دار الهدى، حيفا، ط١، ٢٠٠٩.

(٤) «إنّ صعود الفكر اليساريّ تعاظم بعد نكبة عام ١٩٤٨ وبعد ظهور حركات التحرّر الوطنيّ في آسيا وأفريقيا. فبعد ثورة ٢٣ يوليو تعزّز الفكر اليساريّ لمساندة حركات التحرّر. وكان لصعود الفكر اليساريّ العالميّ، ولحركة التحرّر اليساريّة في ثورة كوبا، جميعًا تأثير بالغ المدى في انطلاقة الثورة الفلسطينيّة. حيث بدأت في مطلع الستينات تفاعلات داخل حركة القوميّين العرب، ودارت نقاشات حول الفكر اليساريّ وضرورة تبنّيه من قبل الحركات الوطنيّة الفلسطينيّة ومجموعات من قادة الطلبة الجامعيّين. كمرلنغ، باروخ، مغدال، يوئيل شموئيل، **الفلسطينيّون صيرورة شعب**، ترجمة محمّد حمزة غنايم، للتوزيع والنشر، ٢٠٠٢ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٦. وكان صعود الفكر اليساريّ في بداية الثورة الفلسطينيّة المعاصرة، في مناخ تصاعديّ في أواسط الستينات، في مناخ كانت فيه حركات التحرّر والقوى الثوريّة واليساريّة في أنحاء العالم تعيش حالة نهوض واسع وتحقيق إنجازات ملموسة، من ضمن هذه الحركات حركات التحرّر في العالم العربيّ التي شهدها في الخمسينات وبداية الستينات، حتّى وصلت إلى مرحلة الانتكاس والتراجع في حرب حزيران عام ١٩٦٧. كمرلنغ، **الفلسطينيّون صيرورة شعب**، ص٣٢٦ - ٣٢٥ وكانت هناك اتجاهات يساريّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، وفي المهاجر العربيّة جاءت امتدادًا من جهة لتيّار عصبة التحرّر الوطنيّ، التي كانت قد ورثت في مطلع الأربعينات الجسم العربيّ من الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ، ومن جهة أخرى امتدادًا لتأثيرات الأحزاب والاتجاهات الشيوعيّة اليساريّة في البلدان العربيّة المجاورة والنداء بالوحدة العربيّة من قبل عبد الناصر. مرجع نفسه ٣٢٢. نقلاً عن رقيّة زيدان، **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، ص ٢٠٠.

(٥) أنظر : **الطريق** ، العدد، ١١،١٠، العدد الخاصّ بـ«أدب المقاومة» بيروت، ١٩٦٨ .

(٦) وكان للأخيرة دور بارز في نشر نتاجهم على صفحاتها، وقد خصّصت عددًا مميّزًا لهم.

(٧) القاسم، الديوان، تحت عنوان: «**عزيزي.. إيفان ألكسييفتش أكتوبر**»، ص ٢٨١.

(٨) جيدنز، أنطوني، ب**عيدًا عن اليسار واليمين**، ترجمة شوقي جلال، مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٢ . ص ٢٧٥. نقلاً عن رقيّة زيدان.

أبناء شعبهم، مأساة التشرّد في الوطن وخارجه، وذاقوا مرارة الغربة وألم الظلم. اعتقلوا مرّات عديدة وسجنوا لمواقفهم الوطنيّة وبسبب كتاباتهم وقصائدهم وانضمّوا إلى الحزب الشيوعيّ وآمنوا بمبادئه ودافعوا عنه سنوات طوالاً[٩]. وجميعهم تركوه في مراحلهم الأخيرة. لكنّ درويش قضى عمره منفيًّا، واتّسمت صوره الشعريّة بالحنين، ودارت معانيه حول استلاب الهويّة، على عكس أشعاره الأولى في مجموعاته الشعريّة الأولى[١٠]. في حين أنّ القاسم بقي يعاني ويكتب شعر الثورة على الاحتلال، من وطنه. أمّا توفيق زيّاد فقد التزم بالثورة أيضًا مع المواجهة بجرأة وشجاعة «من منطلقين؛ أوّلهما: كونه رئيسًا لبلديّة الناصرة؛ وطبيعة عمله تجعله يواجه يوميًّا الصراعات الداخليّة اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا مع السلطة الحاكمة. وثانيهما: كونه عضوًا في البرلمان الإسرائيليّ، يحاور ويردّ على اليمين الإسرائيليّ المتطرّف»[١١]. وفي مقارنة بسيطة لقصائدهم نجد أنّ الدوافع والمنطلقات هي عينها، إنّما عاش كلّ منهم مأساته بطريقة خاصّة.

لقد ذكر القاسم، كما درويش وزيّاد، صورة الأرض والفلاّحين والعمل والعمّال. كما برزت في أشعارهم العناصر البروليتاريّة بصورة مكثّفة وغزيرة. لكنّ محمود درويش استطاع تخطّي مرحلة «الشعر النضاليّ» إلى آفاق أرحب وأوسع، بالمعنى الشعريّ والوجدانيّ، وبقي زيّاد والقاسم داخل «شرنقة القضيّة الفلسطينيّة»[١٢]. وقد نالت القصائد التي غنّاها مارسيل خليفة لدرويش (جواز السفر، ريتّا) والقاسم (منتصب القامة أمشي، سجّل أنا عربيّ) شهرة واسعة، كذلك تلك التي غنّاها أحمد قعبور لزيّاد (أناديكم.. أشدّ على أياديكم). هؤلاء هم رسّامو لوحة المقاومة الفلسطينيّة شعريًّا في مراحل مختلفة، مع تفاوت ألوان النفي والتشرّد في تجربة كلٍّ منهم.

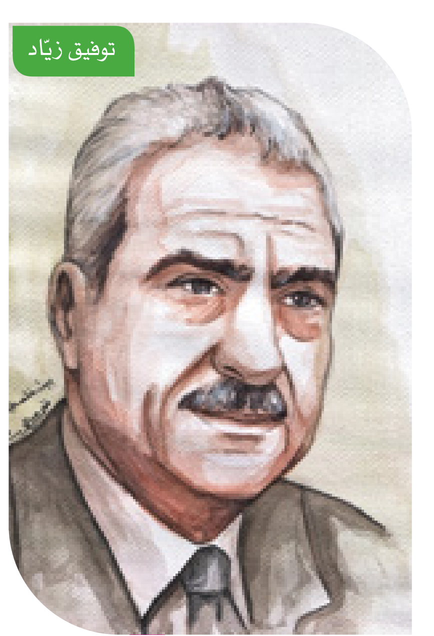
ثانيًا: القاسم بين الواقعيّة والواقعيّة الاشتراكيّة والواقعيّة الجديدة

أ. الأدب الملتزم- الواقعيّة

لا شكّ أنّ الواقعيّة وصلت إلى الفكر العربيّ متأخّرة عن زمانها الأوروبيّ، «ومتعثّرة وملتبسة في تعدّد مصادرها، ما جعلها تعطي آثارًا قليلة جعلها تنتقل سريعًا من حلم الثورة إلى انحطاط العلاقة التابع له»[١٣]. وأوضاع الاحتلال في العالم العربيّ أشعرت هذه الشعوب بالنقص، ما فرض على أهل الفكر أن يدافعوا عن حقوقهم السليبة لتجاوزَه عبر الانتقال إلى هموم المجتمع.[١٤]

ومن الأسماء التي دافعت عن الواقعيّة بثبات وروّجت لها وجابهت خصومها: رئيف خوري الذي اعتبر أنّ رأس الأشياء التي يسأل عنها القلم هو تصوير الحقيقة، «الأدب الملتزم هو الذي يستعمل إمكاناته من أجل خلق إمكانات نقل المجتمع إلى حالة أفضل» و«القلم هو مسؤول اجتماعيّ.. إنّما هو مسؤول عن تصوير الحقيقة وواقع الحال»[١٥]، وعمر فاخوري القائل بتحرير عقل الانسان والأدب بالحديث عن الناس والوجود، ومحمّد مندور في دعوته إلى أدب ملتزم بقضايا الإنسان التي ترتبط بموقفه السياسيّ أكثر من ارتباطها بوعيه الإيديولوجيّ العامّ[١٦]. من هذا الباب، نستطيع قراءة شعر القاسم: «أيّها الملدوغ من حجرين مرّات عديدة!»

أعطني إزميلك المسكوب من صلب المرارة/أعطني مطرقة..لغمًا..شرار/علّني أصنع فأسًا من قصيدة!»[١٧]، فالوعي العامّ لقدسيّة القضيّة الوطنيّة، حتّم على الشاعر أن يقدّر قيمة القلم وما من شأنه أن يعبّر عن مأساة شعبه ومرارتهم فيجعله «إزميلاً ومطرقة ولغمًا وفأسًا» بما هي أدوات تحارب المحتلّ في مُعادلها القيميّ للقلم، في قدرتها التغييريّة الثوريّة بدلالاتها اليساريّة، جاعلاً الريشة تماثل الشظيّة والحبر دمًا من دواة


توفيق زيّاد

ملأى بدم الجرحى: «جعلوا جرحي دواة، ولذا/ فأنا أكتب شعري بشظيّه/ وأغنّي للسلام!».[١٨]

لا يمكن أن يحصى الحقل المعجميّ في أدب القاسم الذي يتعلّق بجعل القلم معادلاً موضوعيًّا للسلاح والمقاومة، فلا يخلو بيت أو قصيدة لا يمكن إلاّ أن تكون في لواء الواقعيّة الاشتراكيّة[١٩] التي تشير إلى الأدب المدافع عن المشروع السياسيّ للطبقة العاملة، وإلى الفنّ الذي يجعل هذه الطبقة حاملاً لمشروع التحرّر الإنسانيّ الشامل[٢٠]، إذ تطمح هذه النزعة إلى «إزالة الفرق بين العمل اليدويّ والفكريّ»[٢١]. وانطلاقًا من هذا المبدأ، كان القاسم يؤمن بالكلمة ومفعولها في تحرير الذهنيّة الشعبويّة أوّلاً لترسم بوضوح خطوط نضالها. فالقاسم يدرك حجم الكلمة وأهميّتها في توعية الفلاّح والعامل. لذلك آمن بالنضال والثورة من قبل العمّال وقد استقى آراءه من الثورة العلميّة الاشتراكيّة لمبادئ ماركس- لينين، وبخاصّة في ما يتعلّق بالطبقة العاملة فيقول لينين: البروليتاريا تتعلّم وتتربّى في غمرة نضالها الطبقيّ، وتتحرّر من أوهام المجتمع البورجوازيّ، وتزداد تلاحمًا على الدوام وتتعلّم مدى نجاحاتها[٢٢]. وأوّل سمات الواقعيّة الاشتراكيّة هو تأكيده على الوظيفة الاجتماعيّة للأدب، وعلى دوره في تحرير الإنسان والمجتمع، ومسؤوليّته

في الدفاع عن الإنسان المضطّهد. يقول في قصيدته «كلمة السرّ»: «للحبر يا ولدي الحزين/ للحبر...هل تسمعون؟ للحبر.. رائحة ..الدم!»[٢٣]. فدعوته هنا أقرب إلى أدب يتلمّس الثورة سبيلاً إلى رفع الظلم عن الإنسان التزامًا بقضاياه العادلة، وهذا «ليس دعوة جديدة، فقد مارسها الأدب العظيم في كلّ أطواره».[٢٤]

لذلك كان صوت الشاعر أي قصائده هي التي تعبّر عن التزامه أن يكون صوت الجماهير المقهورة في عهد معهم حتّى الموت: «**أنا عاهدتُ- حتّى الموت- أطفالي وآلهتي/ ولن يحظى بمعصيتي/ رسيسٌ عن رماد البعل.. يلهث خلف مركبتي!/ يشدّ خناقه صوتي/ويعصر قلبه صوتي/ ويقتله بلا موت/شروق الشمس!/ محمولاً على أكتاف أشعاري!!/ فَدُمْ للشعب يا صوتي!/ ودُم للبعل..دُم سيفًا من النارِ!/**[٢٥]

هكذا عبّر الشاعر عن التزامه قضايا الشعب في مختلف فئاته. وهذا يظهر تطوّر الوعي الإيديولوجيّ للأدب الذي التزمه، تماهيًا مع أدب ما بعد لقاء الطبقة العاملة بالماركسيّة، الذي يتّكئ على تصوّر جديد للعالم، فنلاحظ تراجعًا في الموقف الوعظيّ- الأخلاقيّ، وفي التصوّرات الطوباويّة للواقع، ليصبح الشاعر ذا نزعة بروليتاريّة في علاقة مشخّصة «تخوض صراعًا سياسيًّا من أجل تحقيق الثورة البروليتاريّة التي تحرّر الإنسان من قيود الاستغلال والاغتراب، والتي في تحريرها للبروليتاريّ تقوم بتحرير الإنسانيّة جمعاء»[٢٦]. يقول: «**ما زالت لي.. نفسي../ وستبقى لي.. نفسي!/ وستبقى كلماتي..خبزًا وسلاحًا**..في أيدي الثوّار!!»[٢٧]. إنّ «كلّ ما كان يعرفه الأدب البروليتاريّ في بداياته هو دعوته إلى ثورة يكون العمّال قوامها، وإلى سلطة سياسيّة تكون الطبقة العاملة هي المقرّر فيها. لكنّ هذه الدعوة الإيديولوجيّة الملوّثة بآثار طوباويّة، لم تكن تملك إرثًا أدبيًّا خاصًّا بها، ولم تكن تحقّق غاياتها بسبب المسافة الفاصلة بين المثقّف الحالم والعالم المغمور ببؤس لا يسمح له بالقراءة».[٢٨]

”وعلى كتفي نعشي“

(٩) رقيّة زيدان، **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، ص ٢١٨ بتصرّف.
(١٠) مثلاً «عصافير بلا أجنحة» ١٩٦٠ التي حذفت من ديوانه، يبرز فيها الغضب الثوريّ ويزداد حدّة في مجموعته «أوراق الزيتون» ١٩٦٤ فيصوّر درويش النكبة وأثرها على الشعب الفلسطينيّ كذلك في مجموعته الشعريّة «عاشق من فلسطين» ١٩٦٦، ويصل درويش الذروة في غضبه في مجموعته الشعريّة «آخر الليل». وبعد خروج درويش من فلسطين في السبعينات تنقّل بين المدن والمطارات وعاش في المنفى وأصبح يعرف أكثر من لغة. وفي هذه المرحلة يتجسّد في معظم شعر درويش حنين إلى الأرض إلى الفردوس المفقود نقلاً عن رقيّة زيدان، ص ٢١٠.
(١١) رقيّة زيدان، **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، ص ٢٣٨.
(١٢) http://www.almodon.com/culture/167593dc-d42b-4cc9-a33b-
(١٣) فيصل درّاج، **الواقعيّة، بحث في الموسوعة الفلسفيّة**، معهد الإنماء العربيّ، ط١، ١٩٨٨، ص ١٤٧١.
(١٤) وقد مهّد لها الكواكبي والأفغاني والطهطاوي، آخذين من النماذج الأوروبيّة مثالاً لتظهر التوعية حول أهميّة الأدب ومسؤوليّته.
(١٥) فيصل درّاج، **الواقعيّة، بحث في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة**، ص ١٤٧٢.
(١٦) يقول مندور: «جماهير عديدة من الشعب التي أصبحت لا تقنع من الأدب بالمتعة الجماليّة أو بعمليّة الترويح والتنفيس عن مكبوتات النفس بل تطلب عملا إيجابيًّا وتضحية بالذات في سبيل الغير من ملايين الناس الغارقين في محن الحياة»، نقلاً عن فيصل درّاج، ص ١٤٧٤.
(١٧) سميح القاسم، الديوان، قصيدة طلب انتساب للحزب، ص ٢٧٤.
(١٨) **الديوان**، تعالي لنرسم معًا قوس قزح، ص ٤١٠.
(١٩) من الشروط التاريخيّة الموضوعيّة التي أنتجت الواقعيّة الاشتراكيّة ولادة الطبقة العاملة وتنامي دورها في المجتمع البرجوازيّ وتحوّلها إلى قوّة سياسيّة واعية لذاتها... لقد ولدت الواقعيّة الاشتراكيّة كأثر للصراع الشامل بين البرجوازيّة والطبقة العاملة. م.ن،ص ١٤٧٥.
(٢٠) فيصل درّاج، **الواقعيّة الاشتراكيّة، بحث في الموسوعة العربيّة الفلسفيّة**، ص ١٤٧٤-١٤٨٥.
(٢١) لينين، **في الثقافة والثورة الثقافيّة**، ص ٧٨. خطاب ألقاه في المؤتمر الثالث لعامّة روسيا، تشرين الثاني ١٩٢٠.
(٢٢) لينين، **في الثقافة والثورة الثقافيّة**، ص٦٩.
(٢٣) القاسم، **الديوان**، ص ٦٤٠.
(٢٤) فيصل درّاج، **الواقعيّة الاشتراكيّة**، ص ١٤٧٥.
(٢٥) القاسم، **الديوان**، على أكتاف أشعاري، ص ٥٤٧.
(٢٦) فيص درّاج، **الواقعيّة الاشتراكيّة**، ص ١٥٧٥.
(٢٧) القاسم، **الديوان**، قصيدة الديزان، أعلنها، ص ٤٨٠.
(٢٨) فيصل درّاج، **الواقعيّة الشتراكيّة**، ص ١٤٧٥.

ب. النزعة اليساريّة: الواقعيّة الاشتراكيّة

في قصيدة «طلب انتساب للحزب» يستوقفنا الإهداء: «إلى ماير فلنر... وشيوعيّين لا أعرف أسماءهم من أسيوط واللاذقيّة وفولفغراد ومرسيليا ونيويورك وغزمير، ومن جميع المدن والقرى وأكواخ الصفيح والعرائش... المتشبّثة بكوكبنا- بكرتنا الأرضيّة»؛(٢٩) لتكون الأخوّة في القضيّة الإنسانيّة هي الرابط المشترك بين القاسم وجميع من يؤمنون بمبادئ الحزب الشيوعيّ.

وفي تضاعيف القصائد نجد رمز اللون الأحمر في إشارة إلى الثورة البلشفيّة والشيوعيّين: وردة حمراء، الكوفيّة الحمراء، الراية الحمراء، التفّاحة الحمراء، كما في قصيدته «إلى ميخائيل غورباتشوف»: «**إنّ لينين يحدّجك الآن مغتبطًا/راضيًا عن رضاه /هل تراه / جبهة تتألّق عالية في سماء الجباه /لا يريد الشفاه /لا يريد الغبار /إنّه واثق من رؤاه /واثق من خطاه لم يزل حالمًا بانقلاب المدار**». لقد اعتمد القاسم الفنّ وسيلة متميّزة من وسائل المعرفة، كما جميع شعراء المقاومة «وهي وسيلة وحيدة في جنسها وليس لها مثيل، وإن كانت تنطبق عليها كلّ القوانين العامّة في نظريّة المعرفة»(٣٠)، الذين استطاعوا ربط الفنّ والثورة ليؤدّي دورًا ثوريًّا في حركة الجماهير(٣١)، مستخدمًا الكثير من الرموز الدينيّة والأسطوريّة والنضاليّة التي تجسّد البطولة بما تشكّل مخزونًا معرفيًّا في إيحاء اسم بطل أو معركة.

ثالثًا: ظاهرة الحذف في شعر القاسم

من سنّة التطوّر في الحياة التبدّلات والتغيّرات، فليس ثمّة موقف لا يمكن أن يهتزّ إذا أردنا وضعه ضمن ظرفيّته والمواقف المرافقة، وثمّة كثير من الأدباء يتنكّرون لبواكيرهم إمّا نتيجة تغيير في مواقفهم أو في رؤيتهم الفنيّة. وهذا التنكّر يترجم حذفًا للقصائد بين حذف القصيدة الكاملة والكلمة وبعض المقدّمات والإهداءات التي تضمّنتها البواكير. وهذا ما نجده في مجموعات القاسم الشعريّة التي تمّ نشرها في مراحل سابقة. وقد برزت ظاهرة الحذف في شعر القاسم حين تغيّرتْ مواقُفه السياسيّة والفكريّة متأثّرًا بما طرأ من تحوّلاتٍ جوهريةٍ في الحياةِ السياسيّة والفكريّة العربيّة والعالميّة، «إذ أقدم على حذفِ أجزاء من تراثهِ الشعريِّ حين وجد فيها ما يُناقضُ مواقَفه الجديدَة. وتعودُ معظمُ القصائدِ المحذوفةِ إلى الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وهي المرحلة التي شهدت ميلادَ الشعر المقاوم في الأرض المحتلّة»(٣٢). وحين حاول أحد طلاّب الدراسات العليا في فلسطين كتابة دراسة نقديّة حول شعره المحذوف، أبدى القاسم استياءه من الأمر رافضًا إيّاه(٣٣)، ولربّما اعتبر أنّها أخذت تناقض مواقفه الجديدة وتتنافى مع رؤيته الشعريّة المستمدّة من التنظيرات النقديّة للمعاصرة والحداثة. وهذا يعني أنّ بعض الشعر المحذوف يمثّل مرحلة من نضوج الشاعر فكريًّا وسياسيًّا وجماليًّا. «ونقرأ هذا الحذف في الإطار الذي ولدت فيه الواقعيّة الجديدة كموقف يدافع عن الإنسان الشامل أو عن الإنسان الكونيّ من دون النظر إلى موقعه الطبقيّ أو انتمائه الإيديولوجيّ، ما أسهم في تحرّر الاسم بالتخلّي عن هذا القديم الذي أسره، وكأنّ تجربة الحرب والفناء جعلا هذه الواقعيّة تعود إلى جوهر الإنسان، أكثر ممّا تركّز على طبقته، لهذا اهتمّت بالإنسان في حاضره فأقصت كلّ الأزمنة، ولم تحتفظ إلاّ بالزمن الراهن أو المعاش.. تاركة الزمن القادم للإيديولوجيا التبشيريّة وتاركة الزمن القديم للإيديولوجيا الرومانسيّة. وبدءًا من الإنسان في حاضره، مارست الواقعيّة دورها وطرحت أسئلة الحاضر والإنسان... وبسبب التزامها الإنسان الشامل، استبدلت البطل الإيجابيّ والإنسان العاديّ البسيط الذي يعيش ظلم المجتمع ويعاني قلقه الكونيّ. وبسبب التقاطها لمستجدّات الحياة، تنكّرت للمعايير الجماليّة السائدة، وسعت إلى استخلاص أدواتها ومعاييرها الفنيّة من الواقع الذي تمايزه في خصوصيّته وتمايزه(٣٤). تجلّى ردّ الواقعيّة الجديدة في أمرين: إعادة الاعتبار إلى الدور الأخلاقيّ للفنّان والكاتب، والتأكيد على اللحظة الأخلاقيّة في الأعمال الأدبيّة؛ ومن ناحية ثانية البحث عن أساليب فنيّة جديدة. «الواقعيّة الجديدة تبحث عن حلول الأسئلة الفنيّة في قالب الواقع المعاش (...). لذا كان بحثها عن الشكل لا يدور في مدارات التجريد أو في فضاء التجديد المبهم، إنّما كان يتمّ من وجهة نظر الجماهير الشعبيّة التي تعيش هذا الواقع».(٣٥)

فمعظم القصائد المحذوفة عند سميح القاسم كانت في: «أغاني الدروب» «ديوان» «الحماسة» بأجزائه الثلاثة، أي في المرحلة التي حمل فيها الشاعر لواء الثورة والمقاومة باسم أبناء شعبه، وصوّر همومهم وآمالهم وتحديهم للمشروع الصهيونيّ المتمثّل بدولة الاحتلال. فالشعر المقاوم يمثّل ظاهرة فريدة في الشعر العربيّ الحديث، لا يمكن للتغيّرات المختلفة أن تمحوه من ذاكرة الجماهير العربيّة، وإن حذف سميح القاسم ديوان «مواكب الشمس» من أعماله الكاملة ١٩٧٣، وقصائد مختلفة من الأعمال الكاملة عام ١٩٩١(٣٦)؛ وثمّة بالتالي فروق ملحوظة بين الأعمال الكاملة التي أصدرتها «دار الهدى» عام١٩٩١ وتلك التي أصدرتها «دار العودة» عام ٢٠٠٤، وهاتان الطبعتان تختلفان بدورهما عن «ديوان سميح القاسم» الذي صدر عن دار العودة ١٩٧٣(٣٧). ولن نتناول هنا ما حذف قسرًا من قبل سلطات الاحتلال لأنّها فرضت بالقوّة.(٣٨)

١. لقد حذف القاسم القصائد التي صوّرَ بها تيجان الملوك وشبّهها بحذوة الحصان التي يصنعها الأعداء. وفي هذا ما يشكّل إساءة للنظام العربيّ الرسميّ والعلاقات العربيّة «**لو هَزّنا أن يَصنعَ الأعداءُ/تاجَ ملوكِ يَعرُبَ.. من حَذوةِ الحِصَانْ/ما أصبَحَتْ حبيبتي وجهًا مِنَ الدخان/**»(٣٩). ولطالما كان حلم القاسم أن يزور الصحراء العربيّة ويتمتّع بجمالها. وبما أنّ الظروف تغيّرت كان لا بدّ له من هذا الحذف ليتسنّى له تحقيق حلمه.

٢. حذف الشاعر بعض الكلمات والعبارات خشية الاتهام بالمباشرة والنثريّة، وقد أشار إلى مثل هذه العبارات في أثناء حديثه عن قصيدة «ليلى العدنيّة».

٣. حذف الشاعر بعض المقدّمات التي صدّر بها دواوينه الشعريّة أو قصائده المختلفة .ففي ديوان «دَمِي على كفّي» حذف مقتطفات من أقوال المسيح: قد أتت الساعة ليتمجّد ابن الإنسان. الحقّ الحقّ أقول لكم إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض، وتمّت فهي تبقى وحدها، ولكن إذا ماتت فهي تأتي بثمر كثير. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ،وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم.

كما حذف القاسم أيضًا الآيات القرآنيّة التي صدّر بها ديوان «أغاني الدروب»، وتوحي بالبعث. إنّه استخدم هذه الآيات للإيحاء بأنّ هناك ثورةً وبعثًا جديدًا، سينطلق من الأنقاض وسيحاسب هؤلاء المحتلّين الغافلين عن تطلّعات أبناء شعبه وآمالهم.

٤. قد يكون العامل الإيديولوجيّ من أكثر العوامل تأثيرًا في بروز ظاهرة الحذف في شعر القاسم، إذ إنّ كثيرًا من محذوفاته يدور من حيث المضمون حول الفكر الماركسيّ، والحزب الشيوعيّ، والثورة الاشتراكيّة: «**الشرق في غده نهارٌ صاعدٌ والغربُ في غده دجىً تنهارُ/عَلمُ الشيوعيّينَ .. أيُّة خرقةٍ تبقى، غداةَ يهزُّهُ الأحرارُ؟/ عَلمُ الشيوعيّين.. خلف هديره يمشي الزمانُ، وترسم الأقدارُ/**». لقد أطلق القاسم هذه الصرخة عام ١٩٦٧ يومَ كان شيوعيًّا، ولكنّه حذفها بعد أن ترك الحزب. كذلك حذف غيرها من منطلق رؤيته الفنيّة المرتكزة إلى النظريّة الماركسيّة التي ترى «أنّ الفنان يحقّق

(٢٩) سميح القاسم، **الديوان**، طلب الانتساب للحزب، ص ٢٧١.

(٣٠) الجديد ، ياسين جعفر، **الأدب والفنّ في أفكار وممارسات لينين**، ع ١ ، ١٩٧٧ ، ص ٢٥.

(٣١) أنظر: لينين من كتاب «**خالد إلى الأبد**» دار التقدّم/ موسكو، الطبعة العربيّة ، ص ٣٦٨، نقلاً عن محمّد البزراوي، **سميح القاسم، دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة**، ص ٩.

(٣٢) محمّد البزراوي، **سميح القاسم، دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة**، ص ٩.

(٣٣) من مقدّمة المشرف علي دراسة محمّد بزراوي د. عادل القسطة إذ عبّرَ الشاعر القاسم عن رفضِه الكتابة في هذا الموضوع... على الرّغم من أنّ الشعر المدروس في المحصّلة النهائيّة هو شعره ويمثّل- أراد أم لم يرد- جزءًا من كيانه الأدبيّ بما يحويه من قيم أدبيّة وجماليّة وفكريّة وسياسيّة ومرحليّة، بل إنّه شعره الذي طالما اعتزّ به في الماضي القريب لأنّه مثّل مواقفه من الاحتلال ومن الصراع الوطنيّ والاجتماعيّ الذي قادته الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة المعاصرة، فليس بوسع الشاعر إنكار هذا الشعر أو التنكّر له بسبب اختلاف الظروف واختلاف مواقفه ووجهته الأدبيّة والفكريّة. مرجع سابق. ص ١٠.

(٣٤) فيصل درّاج، **الواقعيّة الجديدة**، ص ١٤٨٦.

(٣٥) فيصل درّاج، **الواقعيّة الجديدة**، ص ١٤٨٧.

(٣٦) وكذلك فعل محمود درويش بديوان «**عصافير بلا أجنحة**» في أعماله الكاملة، ١٩٨٣ محمّد بزراوي، **سميح القاسم، دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة**، ص ١٤.

(٣٧) لم يتضمّن الأخير أيًّا من قصائد «مواكب الشمس». وتبدو مثل هذه الفروق والاختلافات بشكل أكثر وضوحًا في طبعتي «أغاني الدروب» وكانت أولاهم قد أصدرتها شركة المكتبة الشعبيّة في الناصرة، ١٩٦٤ وفيها إشارات إلى الصفحات التي حذفها مقصّ الرقيب الصهيونيّ، كما تضمّنت أيضًا القصائد التي حذفت من الطبعة الثانية. وأمّا ثانيتهما فقد أصدرتها دار العودة في بيروت. ١٩٦٤ ولا يختلف ديوان «**ويكون أن يأتي طائر الرعد**» عن سابقه، فهناك فروق ظاهرة بين طبعة آذار ١٩٦٩ وطبعة تمّوز من العام ذاته. نقلاً عن محمّد بزراوي، ص ٢٠.

(٣٨) لقد عمدت سلطات الاحتلال منذ العام ١٩٤٨ إلى تكريس سياسة أدبيّة تتّفق ومصالحها الاستيطانيّة لاستهداف الهويّة العربيّة لأبناء الأرض المحتلّة تمهيدًا لتذويبهم في المجتمع الجديد الذي فرض عليهم بالقوّة. وقوامُ هذه السياسة الأدبيّة هو تلك المضامين المتمثّلة في الموضوعات الهابطة مضيّقة الخناق على الشعراء باعتقالهم حينًا، وبفرض الإقامة الجبريّة عليهم حينًا آخر، كما أقدمت على نفي آخرين من قراهم إلى أماكنَ بعيدة نسبيًّا مستهدفة بذلك روحَهم الوطنيّة وتوجّهاتهم القوميّة وصدقهم الأخلاقيّ في تصوير ما حلّ بشعبهم. وبخاصّة كانوا يعمدون إلى حذف المقاطع التي تتعلّق بالعودة التي يحلم بها الفلسطينيّ مع انطلاقة الثورة الفلسطينيّة المسلّحة ١٩٦٥ «والتفاف الجماهير العربيّة حولها بعد الهزيمة التي مُنيت بها الأنظمة العربيّة» للحيلولة دون تنامي الشعور بوحدة المصير الفلسطينيّ بين الداخل والخارج وإمعانًا في التجزئة والتمزّق الشعوريّ والوجوديّ الذي يحسّ به الفلسطينيّون في داخل الحصار.

(٣٩) القاسم، **من ديوان دخان البراكين**.

سعادته وأدبه بالتصاقه التامّ مع الحزب، ومع العمّال، ويرى نفسه مجرّد عامل في مجال الفنّ والأدب»، وهو الموقف الذي دعاه إلى التغنّي بالطبقة العاملة في إحدى قصائده المحذوفة حيث يقول: **فتقحّمُوا الصّعبَ العَصِيبَ تقحّمُوا/ بالرايةِ الحَمراءِ.. يا عُمّالُ!/عزمُ المطارقِ والمناجل عزمُكم/فتقدّموا. ما في الحياةِ مُحَالُ/ولتنشدْ الشعوبُ مارش المجدِ للعمّالْ/**[٤٠].. وترافق ذلك مع إعلانه موقفًا مماثلاً على مستوى التنظيرات الأدبيّة والنقديّة، من الواقعيّة الاشتراكيّة، التي ترى ضرورة التزام الشاعر بموقف فكريّ.

كتب القاسم هذه القصائد في إطار موقعه الفعليّ في الحزب الشيوعيّ، في المرحلة التي شهدت المدّ الثوريّ الشيوعيّ على الصعيد العالميّ، ومن ثمّ حذف تلك التي مجّد فيها «لينين» والشيوعيّة والثورة البلشفيّة. كان الشاعر يؤمن «أنّ الطريق الصحيح أمام حركة التحرّر العربيّ هي في ممارسة مبادئ الاشتراكيّة العلميّة»، لكنّه عبّر من ثمّ عن «خيبته من إخفاق المشروع الاشتراكيّ والمشروع القوميّ والمشروع الوطنيّ. وتمثّلت هذه التغيّرات على مستوى الشعر بمظاهر جديدة أعلنت عن نفسها متّخذة من الغموض وسيلة لتغليف عواطفه المتدفّقة، فلم يعد من مبرّر لوجود اللغة المباشرة التي لازمت الشعر الجماهيريّ؛ وكان لا بدّ من استحداث لغة جديدة تلائم همومه الذاتيّة التي تفجّرت حين تعرّضت أحلامه للتصدّع والتفكّك، إذ إنّ اللغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بوظيفة الشعر».[٤١]

وهنا لا بدّ لنا من التساؤل هل ينتقص الحذف من قيمة الشاعر كرجل لا يحافظ على ثوابته؟ أم من قيمة أعماله الشعريّة؟ فالردّ على السؤال قد يكون قاسيًا لأنّ القضيّة لم تتغيّر، فما الذي غيّره؟ هل هي الظروف المرافقة التي أدّت إلى خيبة أمله في المرحلة التي شهدت استشراء مرض «السلام غير العادل» الذي تشرّعه القوى. «إنّ ما هو مأساويّ في لحظة الولادة الرسميّة للواقعيّة الاشتراكيّة هو الخلط بين السياسة الثقافيّة والنظريّة الأدبيّة، وضياع الحدود بين الذاتيّ والموضوعيّ»[٤٢]، وهذا ما جعل الكثيرين يقعون في مصيدة... إذ لم تستطع الواقعيّة الاشتراكيّة إقامة علاقة صحيحة بين المضمون الجديد وشكله، فأجهضته في قوالب تبسيطيّة قديمة[٤٣]. لذلك نجد أنّ القاسم توجّه في كتاباته اللاحقة، بعد خيبته، إلى الواقعيّة الجديدة، لأنّها لا تتّكئ على قاعدة إيديولوجيّة سياسيّة مغلقة، وهذا ما ساعدها على إقامة توافق صحيح بين الوعي الفنّي والواقع الاجتماعيّ، وبين موضوع الفنّ والرؤية الفنيّة... فالواقعيّة الجديدة كسرت الكثير من المعايير، وأظهرت أنّ مأساة الإنسان وعظمته قائمتان في المواضيع البسيطة مثلما هما قائمتان في المواضيع الكبيرة، وبيّنت أنّ البطولة الإنسانيّة تستظهر في جوانب مجهولة مثلما تستظهر في المعارك الشهيرة، وأنّ البطولة التي لا تُرى يحقّقها مجهولون لا تغاير بطولة الجماهير إن لم تكن أكثر نبلاً وأصالة[٤٤]. لذلك قد نستطيع القول إنّ هذا التبدّل في وجدان الشاعر، كما في رؤيته إلى الأمور، ناتج عن خيبات متكرّرة عن الالتزام السياسيّ والإيديولوجيّ محليًّا وعالميًّا.

ج: أدب القاسم في مصيدة النقد، لبنانيًّا وعربيًّا

تناول العديد من النقّاد شعر القاسم ونثره[٤٥]، في العالم العربيّ وفي العالم الأبعد، وأُطلق عليه العديد من الألقاب: فلقّبه الناقد المصريّ رجاء النقّاش بـ«شاعر الغضب الثوريّ»؛ ولقبّه شوقي خميس بـ«شاعر البناء الأوركستراليّ للقصيدة»؛ والدكتور عبد الرحمن ياغي بـ«شاعر الصراع»؛ وهو الشاعر الوحيد الذي تظهر في أعماله ملامح ما بعد الحداثة في الشِّعر العربيّ، تقول الباحثة د. سلمى الخضراء الجيوسي.

وفي لبنان، كانت لقصائد القاسم أصداء إيجابيّة أيضًا، وبخاصّة بين اليساريّين الذي حضنوا القضيّة الفلسطينيّة وشعراءها: فلقّبه الناقد محمّد دكروب بـ«الشاعر العملاق»؛ والباحث إميل توما بـ«الشاعر النبوئيّ»؛ والأديب ميشال سليمان بـ«شاعر الملاحم» و«شاعر المواقف الدراميّة» و«مارد سُجنَ في قمقم»؛ والناقد حبيب صادق: «لسميح القاسم وجه له فرادة النبوّة».

في حين نجد أنّ الباحث د. جان طنّوس[٤٦]، كان له رأي مختلف معارض كليًّا لمن سبقه من النقّاد الباحثين اللبنانيّين، في كتابه «بيروت بأقلام الشعراء»[٤٧]، الذي يتضمّن بحثًا عن شعر القاسم تناول فيه بيروت، وقد عالجه من منظور التحليل النفسيّ للأدب وبخاصّة سيكولوجيّة الإنسان المقهور في ظلّ الظلم الذي ألمّ بالفلسطينيّين في بلادهم، فيجد أنّ شعر القاسم حين تناول طانيوس شاهين في قصيدته «دبكة الموت» كان أقرب إلى الشامتين «بحشد الرموز الكفاحيّة للقول إنّ بعض الأحزاب اليمينيّة خونة لا يمكن الوثوق بها»[٤٨] في نصوص «متهافتة فنيًّا... وتحويل ما يسمّى الشعر إلى موضوع تاريخيّ بحت»[٤٩]؛ وما أشار إليه الناقد طنّوس أيضًا هي العبارات المهينة التي استخدمها سميح القاسم بحقّ لبنان، حين شبّه «خليج جونية بفخذي قحبة»[٥٠] «فهي لا تمسّ فقط لبنان إنّما تمسّ العروبة في الصميم.. وكأنّ الشاعر تعوّد منطق الاجتياح والاستباحة»[٥١]، معتبرًا «أنّ لبّ الشعور الاضطهاديّ هو التفتيش عن مخطئ يحمل وزر العدوانيّة المتراكمة داخليًّا، ليصبح العدوان مشروعًا»[٥٢]. كذلك حين «اتّهم اليمينيّين بأنّهم يبيعون نساءهم في نوادي نيويورك»[٥٣]. وفي ما يتعلّق بحرب الإخوة، رأى الناقد طنّوس «أنّ الشاعر لم يكن موضوعيًّا بل منحازًا الى موقف القبيلة، ولم يكن كالمثقّف اليساريّ كريم مروّة الذي اعترف بأخطاء جسيمة وقعت فيها الحركة الوطنيّة والمنظّمات الفلسطينيّة (...) وأنّ بكاء القاسم كان أقرب إلى زجليّة اصطناع البكاء مستغلاًّ رموزًا لبنانيّة، مشوّهًا الحقائق، متعصّبًا لأقليّته الطائفيّة، متّهمًا رجال الفالانج (حزب الكتائب) بجهلهم العربيّة، وتنكّرهم للعروبة»[٥٤]. وهنا، لا بدّ لنا من القول، أنّه مهما بلغت صوابيّة القضيّة الفلسطينيّة على المستوى الإنسانيّ العامّ وليس فقط على مستوى العروبة، لا يحقّ لأحد مهما علا شأنه أدبيًّا أو سياسيًّا، أن يشتم بلدًا استضافه ودعم قضيّته، فلا يخلو بلد من الانقسامات، لكن لن يقبل اللبنانيّون- أكانوا مؤيّدين أو معارضين- بأن تُهرق كراماتهم وتستباح أعراضهم على مذابح شعر القضيّة- أيّ قضيّة- مهما سمت، فاحترام كرامات الأوطان واجب ملزم قبل أن يكون قيمة مضافة، والأجدى إهراق الحبر وتسليط سيفه على رقاب الأعداء فقط وليس في وجه من فتح أبواب مدينته لهم. ولكن قد يشفع للقاسم ربّما أنّه من حبّه الشديد لوطنه اعتبر أنّ الجميع يجب أن يعتبر وطن الشاعر أولويّة، متناسيًا أنّ لهم أوطانًا يجب أن يصونوا كراماتها.

(٤٠) رقيّة زيدان، **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، ص ٧٣.
(٤١) شربل داغر: **حوار مع سميح القاسم**، مكاشفة جارحة مع الصوت الصارخ قي بريّة العرب الفجر الأدبيّ ع شباط .
(٤٢) فيصل درّاج، **الواقعيّة الاشتراكيّة، بحث في الموسوعة العربيّة الفلسفيّة**، ص ١٤٧٧.
(٤٣) فيصل درّاج، **الواقعيّة، بحث الموسوعة العربيّة**، ص ١٤٧٤.
(٤٤) فيصل درّاج، **الواقعيّة الجديدة، بحث في الموسوعة العربيّة الفلسفيّة**، ص ١٤٨٩.
(٤٥) جاءَ في تقديم طبعة القدس لأعماله الصادرة عن دار «الهدى»، ط١، ١٩٩١؛ ثمّ عن دار «الجيل» البيروتيّة و«دار سعاد الصباح» القاهريّة: «شاعرنا الكبير سميح القاسم استحقَّ عن جدارة تامّة ما أُطلِقَ عليه مِن نعوت وألقاب وفاز به من جوائز عربيّة وعالميّة، فهو «شاعر المقاومة الفلسطينيّة» وهو «شاعر القوميّة العربيّة»».
(٤٦) جان طنّوس، أستاذ أكاديميّ وباحث متخصّص في التحليل النفسيّ للأدب. له باع طويل في هذا المجال وتتّصف كتبه بالأكاديميّة والرصانة العلميّة. ويعتبر من النقّاد الجريئين.
(٤٧) بيروت بأقلام الشعراء، صراع القمّة والهاوية، صادر حديثًا عن دار سائر المشرق، بيروت ، ٢٠١٤، حيث تناول الناقدُ بيروت في شعر أدونيس وخليل حاوي ومحمّد الماغوط ومحمّد الفيتوري وسميح القاسم ونزار قبّاني والشاعر القرويّ. والبحث بعنوان «**سميح القاسم: بيروت الخائنة**» ص ١٢٥-١٥٢.
(٤٨) جان طنّوس، **بيروت بأقلام الشعراء**، ص ١٢٩. «**لفّ لي سيجارة يا طانيوس شاهين/أنا قادم لأشمت معك/نشمت؟ لكن بمن؟/ بحجل صنين الهارب من الموت/ إلى متاريس صهيون على جبل الشيخ/ نشمت؟ لكن بمن؟/ بأوردتنا المفرقعة./ زجاجات شمبانيا في كوكتيل بنتاغوني/**» الأعمال الشعريّة الكاملة، م٢، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص ٢٢١. فحجل صنّين بحسب تحليل الناقد طنّوس في أغنية فيروز ترمز إلى الأحزاب اليمينيّة الهاربة إلى متاريس إسرائيل، وسياسة البنتاغون الأميركيّة، ص ١٢٩.
(٤٩) م.ن، ص ١٢٩.
(٥٠) :«**يدفع غضبي بقوّات إنزاله الصاعقة/ على خليج جونية المنفرج / كفخذي قحبة/ تنتظر رجال البحريّة الأميركيّة**»، **القاسم، الأعمال الشعريّة الكاملة**، م٢، ص ٢٢٢.
(٥١) جان طنّوس، **بيروت بأقلام الشعراء**، ص١٣٢. وقد ذكّر في هذا الصدد مفاخرة أحد الزعماء الفلسطينيّين مباهاته: «إنّ طريق فلسطين تمرّ بجونية»، معتبرًا أنّ هذه إهانة أخرى من الفلسطينيّين من منطق الحقد المَرضيّ الذي يمسخ الآخر ويحيله إلى شيطان أو إلى عاهرة ص ١٣٢.
(٥٢) مصطفى حجازي، «**التخلّف الاجتماعيّ. مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور**». معهد الإنماء العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٧٦، ص٧٠-٧١، نقلاً عن **بيروت بأقلام الشعراء**، ص١٣٢.
(٥٣) **بيروت بأقلامهم**، ص١٣٩. وقد جاء في ديوان القاسم: «بذقن غير حليقة/ بلا حقائب ولا نقود/يستقلّ جبران أوّل طائرة/ ويغادر موته عائدًا إلى لبنان، لأنّ الفالانج/ يسحبون سلماه الغالية من شعرها/ ليبيعوها في نوادي نيويورك الليليّة/ سميح القاسم»، **الأعمال الشعريّة**، م٢، ص ٢٢٣، ٢٢٤.
(٥٤) جان طنّوس، **بيروت بأقلامهم**، ص ١٣٧-١٣٨-١٣٩.

المصادر والمراجع

- القاسم، سميح: **الأعمال الشعريّة الكاملة**، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤
- القاسم، سميح: **ديوان سميح القاسم**، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- جيدنز، أنطوني، **بعيدًا عن اليسار واليمين**، ترجمة شوقي جلال، مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٢
- درّاج، فيصل: **الواقعيّة الاشتراكيّة**، بحث في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربيّ، ط١، ١٩٨٨.
- درّاج، فيصل: **الواقعيّة الجديدة**، بحث في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربيّ، ط١، ١٩٨٨.
- درّاج، فيصل: **الواقعيّة**، بحث في الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربيّ، ط١، ١٩٨٨.
- زيدان، رقيّة: **أثر الفكر اليساريّ في الشعر الفلسطينيّ**، دار الهدى، حيفا، ط١، ٢٠٠٩.
- طنّوس جان: **بيروت بأقلام الشعراء**، صراع القمّة والهاوية، دار سائر المشرق، بيروت، ٢٠١٤.
- محمّد بزراوي، **سميح القاسم، دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة**، دراسة أعدّت لنيل شهاد دبلوم الدراسات العليا من جامعة النجاح الوطنيّة، فلسطين، إشراف الدكتور عادل الأسطة، ٢٠٠٨.
- مصطفى حجازي، **التخلّف الاجتماعيّ. مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور**، معهد الإنماء العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٧٦.

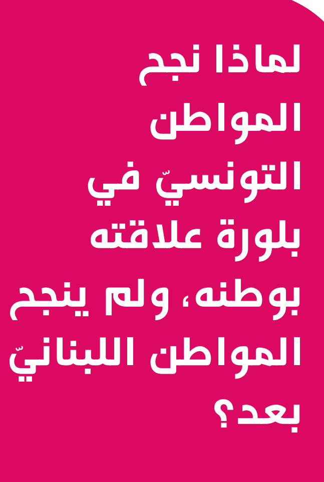
http://www.al-najaf.org/re-salah/12/06_palastine2.htm.
http://www.almodon.com/culture/167593dc-d42b-4cc9-a33b-0536aae7c8ec#sthash.IOlSDvaX.dpuf..

مقالات

هل يأتي الترياق هذه المرّة من تونس؟

عَود إلى الربيع العربيّ

د. أمين ألبرت الريحاني



ثمّة نقطة جوهريّة في الذي حدث مؤخّرًا في تونس. الحزبان المتنافسان في الانتخابات البرلمانيّة التونسيّة ربّما اختلفا على كلّ شيء إلاّ على مسألة واحدة: اللعبة الديمقراطيّة؛ فقد اتفق الحزبان، أو التيّاران الرئيسيّان في البلاد، أي حزب نداء تونس (العلمانيّ) وحزب اليقظة الإسلاميّة (الدينيّ)، على الاحتكام إلى الانتخابات النيابيّة لتحديد من هو صاحب الحقّ في الوصول إلى السلطة. يبقى الشقّ الأهمّ من القصّة، وهو أنّ الديمقراطيّة التي اتّفقا عليها قد نجحا في تطبيقها، وفق ما جاء في وسائل الإعلام التونسيّة والدوليّة، بحسب المواصفات الآتية:

١. تمّت العمليّة الانتخابيّة بشفافيّة عالية من قبل الفريقين السياسيّين.

٢. أقرّت اللجان الشعبيّة المراقِبة للعمليّة الانتخابيّة في فترة سبقت تلك العمليّة ورافقتها بسلوكيّة سياسيّة راقية قلّ نظيرها في تونس منذ الاستقلال، كما قلّ نظيرها في العالم العربيّ منذ زمن طويل.

٣. اعتمدت الدولة أحدث وسائل الفرز واحتساب الأصوات ضمن التقنيّات الجديدة المستعملة في مثل هذه المناسبات في الدول المتقدّمة.

٤. لم تشهد تلك الانتخابات أيّ مظهر من مظاهر العنف أو أسلوب من أساليب التخلّف السياسيّ، بل على العكس أثبت الفريقان قدرة متميّزة لاستيعاب اللعبة الديمقراطيّة بأرقى مظاهرها المتقدّمة.

٥. فور إعلان النتائج قام حزب النهضة الإسلاميّة بتقديم التهاني لحزب نداء تونس، وانتقل الفريقان إلى المعركة السياسيّة التالية، وهي معركة رئاسة الجمهوريّة.

نعم، هذا الكلام لم يأتِ من الدول الأكثر تقدّمًا وتحضّرًا في العالم، بل أتى من دولة عربيّة أدركت أن معضلتها السياسيّة تبدأ في الاحتكام السلميّ والسياسيّ إلى ما يريده الناس وما يقرّه الشعب، وأن ربيعها العربيّ لن يكون ربيعًا إن حاول أيٌّ من الفريقين أن يفرض نفسه بالقوّة على الآخر.

أدرك حزب نداء تونس، كما أدرك حزب النهضة الإسلاميّة، أنّ نجاح العمل الوطنيّ، أيًّا كان هدفه، لا يمكن أن يخدم الوطن، إن لم يبدأ من احترام المواطن. فاحترام المواطن هو اللبنة الأولى لنجاح أيّ عمل سياسيّ. وهذا يستوجب أخلاقيّة رفيعة المستوى في الممارسات السياسيّة الوطنيّة. وهذه الأخلاقيّة تُترجَم سلوكًا في الممارسة والتطبيق. وهذا السلوك يمارس على المستويين الفرديّ والجماعيّ، الشخصيّ والحزبيّ، الذاتيّ والعامّ، المحلّيّ والوطنيّ. هذا هو سرّ نجاح التجربة التونسيّة. فهلاّ تعلمنا منها؟

لماذا نجح المواطن التونسيّ في بلورة علاقته بوطنه، ولم ينجح المواطن اللبنانيّ بعد؟

في لبنان لا نأخذ بعين الاعتبار صَون «لبنانيّتنا» كما هي الحال في تونس.

نحن وتونس نلتقي في العديد من الخصائص المشتركة، أذكر منها:

– لبنان وتونس بلدان صغيران ينتميان إلى العالم العربيّ، ويتفاعلان معه بصيغة أو بأخرى؛ وفي مطلق الأحوال، هما يتحسّسان معنى الانتماء العربيّ كجزء لا يتجزّأ من هوّيتهما الوطنيّة.

– تونس ولبنان موطنان فَتِيّان، يعودان بجذورهما إلى تراث تاريخيّ قديم ومشترك يمتدّ حتّى الفينيقيّين، والأساطير بينهما، وتحديدًا بين صور وقرطاجة (أو قرطاج) تكفي لخلق صور رائعة من الاعتزاز الوطنيّ والتألّق الحضاريّ قديمًا وحديثًا.





– لبنان وتونس ينتميان إلى العالم الفرنكوفونيّ، وكأنّنا نتبارى بصورة أو بأخرى للإفادة من هذا الانتماء الحضاريّ الآخر، أدبًا وفنًّا وفلسفةً وتراثًا مشتركًا ننعم بمضامينه وثناياه لتوظيفه لمزيد من الخلق والابداع.

– تونس ولبنان دولتان متوسّطيّتان يعرفان معنى التفاعل الحضاريّ وتناغمه وتشابكه بين عالمين متباينين متناقضين، على غير صعيد. لكنّ لبنان وتونس يريدان، منهما والعالم الآخر على حوض المتوسّط، العالم الأوروبيّ في نظرته الحديثة إلى أهميّة التعاون بين شعوب المتوسّط.

– غنى التراث الأدبيّ المعاصر لكلّ من لبنان وتونس يؤهّل كلاًّ منهما لمثل هذا التفاهم المشترك، والتعاون المشترك الذي لا بدّ أن يؤدّي إلى نتائج إيجابيّة لخيرهما وخير سائر شعوب المنطقة ودُوَلها.

رغم ذلك، نرى نضجًا سياسيًّا يطلّ على تونس، ولا نراه في لبنان. نلاحظ تقدّمًا في السلوك السياسيّ التونسيّ، ولا نلاحظه في لبنان. نلمس احترامًا للإنسان التونسيّ، وما نزال نبحث عنه في لبنان. نكتشف قيمةً لمعنى «التونسيّة» وصيانتها في تونس، ولا نُوَفّق في العثور في لبنان على قيمة معنى «اللبنانيّة» وصيانتها. نهتدي إلى جوهر «المواطنيّة» التونسيّة في تونس، ويا للأسف لا نهتدي إلى جوهر «المواطنيّة» اللبنانيّة في لبنان.

لماذا؟ لماذا نجح المواطن التونسيّ في بلورة علاقته بوطنه، ولم ينجح المواطن اللبنانيّ بعد؟ قد نبرّر إخفاقنا بأنّ لبنان موجود في محيط يتخبّط في تقلّبات سياسيّة إقليميّة أكبر من قدرته على استيعابها. لكنّ تونس أيضًا، وربّما بِنِسَبٍ مختلفة، موجودة هي الأخرى في محيط مماثل.

خلاصة الاستنتاج أنّنا في لبنان لا نأخذ بعين الاعتبار صَون «لبنانيّتنا» كما هي الحال في تونس. ولحظة نقتنع بالاحتكام إلى رأي المواطن اللبنانيّ، وقبول نتائج هذا الاحتكام، نكون قد مشينا على طريق صَون «لبنانيّتنا» من العثرات، وإعطائها الأولويّة في مراتب الصدارات الوطنيّة التي نكون قد اتّفقنا عليها وعلى وجوب صيانتها. فهلا تعلّمنا؟ وهلاّ يأتينا الترياق من تونس من أجل إحياء ربيع لبنانيّ عربيّ تليد؟

فهلا تعلّمنا؟ وهلاّ يأتينا الترياق من تونس من أجل إحياء ربيع لبنانيّ عربيّ تليد؟

«لكم مستقبل ولكم رجاء» (إرميا)

الأب باسم الراعي

هناك مسلَّمة لا جدل في شأنها، وهي شعور المرء أو الجماعة، أيّ جماعة، بقلق وجوديّ أمام التحدّيات أو الأزمات التاريخيّة التي تتهدّد مصيره أو مصيرها. لكنّ هذه المسلمة لا تكتمل من دون التذكير بأنّ القلق الذي يرى فيه هيدغر بنية أصيلة في الإنسان، هو الدافع الأساس في تحريك تاريخ الإنسان الشخصيّ والجماعيّ. فمن دون قلق لا تطلّع نحو المستقبل، ولا وجود لفهم ولتعامل واقعيّ مع الواقع. وكأنّ القلق يقف وراء كسر الجمود، وهو مبعث الحركة والتطوّر. هذا يعني أنّ القلق يحمل في ذاته شعورًا بالمصير، وفي الوقت عينه مقاومة لهذا المصير؛ وبين هذين الحدّين تنطلق الصيرورة التاريخيّة. ولا مجال لصيرورة، لولا أنّ القلق يوجّه نحو غاية تتّصل بالحركة، والغاية لم تكن يومًا من مستوى الحاجة بل من مستوى الفضيلة أو ما شابهها، أي قيمة إضافيّة. إنّ الغاية في فهمنا الإيمانيّ لا تنفصل عن الرجاء. فالقلق الوجوديّ، مقرونًا بالرجاء، يصير قلقًا على الوجود، أي دعوة لإعتاق هذا الوجود.

هذه المسلَّمة تلاقي مسيحيّي الشرق في هذه المرحلة الموسومة بقلق وجوديٍّ. لكنّ المسيحيّين مدعوّون أن يعطوا من هذا القلق مبرّرات عن الرجاء الذي فيهم، كما يقول القدّيس بطرس (١ بط ٣، ١٥). لذا يُنتظر منهم تحويل هذا القلق إلى قلق على الوجود، يستدعي الالتزام والرجاء بعكس كلّ رجاء، التزامًا لا بمصيرهم الذاتيّ وحسب، بل بمصير المنطقة أيضًا.

هذه الدعوة لازمت التاريخ المسيحيّ في هذا الشرق منذ البداية، والمسيحيّون لم ينفكّوا يحملون مشعل الرجاء ويقدّمون الأجوبة لمن سألهم عن مبرّرات الرجاء الذي فيهم. وأجوبتهم لم تكن يومًا أجوبة محصورة بمصلحتهم الخاصّة، بل كانت أجوبة- رؤى ساعدت في بناء مستقبل المنطقة. ودرجوا على هذا المنوال منذ أن التقوا المكوّنات الأخرى لهذه المنطقة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وكوّنوا معهم نواة حضارة مشتركة، كانوا فخورين بأنّهم في أساسها.

واليوم هم مدعوّون إلى التزام جديد بمصير هذه المنطقة أو بالأحرى التزام مصيرها. لكنّ هذا الالتزام يحتاج إلى رؤية، إذ من دون رؤية لا هداية في قلب الظلمات. والرؤية تحتّم أخذ البعدين المذكورين أعلاه بعضهما مع بعض: القلق الوجوديّ والقلق على الوجود.

أقول ذلك خوفًا من توجّهين اثنين خطيرين يقف المسيحيّون أمامهما اليوم:

- توجّه يقوم على مقاربة الواقع المسيحيّ بتركيز حادّ على القلق الوجوديّ. وهو توجّه يشوبه خطر الارتهان إلى ضروب ثلاثة:

١. الضرب الأوّل: الارتهان إلى نظرة حتميّة للتاريخ، مفادها أنّ مصير المسيحيّين مقدّر سلفًا بالقياس على ما تشهده المنطقة. إنّها مقاربة إحباطيّة رغم واقعيّتها.

٢. الضرب الثاني: الارتهان إلى منطق الاحتمالات على أساس الديمغرافيا والهجرة أو الاستفادة من أوضاعٍ معيّنة لتحسين شروط البقاء.

٣. الضرب الثالث: الارتهان إلى منطق الانتظار، يجعل المتعلّقين به يلجأون إلى



إنّ الوعي التاريخيّ والتجربة التاريخيّة يحمّلان المسيحيّين اليوم مسؤوليّة تاريخيّة تمنعهم من الاستسلام للقدر التاريخيّ أو الاقتناع بوجود قدر تاريخيّ ولمنطق العدد، وتحثّهم على تجديد الثقة بذاتهم بأنّهم صنّاع تاريخٍ في الظروف الحالكة أكثر من ظروف الرخاء والاستقرار.

«ممارسة التقيّة». إنّها مقاربة ملوّثة بارتهان للواقعيّة السياسيّة أو العلمانيّة.

• وهناك في المقابل، توجّه آخر يحاول التبصّر بالقلق على الوجود، لكنّه ينتهي إلى نوع من «حال سوريالية» لا صلة له بالواقع، يتغنّى بأمجاد ماضٍ أو يعيش على مكتسبات لا تقوى أنْ تقف بوجه العاصفة.

إنّ التحذير من خطر هذين التوجّهين لا يعني رفضًا لهما، إذ فيهما بعض من تلمّس للواقع. ما يشوبهما هو إعادة تحديد للدعوة المسيحيّة. فالأزمات مناسبات لطرح سؤال عن الدعوة. هذا ما أشرنا إليه في دعوة القدّيس بطرس للمسيحيّين إلى إعطاء أجوبة عن الرجاء الذي فيهم، أي إنّ المسيحيّة لا تتفرّج على التاريخ بل تصنعه وتشارك في صنعه، إنّها تفتح أفق التاريخ على الرجاء، والرجاء لا يخيّب، كما يقول بولس الرسول. هذا معنى كلام السيّد أيضًا: «أنتم ملح الأرض وأنتم نور العالم». فهو لم يرد بقوله إظهار «تفوّقيّة مسيحيّة»، بل أراد بذلك تحريكًا نحو الالتزام. المسيحيّ شريك في «إحضار» الملكوت الذي هو ملكوت عدل وسلام.

وإذا راجعنا الخبرة المسيحيّة بشكل عامّ، على رغم التوسّلات التي عَرَفَتها والتي أشرنا إلى ضروبها سابقًا، أمكننا القول بأنّ المسيحيّين وعوا منذ الجماعة الأولى أنّهم نشأوا ضرورةً، وبالتحديد ضرورة ثقافيّة، وشهادةً لقيم، لا قيمة عدديّة. وبلوروا ذلك، لا عبر دورهم الوسيط في الحضارة وحسب، بل بحملهم لواء الإنسان، خلاص الإنسان من كلّ تبعيّة أو إقصاء أو انتقاص من كرامته. ولم يتوانوا عن حمل هذا اللواء إلى حدّ أنّهم عملوا على إرساء هذه العقيدة في دول هدفها إعلاء شأن الإنسان وصون حقوقه. فهم بذلك لم يتلقّوا التاريخ قدرًا، بل كانوا شركاء في صنعه. وهذا يعني ممّا يعنيه أنّهم لم يعيشوا تحت شبح الشعور الأقلّويّ، ولو خالجهم هذا الشعور في بعض الأوقات، لأنّهم نظروا إلى الفرد وآمنوا بقدراته ورأوا أنّ المستقبل لا يكون للكثرة بل للنظم التي تحافظ على الأكثريّات وعلى الأقليّات على السّواء، وفهموا من تاريخ هذه المنطقة أن لا وجود لأكثريّات ساحقة سرمديّة؛ حتّى الأكثريّات هي أقليّات عند مفترقات التاريخ الكبرى. لذلك إنّ التاريخ لا ينتظر من يقفون على قارعته أو من ينحنون أمامه، بل من يكتشفون حيله ويطوّعونها.

إنّ الوعي التاريخيّ والتجربة التاريخيّة يحمّلان المسيحيّين اليوم مسؤوليّة تاريخيّة تمنعهم من الاستسلام للقدر التاريخيّ أو الافتتان بوجود قدر تاريخيّ ولمنطق العدد، وتحثّهم على تجديد الثقة بذاتهم بأنّهم صنّاع تاريخ في الظروف الحالكة أكثر من ظروف الرخاء والاستقرار.

لا يتمّ ذلك من دون رؤية، لا يكفي لها أن تبنى على نظرة دهريّة بحتة. إنّها تحتاج أن يتوافر لها خيار، خيار لاهوتيّ. وإنّي أعتقد أنّ هذه الرؤية عليها أن تستمدّ جذورها من عقيدة الخلاص بأنّ: «ما لم يأخذه السيّد على ذاته لا يخلَّص» (ce qui n'est pas assumé, ne peut être sauvé).

وما كلامي في هذا المقام إلاّ في ضوء مراجعة دقيقة لما ورد في الإرشاد الرسوليّ «الكنيسة في الشرق-الأوسط شركة وشهادة» من دعوة تميّزت برؤية واضحة لدور المسيحيّين في هذه المنطقة. وجاءت نظرة الإرشاد المذكورة متمايزة بعض الشيء عن الإرشاد الرسوليّ «رجاء جديد للبنان»، الذي دعا المسيحيّين إلى الانفتاح على العالم العربيّ عن طريق «التضامن» مع هذا العالم. فقد تناول البابا بنديكتوس السادس عشر في هذا الإرشاد دور المسيحيّين في المنطقة، في ضوء العلاقة مع مجتمعات تلك المنطقة، منطلقًا من قاعدة «الشركة» لا من قاعدة الحوار. يعني ذلك أنّ الإرشاد يدعو المسيحيّين إلى «لاهوت الضيافة»، وهي كلمة محوريّة ركّز عليها البابا بنديكتس السادس عشر في زيارته إلى لبنان سنة ٢٠١٣.

ومعنى كلام البابا يشير إلى أنّ هذا العالم ليس خارجًا عن المسيحيّين حتّى يلاقوه أو ينفتحوا عليه، إنّه في بنيتهم

اللاهوتيّة الكنسية؛ ولذلك هم مدعوّون إلى تطوير لاهوت عن عالمهم يكون لاهوتًا سياقيًّا يضيء طريق الالتزام بالمدينة الأرضيّة. لاهوت لا دمج فيه بين المستويين، بل غايته ضمّ هذا العالم إلى قلب الشركة الكنسيّة، فيصير هذا العالم عالمها، أي جزءًا مكوّنًا لهويّتها من دون أن تشعر بالتغرّب، وجزءًا من حراكها. ففي الفقرة الثالثة من الإرشاد يعتبر البابا: «إذا كانت (الشركة) ملزمة بالنسبة للمسيحيّين، بدافع إيمانهم الرسوليّ المشترك، فهي أيضًا منفتحة على أشقّائنا اليهود والمسلمين، وعلى جميع الأشخاص الذين ينتمون هم أيضًا، وبطرقة مختلفة، إلى شعب الله». ويضيف: «بذلك تُحقّق الشهادة صدقيّتها». وفي الفقرة ١٩ يقول عن الحوار [أورد المقطع بالفرنسيّة أمانة للمعنى الوارد في النصّ]:

«fondé [le dialogue] sur les liens spirituels et historiques qui unissent les chrétiens aux juifs et aux musulmans. Ce dialogue, qui n'est pas d'ordre dicté par des considérations pragmatiques d'ordre politique ou social, repose avant tout sur des fondements théologiques qui interpellent la foi.»

أكتفي بهذا القدر، مع أنّ الإرشاد يتوسّع في كيفيّة استدخال هذا المنطق وجعله جزءًا مكوّنًا من حراك الكنيسة ومؤسّساتها.

إنّ هذه الدعوة، وإن كانت موجّهة إلى الكاثوليك، فهي تلتقي مع دور تاريخيّ لعبته الكنائس الشرقيّة الأخرى التي أرادت أن تكون كلمة في قلب مجتمعاتها. والمسيحيّون سلكوا هذا الخيار محافظين على تعدّدهم. ينقصهم إيضاح هذه الرؤية والاتفاق على تحديدها وتحديد نظرة وظائفيّة لكلّ كنيسة، تساعد في تجسيد هذه الرؤية كلّ واحدة بحسب تقليدها، حتّى تلتقي الروافد فيكون النهر الكبير الذي يتدفّق خيرًا على هذا الشرق.

علينا إذًا أن نجمع القلق الوجوديّ مع القلق على الوجود ليكون لنا مستقبل، ويكون لنا رجاء، ويكون لنا تاريخ نرتضي به.

إذًا، إنّ حضور المسيحيّين ومستقبل دورهم في هذه المنطقة يتجاوزان حدود الواقع إلى مستوى الالتزام وإلى تبنّي الواقع لا الهروب منه، لأنّ لهم دور وساطة عليهم أن يقوموا به في هذه المنطقة، حدّده «الإرشاد» بدور مصالحة. هذه هي الرؤية الأساسيّة في «الإرشاد». ولا يخفى أنّ «الإرشاد» ينتظر من المسيحيّين دورًا رياديًّا على صعيد الأزمة الكبرى في الشرق الأوسط، ألا وهو الصراع العربيّ-الإسرائيليّ. وهو يدعوهم إلى دور وساطة بغية مصالحة تاريخيّة بين الإثنين، وساطة منبتها لاهوتيّ بالدرجة الأولى، حتّى تأتي المصالحة مبنيّة بقوّة وتنسحب على الواقع السياسيّ. هذا يعني أنّ حضور المسيحيّين ومستقبلهم مرهون برؤية مقرونة برجاءٍ كبير، يكونون حاملي مشعله.

إنّ الرؤية المنشودة، في خلاصة القول، لن تحدّد بشكل وافٍ ولن تكون فاعلة ما لم تؤسّس على ركائز أربع: القلق الوجوديّ، والقلق على الوجود، ورجاءٍ وطيد، ونظرة إيجابيّة للتاريخ أنّه يتقدّم نحو غاية والغاية التي تشدّه من المستحيل أن تكون بعكس ما يطمح إليه الإنسان من خير وحبّ وجمال. علينا إذًا أن نجمع القلق الوجوديّ مع القلق على الوجود ليكون لنا مستقبل، ويكون لنا رجاء، ويكون لنا تاريخ نرتضي به.



مقالات

«ن»
نون النَّصارى نَجْمٌ في هلال العَرَب والإسلام

د. منيف موسى


د. منيف موسى

يأتيكَ العِلْمُ معرفةً من لَدُنِ الله. قال: «فلَيكُنْ نورٌ، فكان نور». [سِفْر التَّكوين]. ثم بَرَأَ الإنسانَ على صورتِه ومثالِه.. فجعلَ في الأرض خليفةً، نسمةَ حياة. وإليه أضافَ كلمتَهُ. والكلمةُ صار بَشَرًا [إنجيل يوحنا]. وكان الإنسانُ (في أَحْسَنِ تقويم) وعلَّمَهُ (ما لَمْ يَعْلَمْ ... علَّمَهُ البَيَان) [القرآن الكريم]. أفهمَهُ، فَتَحَ عقلَهُ وعَيْنيه وقلبَهُ والبَصيرةَ منه والحِسَّ والوجدان... وكانت الكتابةُ وكان التَّعلُّم.

يَوْمذَاك، قال الله (ن والقَلَمِ وما يَسْطُرُون) [القرآن الكريم]. حتَّى إذا تمَّ ميقاتُهُ، وبَلَغ ملْءُ الزَّمان، قال: (إنَّما المَسيْحُ عيسى ابن مريمَ رَسُولُ الله وكَلِمَتُهُ) [القرآن الكريم]. والنَّصارى مِلَّتُهُ والبِيْعة.. وأقربُهم مودَّةً للّذين آمنوا! وهُمْ في الشَّرق نَجْمُ فجرٍ من يوم هُمْ هنا، عَرَبًا لا يزالون، ومُعلِّمي العروبيَّة والعِلْم والكتابة في إرهاصات الرُّؤى والمعرفة. وإلى العقل يحتكمون. والقلبُ منهُمْ إيمانٌ وعبادةُ إلهٍ واحدٍ أَحَد. فما بالُكَ، ومن العَرَب بعضُ مَنْ عاينوا حلولَ الرُّوح القُدس في العُلِّيَّة وبعضُهُمْ سمعَ حواريِّي السَّيِّد يتكلَّمون بلغَتِهم العربيَّة [أعمال..،٢] ولمَّا عادوا إلى بلادهم نشروا ما رأوا وما سمعوا من أَمْرِ المسيحِ وتلاميذِه ... [شيخو: النَّصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة].

وإذا ضربنا صَفْحًا عن الحديث عن النّصرانيَّة في فِرَقها وكنائسِها وشيَعِها، نقول: والنَّصرانيَّة في رهابينها وقساوستها كانت ولا تزال إلى العروبيَّة نهَّاضة. ومنها تأخذ وتعطي وتَهَب. وإلَيْها تنتسبُ مشرقًا. وهي من حضارتها وآدابها وتاريخها وثقافتها حجرُ زاويةٍ، وتاجُ عمود عليه بَنَتْ مجدًا للعَرَب أثيلاً. فها الرَّاهب «بحيرا» (بحيرى) يقول لأبي طالبٍ عمِّ الرَّسول (ص) عنه: «احذر عليه يهود فوالله لئن رأوا وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّهُ شرًّا. فإنَّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسْرِع به إلى بلاده».
وينزل الرَّسول (ص) في ظلِّ شجرةٍ قريبًا من صومعة راهبٍ وهو «نسطورا» فيراه الرَّاهب هذا، فيقول: «ما نزل تحت هذه الشَّجرة قطُّ نبيٌّ»، متوسِّمًا فيه علائمَ النُّبوَّة. [السيرة النَّبويَّة، لابن هشام]. ويُروى في حديث آخر: «لم ينزل تحتها أحَدٌ بعد عيسى ابن مريم (ع) إلاَّ نبيٌّ]»، وقال فيه وَرَقة بن نوفل: «إنَّه سيكون في هذه الأُمّة (أيْ العرب) نبيٌّ». وكان وَرَقة نصرانيًّا. وهو ابن عمِّ خديجة أولى زوجات النبيِّ (ص) [السيرة النَّبويَّة] وقال لخديجة عن الرَّسول (ص) «... إنَّه لنبيٌّ هذه الأُمّة».

ثُمَّ هي الحَبَشة المسيحيَّة تأوي المسلمين الذين احتمَوا بها أوَّل ما دَعا النبيُّ (ص) إلى دين الله حيث اضطُّهد من قومه وأبناء عشيرته وقبيله. وكانت الهجرةُ الأُولى. ولمَّا مات النجاشيُّ ملكُ الحبشة النَّصرانيَّة، صلَّى عليه الرَّسول، واستغفر له، وفيه كانت الآية: (وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لمَنْ يُؤْمِنُ بالله وما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ...) [القرآن الكريم].

وعمَّت النَّصرانيَّةُ المسيحيَّة بلادَ العَرَب من أقاصيها إلى أدانيها، ومن شرقيِّها إلى غربيِّها، وعَمَرَتْ في أرجائها الأديارُ والبِيَعُ والكنائسُ والصَّوامعُ والقلاَّيات. وعلى بعض الأديار عرَّج النبيُّ (ص) في رحلاته التِّجاريّة. ومن رهابينها وطقوسهم وصلواتهم أفاد واستقى بعضَ العادات والسُّلوك. ونذكر هنا، مثلاً: «كعبة نجران» و«كعبة اليمن».

ولنا في الشِّعْر العربيِّ القديم شواهدُ على النَّصرانيَّة وما إلَيْها من عادات وتقاليد وطقوس وممارسات

ولنا في الشِّعْر العربيِّ القديم شواهدُ على النَّصرانيَّة وما إلَيْها من عادات وتقاليد وطقوس وممارسات. وكان الشُّعراء يقصدون الأديار، إذ كانت منتجعاتِ عِلْمٍ وزهدٍ وراحةٍ وتأمُّلٍ وأظلالٍ وارفة.. و...

وقد حلف بعضُ الشُّعراء بمكَّة والصَّليب. كما في قول عديِّ بن زيد العِبادي:

«سعى الأعداء لا يألون شرًّا ... عليك، وربِّ مكَّةَ والصَّليب».

[الأغاني]

وقال الأعشى:

«حلفتُ بثوبَيْ راهبِ الدَّيرِ والتي ... بناها قصَيٌّ والمضاض بن جُرْهمِ»

[شيخو: النصرانيّة وآدابها، ١١٨]

وكان للنَّصارى كتاتيبُ وندواتٌ ومجالسُ ومجامعُ في الجاهليَّة والإسلام. وكانت أديارهم مراكز عبادة وتعليم

وكان للنَّصارى كتاتيبُ وندواتٌ ومجالسُ ومجامعُ في الجاهليَّة والإسلام. وكانت أديارهم مراكز عبادة وتعليم. ولنا في ما ذكره كتاب «الأغاني» على ذلك دليل. ومنه قوله: «وكان مرقَّش» (أي الشاعر المرقّش الأكبر) يكتب، وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة وكانا أحبَّ ولدِهِ إليه، إلى نصرانيٍّ من أهل الحِيْرة فعلَّمهما الخطَّ.

والعربيَّة لغة، سَبَقتِ الإسلام. وبها أُنزل القرآن الكريم: (إنَّا أَنْزَلْناهُ قُرآنًا عربيًّا... وهذا لِسَانٌ عَربيٌّ مُبِيْن) [القرآن الكريم]. فالقرآن عربيٌّ. وليست العربيَّةُ إسلاميَّة، حتّى ولا مسيحيَّة. المسيحيَّة والإسلام رافدا العروبيَّة، ركناها، عموداها الحضاريَّان. إنَّما وقد أُنزل القرآنُ بالعربيَّة، فصارت لغةً مقدَّسة. لغة وَحْي، ومن هنا اكتسبتْ سلطانَها في الموروث العربيِّ. وبناءً على هذا تُفهم العلاقةُ بين «روح الإسلام» والنِّتاج الأدبيِّ والفكْريِّ، حتّى العِلْميِّ العربيِّ. فبات هذا السُّلطان يفرض مبادئَ تنصُّ على الشَّكل وطريقة التَّعْبير. [راجع: دراسات في الأدب العربيّ، لغوستاف ڤون غرنباوم. مترجم. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩]

اللُّغة العَرَبيَّة فرعان: لغة اليمن القحطانيَّة، ولغة الحجاز العدنانيّة. وهما مختلفتان في الأوضاع والتَّصاريف وأحوال الاشتقاق، وفيهما فروقٌ ولهجاتٌ ولغاتٌ قبليَّة، حتّى في أوجه الإعراب كان هناك اختلاف.. فلغة الجنوب أو اللغة الحِمْيَريَّة، ولغة الشَّمال أو اللغة المضريَّة، تفرّعت عنهما لهجات عربيَّة. وذهب بعض العُلَماء إلى القَوْل: إنَّ لغة الجنوب القحطانيَّة، كانت أصلاً من أصول اللغة العدنانيَّة الحجازية، ولعلّ هذا ما يُفَسِّره قول أبي عمرو بن العلاء وكان واسعَ العِلْم بكلام العرب ولغاتها وغريبها: «ما لِسانُ حِمْيَر وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيَّتُهم بعربيَّتنا». واستصفت قريش لهجاتِ العَرَب بحكم موقعها الدِّينيِّ والاقتصاديِّ. وبلغتها نزل القرآن الكريم، على سبعة أحرف (وهل الأحرف السبعة هذه، هي لهجات العرب الرئيسة؟) وصارت لغةُ قريش المُضَرَّيةُ الحجازيَّة لغةً رفيعة بحكم التمازج والاختلاط، فكانت صورتها الراقية التي نجدها في الأدب العربيِّ الجاهلي والقرآن الكريم ..

فإنَّ أوَّل أثر يُعرف بالقَلَم العربيِّ كُتِبَ السنة ١١٠ قبل الهجرة، ويعرف باسم «نَقْش زَبَد» وهو نصرانيٌّ محض

وإذا كان قد قيل الكثير عن أصول نشأة الخطِّ العربيِّ، إن كان من جذور فينيقيّة أو آراميّة- سريانيّة، أو إنّ الخطَّ الكوفيّ من أصل سريانيٍّ، أو الخطَّ العربيَّ من المسند الحِمْيَري، أو الكتابة النبطيَّة. وقد دعاها العرب «بالجزم»، فإنَّ أوَّل أثر يُعرف بالقَلَم العربيِّ كُتِبَ السنة ١١٠ قبل الهجرة، ويعرف باسم «نَقْش زَبَد» وهو نصرانيٌّ محض [راجع: أ. ولفنسون: تاريخ اللغات الساميَّة، دار القلم، بيروت]. ونورد هنا دليلاً على دور النَّصارى في الكتابة- الخطِّ، شِعْرًا لامرئ القيس:

«قـفـا نـبـكِ مـن ذكـرى حـبـيـبٍ وعِـرفانِ   ورسـمٍ عَـفَـتْ آيـاتُـه مـنـذُ أزمـانِ
أتَـتْ حِـجَـجٌ بـعـدي عليها فأصبَحتْ   كخـطِّ زَبـورٍ فـي مـصـاحـفِ رهـبـانِ».

[الديوان]

والمقصود، أنَّها ممحوَّة كخطِّ كتاب لمرور السِّنين عليها.

[والزَّبور كتاب مقدَّس عند الرُّهبان. ولعلّه «سِفْر المزامير» لداود النبيِّ. وجمعه زُبُور، والزَّبور يعني أيضًا: التَّوراة والإنجيل والقرآن، كما جاء في «لسان العرب»].

ومهما يَكُنْ من أمر، فإنَّنا نقول: كان للنَّصارى- مثلما هُمُ اليوم- حديثًا، دور في الحضارة العربيَّة ونهضتها ولغتها وكتابتها وآدابها- لِنُعَرِّجَ، بَعْدُ في الحديث، على الشِّعْر النَّصرانيِّ في آداب العرب.

لن نتناولَ، هنا، مسألةَ الشَّكِّ في الشِّعْر الجاهليِّ: إذا كان منحولاً في قليله أو كثيره، على أيدي رواة أو نَقَلَة أو محدِّثين... ذاك أنَّ القضيَّة هذه قد نالت نصيبًا كبيرًا من الدَّرس والنِّقاش عند مُستشرقين وعَرَب، من ذوي البحث والرَّأي والاجتهاد، مثل طه حسين في كتابه «في الشِّعْر الجاهليِّ». وقد ردَّ عليه غيرُ باحثٍ وأديبٍ وناقدٍ وعالم. إلاَّ أنَّه قال في كتابه هذا: «ويجب أنْ أحدِّثَكَ بَعدَ هذا عن المسيحيَّة وما كان لها من الانتشار في بلاد العَرَب قبل الإسلام، وما أحدثت من تأثير في حياة العَرَب العقليَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والأدبيَّة...» وقال: «مرآة الحياة الجاهليَّة يجب أنْ تُلْتَمس في القرآن لا في الشِّعْر الجاهليِّ». [في الشِّعْر الجاهليِّ، ط، ١٩٢٦، ص ٨ — ٩ — و١٥].

وقد جاء الإسلام. وليس في عرب الجاهليَّة مَنْ يكتب سوى نَفَرٍ قليل لا يتجاوزُ عددَ أصابع اليَدَيْن. إنَّما كانت القراءةُ والكتابة في النَّصرانيَّة، كما تُبَيِّنُ لنا ذلك المصادرُ العربيَّة القديمة ووثائقُها. ولنا في قبيلة «تغلب» الصُّورةُ المشرقة. وتغلب نصرانيَّة، أدركت مقامًا عاليًا في الجاهليَّة. فقالوا فيها: «لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكَلَتْ بنو تغلب النَّاس». ومن شُعَرائها المهلهل أخو كليب!

لا نعرف شيئًا عن أوَّليَّات الشِّعْر العربيِّ في الجاهليَّة البعيدة الضَّاربة في قِدَم التاريخ. وما وصل إلينا ممَّا قالت العَرَبُ قديمًا قليلُ الأقلِّ. قال أبو عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكُمْ ممَّا قالتِ العَرَبُ إلاَّ أقلُّه، ولو جاءكُمْ وافرًا لجاءكُمْ عِلْمٌ وشِعْرٌ كثير» [طبقات فحول الشّعراء...].

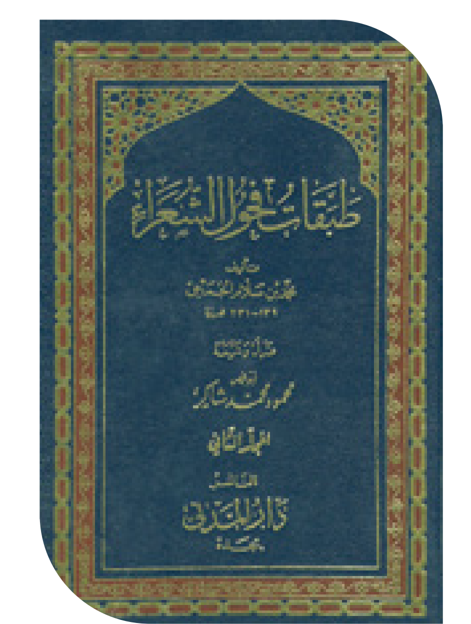
والوافر هنا هو التامُّ الذي لم ينقص منه شيء (والشِّعْر عند العرب قديمًا يعني أيضًا: العِلْم والإدراك والمعرفة) وكان، قبل، قديمًا، شفهيًّا يتناقله الحَفَظةُ والرواة. وإنَّما جُمع ودُوِّن في عهد الإسلام [كان الشِّعْر عِلْمَ قوم لم يكنْ لَهُمْ عِلْمٌ أصحَّ منه] ومع تقادم الزَّمن والمشافهة والرِّواية أصابه بعضُ التَّحريف والتَّصحيف والوضع، والنَّحْل. (والنَّحْل: وضع أشعار ونسبتها إلى غير قائلها. ونسبةُ شِعْر إلى غير قائله.)، فكانت نظريَّةُ الشَّكِّ فيه.

وفي المصادر أنَّ الشِّعْرَ في الجاهليَّة كان ديوانَ العرب ومنتهى حُكْمِهم. والشِّعْرُ الجاهليّ بما وصلَ إلينا من قصائدَ ومعلَّقات ومجمهرات، ومذهَّبات، وملحمات و... يمثّل قِمَّةَ إبداع العبقريَّة الشِّعريَّة العربيَّة الأدبيَّة الفنيَّة. أمَّا قبلَ هذا، فَلَمْ يكن لأوائل العرب من الشِّعْر إلاَّ أبياتٌ يقولُها الرَّجُل في حادثة أو حاجة... وإنَّما قُصِّدت القصائدُ وطُوِّل الشِّعْرُ على عهد عبد المطَّلب وهاشم بن عبد مناف... إلخ. كما ذكر ابن سلاَّم في «طبقات فحول الشُّعراء» ويذكر أنَّ الشِّعْر، شِعْر الجاهليَّة، كان في ربيعة، ومنها الشَّاعر المُهَلْهِل، وبعده، كان امرؤ القيس، وغيره في عصر واحد. والمهلهل هو خال امرئ القيس.

ثمّ تحوَّل [الشِّعْر] في قيس، ومنهم النَّابغة الذُّبيانيُّ.

وإذا كانت أوَّليَّاتُ الشِّعْر الجاهليِّ، المعروف، مُقطَّعاتٍ قصيرةً أو أبياتًا قليلات.. ممَّا لا يصحُّ أنْ نسمِّيَهُ «قصيدة» إذ القصيدةُ عِنْدَهُم ما زاد على السَّبعة الأبيات، فإنَّ المُهَلْهِل «كان أوَّلَ من قصَّدَ القصائدَ وقال الغزلَ وذكرَ الوقائع» وهو التَّغلبيُّ النَّصرانيّ... [طبقات فحول الشُّعراء]واسمُه عَدي بن ربيعة بن الحارث. لُقِّبَ بالمُهَلْهِل لِطِيْب شعْره ورقَّته. وهو أوَّلُ مَنْ هلهل الشِّعْرَ عند العرب أيْ أرقَّه. وكان أحَدَ من غُنِّي من العرب في شِعْره. وفيه قال الفرزدق الشَّاعرُ الإسلاميّ، وقد عدَّد جملةً كبيرةً من الشّعراء في قصيدته: «إنّ الذي سَمَك السماء...» «ومُهلهلُ الشُّعراءِ ذاك الأوَّل». مقدِّمًا إيَّاهُ على غيره..





وماذا نقول في امرئ القَيْس الذي أُطلقتْ عليه أسماءٌ وألقاب، أمثال: الغلام القتيل، والمِلك الضِّلِّيل، و«ذي القروح» والأمير الطَّريد، والغلام اللاَّهي. وقيل: إنَّه كان أشعرَ الشُّعراء وأفضلَهم. سَبَقَ العَرَبَ إلى أشياء ابتدعها فاستحسنتْها واتَّبَعَهُ عليها الشُّعراء. ومنها: استيقافُ صحبه، والبكاءُ في الدِّيار، ورقَّةُ النَّسيب، وقربُ المأخذ، وشبَّهَ النِّساءَ بالظِّباء... وشبَّه الخَيْلَ بالعِقبان والعِصيِّ. وقيَّدَ الأوابدَ، وأجادَ في التَّشبيه، وفَصَلَ بين النَّسيب والمعنى. وكان أحسنَ طبقته تشبيهًا. ولذا قيل فيه: كان أوَّلَ مَنْ وقفَ واستوقف وبكى واستبكى. فاستنَّ للشُّعراء من بعده سُنَّةً فنيَّةً وشِرعةً شِعْريَّة. فصارت للشُّعراء نهجًا وطريقة. فكان من الطَّبقة الأُولى، وقصيدتُه «يوم دارة جلجل» شهيرة، وفيه قال النبيُّ: «يجيء يومَ القيامة ومعه لواءُ الشُّعراء إلى النَّار». وهو قائد الشُّعراء إلى النَّار. وذكر الخليفة عمر، أنَّه: «سابقُ الشُّعراء، خَسَفَ لهُمْ عَيْنَ الشِّعْر».

وقد احتذى الشُّعراءُ مثالَه. ولكنْ ما اجتمعَ لأَحَدٍ منهُمْ ما اجتمعَ له في بيتٍ واحد. فقد كانَ أوَّلَ من فَتَحَ الشِّعْر. واجْتُمع على أنَّ أرقَّ بيتٍ قالتْهُ العرب، بيتُ امرئ القيس:

«ومـا ذَرَفَـتْ عَـيْـنـاكِ إلاَّ لـتـضـربـي   بِـسَـهْـمَـيْـكِ فـي أعْـشـارِ قَـلْـبٍ مُـقَـتَّـلِ»

[الديوان]

وكيفكَ والنَّابغة الذُّبيانيّ النَّصرانيّ، أشعر العرب حسب قول الخليفة عُمَر. وهو من الطَّبقة الأُولى ومقدَّمٌ على سائر الشُّعراء. ويكفيه أنَّه كان «تُضْرب له قُبَّةٌ حمراء من أَدَم بسوق عكاظ فتأتيه الشُّعراء، فتعرض عليه أشعارَها» وقيل في شِعْره إنَّه عُلْويٌّ. وكان أحسنَ الشُّعراء ديباجةَ شِعْر، وأكثرَهم رَوْنقًا، وأجزلَهُمْ بيتًا. كان شِعْرُهُ كلامًا ليس فيه تكلُّف. حتّى قال فيه عبد الملك: «النَّابغة أشعر شُعراء العَرَب». وحَسَدَهُ حسَّان بن ثابت لجزيل عطيَّته وما سمع من فضل شِعْره. «إذ كان أوضحَ الشُّعراء كلامًا، وأقلَّهم سقطًا وحشوًا، وأجودَهُمْ مقاطع، وأحسنَهُمْ مطالع، ولشِعْره ديباجة». إنْ شئتَ قُلْتَ: ليس بشِعْرٍ مؤلَّف، من تأنُّثِهِ ولينه، وإنْ شئتَ قُلْتَ: «صخرة لو رَدَيْتَ بها الجبال لأزالتها...» وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: «الأخطل يُشبَّهُ بالنَّابغة». والأخطل نفسُه قال: «أشْعر شُعراء الجاهليَّة، النَّابغة». وما قصيدتُه بـ«المتجرِّدة» زوجة النُّعمان إلاَّ من عيون الشِّعْر، وكانت سببًا في القطيعة بينه وبين النُّعمان. ومنها البيت/ القصيد:

«سَـقَـطَ النَّصيفُ ولم تُـرِدْ إسـقـاطَهُ   فـتـنـاولـتـهُ واتَّـقَـتْـنـا بـالـيَـدِ».

والنَّصيف: هو الخِمار!   [الديوان]

وآخَرُ، وليس الأخير، وهو عَديُّ بن زيد العباديُّ. (والعباديُّ يعني أنَّه يعبد اللهَ الإلهَ الواحدَ الأحد) وهو نصرانيٌّ أيضًا. كان أوَّلَ من كَتَبَ بالعربيَّة في ديوان كسرى أنو شروان. ورَغِبَ أهلُ الحِيرة إليه ورَهِبُوه. وكان أفهمَ النَّاس وأفصَحَهُمْ بالعربيَّة والفارسيَّة وأكتَبَهُمْ بهما.

وكان شاعرًا مفلقًا، قال فيه أبو عمرو بن العلاء النَّاقد اللغويُّ النَّحْويُّ: «كان عديُّ بن زيد في الشُّعراء بمنزلة سُهَيْل من النُّجوم، يعارضُها ولا يجري مجاريها» [الشِّعْر والشُّعراء، لابن قُتَيْبَة، ج١].

هي نماذجُ من نصارى العَرَب وملامح، ما قبل الإسلام، وهؤلاء النَّصارى وجماعتُهم، كان لَهُمْ أيادٍ في الحضارة العربيَّة وثقافتها وعلومها وآدابها... فكيف اليوم؟ ولن أسهب!

إنَّما أذكِّر بدور السُّريان في الآداب والترجمة والطِّبِّ والصَّيدلانيَّة وغيرها، وهم من بناة حضارة وتاريخ.

فكيفكَ، يا رعاك الله، إذا كان النَّصارى أيضًا، أهلَ لسانٍ وأدبٍ وشِعْرٍ وفلسفةٍ، وسلام؟

قُلْ: هي نون النَّصارى، إذًا، نَجْمٌ في هلال العَرَبِ والإسلام!

المصادر والمراجع

١. طبقات فحول الشُّعراء، ابن سلاَّم الجمحيّ.
٢. الشِّعْر والشُّعراء، ابن قتيبة الدِّينوريّ.
٣. كتاب الأغاني، الأصبهانيّ.
٤. دراسات المستشرقين حول صحَّة الشِّعْر الجاهليّ، ترجمة عبد الرحمن بدوي.
٥. أصول الشِّعْر العربيّ، د. س. مرجليوث، ترجمة د. يحيى الجبوري.
٦. تاريخ الأدب العربيّ، ر. بلاشير، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني.
٧. الأدب العربيّ وتاريخه، د. ج. هيوارث دن. مترجم.
٨. مصادر الشِّعْر الجاهليّ، د. ناصر الدين الأسد.
٩. الدِّيارات، الشَّابشتي. تحقيق كوركيس عوّاد.
١٠. في الشِّعْر الجاهلي، د. طه حسين، ط ١٩٢٦، والحديثة.
١١. شعراء النصرانيَّة قبل الإسلام، الأب لويس شيخو.
١٢. النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة، الأب لويس شيخو.
١٣. دراسات في الأدب العربيّ، غوستاف فون غرنباوم، ترجمة عبّاس، فريحه، نجم، يازجي.
١٤. الشُّعراء الجاهليُّون الأوائل، د. عادل الفريجات.
١٥. تاريخ اللغات الساميَّة، أ. ولفنسون.

أيّها الإله!! أتغفر لهم؟

د. يوسف عيد



حين نتحدّث عن الموجة «الداعشيّة»، لا نتطرّق إلى جماعة بعيدة عن المجتمع الإسلاميّ وتعاليمه، كما هم يدّعون، ويدعسون في الجغرافيا، ويسطّرون التاريخ الحديث «بمناقب» و«شواهد» و«أخلاق» و«دساتير»، أقلّ ما يقال فيها أنّها مستوحاة من كتاب الله، القرآن الكريم. فهل يمّت هذا، إلى الإسلام بصلة؟ ولماذا الغطاء الإسلاميّ للداعشيّة، وهل الدواعش إسلاميّون؟

قبل الدعوة الإسلاميّة في الجزيرة العربيّة، كان الجهل شائعًا في الشعوب الجاهلة الإسلام، وقد سُمّيت بالشعوب الجاهليّة. كانوا يعبدون الآلهة ومنها «الإله الأكبر»[1]. وكانت القراءة والكتابة منتشرة، والتاريخ يذكر ذلك، وإن كان انتشارها بطيئًا للغاية. لمّا جاء الإسلام في القرن السابع الميلاديّ، وأعطى للعرب دينًا جديدًا، لم يقطع كلّ صلة مع من سبقه. إنّ مراحل التاريخ تتماسّ، السابق يهيّئ اللاحق، قبل أن ينفصل عنه انفصالاً تامًّا. لقد احترم الإسلام بعض المثل العليا كالمروءة والشجاعة والضيافة والشهامة... وسما بها من حضيض العصبيّة إلى جوّ أرحب. الناس جميعًا سواء. قال محمّد في إحدى خطبه ما يلي: «أيّها الناس، إنّ الله أذهبَ عنكم نخوة الجاهليّة، وفخرها بالآباء. كلّكم لآدم، وآدم من تراب. ليس لعربيّ على أعجميّ فضل إلاّ بالتقوى». لقد أصبح للعربيّ مبادئ جديدة. أصبح له دين، رفع كثيرًا من مستواه العقليّ، وأرجع إلى الأشياء قيمتها. قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: سأل النجاشي جعفر عن حالهم، فقال جعفر: «كنّا قومًا أهل جاهليّة تعبد الأصنام، ونأكل المَيتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف. كنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصّنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، فصدّقناه وآمنّا به، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ولمّا قهرونا وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادكم».[2]

وما نفهم من حديث النجاشي، إذا نظرنا إلى الدعوة الداعشيّة الداعسيّة، أنّ هؤلاء الجماعة، قد عادوا إلى ما قبل رسول الإسلام بأعمالهم ودعواتهم، فهم يعبدون صنمًا كان الصنم الأكبر في قريش «الإله الأكبر» يأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويقطعون الرؤوس ويوئدون النساء والأطفال، ويدعسون الضعيف، ولا يكفّون عن المحارم والدماء. يقهرون ويظلمون، ويحولون بين إسلامهم وإسلام الرسول. هؤلاء الجماعة يهود بأعمالهم، بكلّ ما في الكلمة من معنى. فاليهود كانوا يعبدون الصنم الأكبر، الإله الأكبر، الذي يميّز بين شعوبه، فيختار منهم ويرذل الباقين. هم يذبحون ويقتلون ويحرّمون الدماء ويأتون الفواحش ويقطعون الأرحام ويسيئون ويزرعون المجازر من دون رادع: مدرسة في العهر والقهر والخباثة والفتنة. وأهل داعش يأتون بما يأتي به أبناء عمومتهم اليهود؛ فهل، بعد الآن، إسلام يتردّد في إنكار ما يأتي به هؤلاء من مذمّة؟ وهل ينتسبون إلى الإسلام الذي رسّخ مبادئه رسوله وقرآنه؟

حين أكمل الإسلام صورة الشرق الروحانيّ، كان يعتمد العقائد والأعمال. أهمّ هذه العقائد التوحيد والايمان بإله واحد، إله الخير. ولم يترك الله الانسان يتخبّط في ظلمات الجهل والعماء. لذا أرسل إليه الأنبياء لإقناع الناس بحياة أخرى وراء هذه الحياة الدنيا. ويوم القيامة تحدث فيه المثوبة على العمل الصالح، والعقوبة على العمل الطالح. كلّ عمل يأتيه الانسانُ يدوّن عليه، ثمّ يقوّم له يوم القيامة. لهذا كان ثمّة نوعان من الأرواح في العالم الآخر الذي هو خلف عالمنا الماديّ: أرواح خيّرة تطيع الله، وتجذب الناس إلى الخير، هي أرواح المؤمنين بالفضائل؛ وأرواح شرّيرة لا تطيع الله، تستغوي الناس إلى الشرّ، هي أرواح القتلة الظالمين. فأيّ مصير ينتظر هؤلاء القتلة! وهل يطيعون الله فيما يفعلون من مظالم؟ أرواحهم إذًا شرّيرة، هي أرواح الشياطين الذي يعبثون فسادًا في أرض الانسان، وإن كانت أعلامهم السوداء تحمل كلمة الله. ذلك كلّه في العقائد. أمّا في الأعمال فهناك في القرآن نوعان من الأخلاق: نوع يتناول آداب السلوك: وإذا حُيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها؛ ونوع يتناول أرقى ما تشير إليه الأخلاق كالوفاء، والصبر، والعدل (أحبّاء كانوا أن بُغضاء)، والعفو عند المقدرة، والعفّة السليمة.

فأين أهل داعش من هذه الأخلاق والأعمال التي يدعو إليها القرآن؟

إنّ تجاوز الداعشيّة لتلك التعاليم الإسلاميّة يُفضي بما لا يقطع الشكّ إلى أنّ هؤلاء ليسوا مسلمين، ولا يعرفون الإسلام. بل هم يهود خيبر الذين يأخذون من الإسلام دينًا باللسان، ويعملون بما عمل اليهود من خبيثة وخباثة، مع الإشارة إلى أنّ الداعشيّين كما قيل يدعون إلى هدم الكعبة الشريفة وإعادة كتابة القرآن الداعشيّ الإسلاميّ الجديد وفق تعاليم إسلاميّة خاصّة بهم.

إذا كانت دعوة الرسول محمّد قد رفعت مستوى العقل عند العرب، ورسمت مُثُلاً أعلى، فإنّ الحالة الداعشيّة أعادت الإسلام إلى انحطاط في النظر وإسفافٍ في الرأي، وأدخلت الله بسلطانه في المعارك ضدّ الانسانيّة والأخلاق والقيم.

لقد تطوّر الإسلام ونما الفكر وتحرّر واتّسع وتقدّم، وهو يماشي الحضارات المستعجلة المتطوّرة ويعترف بالآخر ويقبله على اختلافه. غير أنّ هذه الخطوات الجبّارة، قابلها تيّار متزمّت ينكر على الإسلام انفتاحه وسلامه، كما ينكر وجود الآخر المختلف. ألم يُقدم اليهود على ذلك؟ فذبحوا وقتلوا واضطهدوا ونكّلوا وأجرموا وأحرقوا؛ ومجزرة سنة ٦٢٣م. ذهب ضحيّتها ستّون ألفًا من المسيحيّين! ولا يزالون..؛ وقد غفر لهم المسيح الإله: «إغفر لهم يا أبتاه لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون». أمّا اليوم، فهل ستغفر يا يسوع لأهل الدواعش؟

على رنّات أجراس كئيبة النبرات، مبحوحة تتعالى في هدأة الليل في بلاد قرقوش، من هناك، من أرض الجراح المفتوحة، سينطلق الرنين الشجيّ الشاحب مع لهاث الشموع وضراعة الصلوات، ليشكو إليك يا يسوع ضلال أهل الأرض، وغيّ الناس الغرباء. فتلك الأرض (نينوى) التي أردتها يا يسوع مساكب محبّة يزهّر فيها الإخاء ويثمر حضارات، استحالت إلى مستنقعات من البؤس والظلاميّة ورائحة المواىق. وإنسانها ذاك الذي أردت إنسانيّته أن تسمو وتكتمل، آب إلى كهفه وخيبريّته ويهوديّته، شحذ نابه في الظلمات وراح يمزّق بظفره الكافر أنبل ما علّمت من قيم الحياة.

يا يسوع: قلت للناس أعطوني قلوبكم نقيّة... فأدبروا هازئين وأعطوها للشيطان مُضغًا حقيرة، غُمّست برحيق الإثم، وعشّشت فيها البغضاء وحقارة الأهواء.

يا يسوع: قلت لأهل قرقوش: باركوا لعينكم، فانتفض الدواعش خيلاء، وحسبوا التسامح مظهرًا من مظاهر الضعف الإنسانيّ.

بشّرتهم بالسلام، فسخر أتباع الراية السوداء من الدعوة، وأطلقوا الحيوانَ المدمّر القابع في أعماقهم. أطلقوه هائجًا ينشر في أرض الرافدَين هول الدمار ورعب الحديد وقهقهة المدافع وعهر السلاسل والاستبداد.

كرهت يا ابن البتول عنجهيّة المختارين، فثرت على عبوديّة الطبقيّة ومن احتمى في ظلّها، وسحقت بقدميك العاريتين تعالي الأرباب وأشباههم وأنصاف الآلهة، ومرّغت في التراب الحقير أنوف الصناديد المتألّهة؛ وعلى الرّغم من كلّ ذلك غفرت لهم!

هل تغفر لهم اليوم يا ناصريّ؟ هؤلاء اليهودشيّون العميان قد سملت أبصارَهم الأنانيّات؛ فما أبصروا إكليل الشوك بفيض أنوار السماء، كلّ أنوارها عليك، ولم يلمحوا ذلك الألم الإلهيّ المشعّ في عينيك، الألم المطهّر الذي أرغم جبروت الطواغيت على السجود تحت قدميك.

أتغفر لهم أيّها المسيح؟ فإنّ إنجيلك إنجيل الرحمة لم يدخل قلوبهم، لذاك عاشوا في وعي الزمن كما تعيش الآلة بلا إيمان. هم يفقدون طمأنينة النفس، يختبئون بالقرآن الكريم وباسم الإسلام، وهم يهودُ خيبر قد استيقظوا في العالم كلّه، فنسَوا، وهم العطاش، أنّ ينابيع الأمان والخلاص تتدفّق ثرّةً من سماحة كفّيك وطهارة راحتيك.

إذا كانت دعوة الرسول محمّد قد رفعت مستوى العقل عند العرب، ورسمت مُثُلاً أعلى، فإنّ الحالة الداعشيّة أعادت الإسلام إلى انحطاط في النظر وإسفافٍ في الرأي...

على رنّات أجراس كئيبة النبرات، مبحوحة تتعالى في هدأة الليل في بلاد قرقوش، من هناك، من أرض الجراح المفتوحة، سينطلق الرنين الشجيّ الشاحب مع لهاث الشموع وضراعة الصلوات، ليشكو إليك يا يسوع ضلال أهل الأرض، وغيّ الناس الغرباء.

(١) جواد علي، تاريخ الحضارة العربيّ قبل الإسلام.
(٢) سيرة ابن هشام.



يا يسوع: سرب من الحمائم البيض عجفت منها المناقير، وذوى في صمتها الهديل، احتمت في ظلّ صليبك. لفّت الجناح بالجناح وشبكت المنقر بالمنقر، وراحت في هذا الليل المشرقيّ الداهم الظالم ترقب بسمة الصباح لتنطلق إلى الهياكل التي ستطهّرها نجواك. إلى الروابي التي تعلو الفرات، إلى أرض العرق، إلى كلّ بقعة تتفجّر فيها نبعة إيمان.

ميثاقنا صليب وهلال، جُعلا على الزمان كسيف واحد. الغاضبون عليه لا ينظرون إليه إلاّ بعيونهم المظلمة وقلوبهم الحاقدة.

لو تأمّلوه برفق لوجدوا فيه أحكم تأليف وأجمل تثقيف. هيهاتِ من مشرقٍ تغرّبَ، وغربٍ تشرّقَ، فامّحت الروحانيّة التي كان الشرق يتغنّى بفضائلها. هذه الوحدة بين الهلال والصليب تدعو المسلمين والمسيحيّين إلى وقفة واحدة في وجه أهل الشيطان الدواعش الطارئين الهدّامين للهيكل الروحانيّ الأمين. هذا عراقٌ سِفرٌ على الأرض، خطّه الله بمسيحيّيه ومسلميه، فحواه أنّ بقاءه حيّ في ناموس فنائهم. فلينتظروا كيف ينتهون، وكيف يعود العراق إلى الحياة مع كلّ شمس.

أجل، لينتظروا معتبرين. فالمسيح لن يغفر لهم لأنّهم يدرون ماذا يفعلون.



إحراقُ كتُب الموارنة: مهمّةٌ رسوليّة أم جريمة سياسيّة؟

أنطوان إفرام سلامه[١]



أنطوان إفرام سلامه

أُسوَةً بسائرِ الشّعوبِ والجماعات الاثنيّة والعرقيّة والدينيّة، عرفَ الموارنةُ في تاريخهم الطويل حقباتٍ متعدِّدة، توزّعت بينَ الازدهارِ والانفتاح، والاضطهادِ والانحطاط. ففي النّصف الثّاني من القرن السّادس عشر، أَضرمَ قاصدٌ رسوليّ ومبعوثٌ بابويّ النّيرانَ في كتب الموارنة ومخطوطاتهم الليتورجيّة، ماحيًا لاهوتًا يرقى إلى مارون «الكاهن والنّاسك»، ويوحنّا مارون «الحبر»، وإلى مدارسِ أنطاكيا والرّها، وإيليج وميفوق...

الكرسيّ المُقدّس والموارنة



مار مارون أبو وشفيع الكنيسة المارونيّة

يَتمحورُ نشاطُ الكرسيّ الرسوليّ منذ النّشأة، في رعاية «خراف المسيح» المنتشرةِ في أطرافِ المسكونة، عملاً بقولِ السيِّد المسيح لأمير الرّسل بطرس: «إرعَ نعاجي» (يوحنّا ١٥/٢١-١٧)، ويتلخّصُ هذا العمل في إيفادِ بعثاتٍ بابويّة إلى بلدٍ مُحدَّد أو أُمَّةٍ مُعيّنة للوقوفِ على شؤونها الرّوحيّة والزّمنيّة، ورفعِ التّقارير اللازمة إلى الحبر الأعظم، بُغية الكشف والمُساعدة. والعلاقةُ بينَ روما والكنيسة المارونيّة قديمة، تشهدُ عليها الرِّسالة الموجّهة سنة ٥١٧، من «رؤساء الأديار والرُّهبان الآخرون في سوريا الثانيّة» إلى البابا هورميسْداس يُعلِمونهُ بالمذابح التي ارتكبها البطريرك المُونوفيزيّ[٢] ساويروس الأنطاكيّ[٣]. ومع حقبات الاضطهاد البيزنطيّ والفتح الإسلاميّ، تُطمَسُ هذه العلاقة، حاجبةً معها كلّ أثرٍ موثوقٍ يشهدُ عليها أو ينفيها، لحينِ مجيءِ الصّليبيِّين أو الفرنج، حيثُ تبلغُ أوجَها في الرسائل المُتبادلة وحركة الزّائرين الرسوليّين والموفدين البابويّين، وزيارات البطاركة المُنتخَبين إلى «المدينة الخالدة» أو موفديهم بُغية الخضوع والتماس درع التثبيت أو «الباليوم» (Palliom)[٤]. وتستَمِرُّ هذه القُربى في زمن الاحتلال المملوكيّ والعثمانيّ، مُتجلّيةً بحضورِ العديدِ من القُصّاد لمجامعَ مارونيّةٍ أثّرت في تدبير شؤون الطّائفة. ومع الوقت تنظّمت الإرساليّات البابويّة من موقّتة إلى مفوّضيّة رسوليّة دائمة، فإلى قَصادة رسوليّة، ثمَّ رُفِعَت بعدَ استقلال البلاد إلى درجة «سفارة رسوليّة»[٥]. وكانَ مُمَثّلو الكرسيّ الرسوليّ رهبانًا من حرّاس الأراضي المقدّسة الفرنسيسكان أو من اليسوعيّين، لغاية القرن التّاسع عشر، حيثُ لم يعد يُوفِدُ الكرسيُّ الرسوليّ إلاّ الأساقفة.[٦]



القصَادَةُ الأولى للأب إليانو



باليوم

غداةَ وفاة البطريرك موسى العكّاريّ سنة ١٥٦٧، أُلزِمَ الحبيس ميخائيل الرزّيّ الجلوس بطريركًا على كرسيّ أنطاكيا لتدبير شؤون الكنيسة المارونيّة، لكنَّ الظروفَ الأمنيّة والاقتصاديّة النّاتجة من احتلال العثمانيّين للبلاد وحصارهم لجزيرة قبرص، أَخّرَت وصول موفَدي البطريرك إلى روما لالتماس البركة ودرع التثبيت، كما المشاكل الداخليّة، ومنها اتِّهامُ البطريرك باليعقوبيّة[٧]، لأنَّ أصله من قريّة بقوفا التي تبعَ أغلبُ سكّانها اليعقوبيّة[٨]. ومع جلاء الأمور وكشف الحقيقة من قِبَل مُوفَدي البابا، رقّى البطريرك ميخائيل إلى الدرجة الأسقفيّة سنة ١٥٧٧ القسّ جرجس البسلوقيتي، وأرسله إلى روما مع الخوري إقليموس الإهدنانيّ لأجل طلب البركة ودرع التثبيت ورئاسة الكرسيّ الأنطاكيّ، وأرسلَ معهما بعضَ المكاتيب إلى الكاردينال كارفا (Carva) المسؤول عن الكنيسة المارونيّة.[٩]

ومع وصول الموفدين إلى روما، قابلا البابا غريغوريوس الثّالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥)

الذي سلّمهما مكتوب بركة وتثبيت إلى البطريرك(١٠)، يحُثُّهُ فيه على احتمال المشقّات والثّبات في الايمان، وعدم إضافة «اصطلبت حلُفَين» على التقديسات الثلاثة(١١)، وضرورة تجديد الميرون وتقديسه في كلّ عام، كما تثبيت رؤساء الكهنة في رعاياهم، وعدم مناولة الأطفال قبل بلوغم السّبع سنوات، ومنع تحليل الزّيجات إلاّ فوق الأربعة أقانيم(١٢). وليختبرَ أكثر عن أمانة وسلوك الموارنة، أرسلَ إلى لبنان مع الوفد البطريركيّ، راهبين من الرّهبانيّة اليسوعيّة هُما الأب جوان باطيشتا إليانو(Jean Baptiste Eliano) وتوما بْرون (Thomas Bron) ، وأرسلَ معهما أواني كنسيّة لتقديس الأسرار.(١٣)

أواسطَ شهر حزيران سنة ١٥٧٨، وصل الوفد البابويّ إلى مرفأ طرابلس، وسبقهما المطران البسلوقيتي والخوري الأهدنيّ إلى قنّوبين لإعلام البطريرك بالحفاوة التي لقياها في روما وتسليمه الهدايا الثمينة من البابا ومن الكاردينال كارفا(١٤). وبعدَ أنْ ارتاحا مدّة في طرابلس، صَعدَ الوفد المكوّن من الأب إليانو والأب بْرون ومُساعدهما الأخ ماريو أماتو (Mario Amato) إلى قنّوبين، وسلّموا الرّسائل إلى البطريرك الذي انشرح صدره عند اطّلاعه على مضامين الخطوط الحبريّة والبراءة البابويّة، وصرخَ عندَ سماعها قائلاً: «ليحيَ الحبر الأعظم الذي يُخيّلُ إليَّ أنّي أراه وأسمع صوته من خلال هذه البراءة»(١٥). ثُمَّ أبدى رغبةً صريحة في تنفيذ جميع الأوامر الرّسوليّة، مُظهرًا للأبوين الزّائرين كلّ دلائل العطف والإكرام والمحبّة.(١٦)

بعد استئذان البطريرك، انصرفَ القاصدان الرسوليّان إلى الفحص عن أحوال الموارنة وإيمانهم وكتبهم وطقوسهم، فوجدا بعد اثني عشر يومًا من العمل أنَّ هذه المهمّة بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت، وقرّرا زيارة الأراضي المقدّسة التي أمضيا شهرًا فيها، وعادا إلى لبنان بصحبةِ شمّاسٍ مارونيّ، تعرَّفَ عليه الأب إليانو في القدس، ليستعين به في أعماله، كونه يُتقِنُ السّريانيّة والعربيّة والايطاليّة(١٧). في الطريق، درسَ القاصدان إمكانيّة فتح مدرسة إكليريكيّة في طرابلس، لكنّهما فضّلا روما خوفًا من ظلم الحكّام والأوضاع السّائدة(١٨). ثمّ ترك الأب إليانو رفيقيه في طرابلس، ليهتمّ الأب بْرون بشؤون التّجار الإفرنج الرّوحيّة، واستصحب معه الشمّاس المارونيّ المذكور إلى قنّوبين(١٩)، حيثُ شرع بالتدقيق في كتب الموارنة وعاداتهم، لتمكّنه من اللغة العربيّة وقراءة الخطّ الكرشونيّ، ممّا أفرحَ البطريرك الذي كتب بدوره رسالة إلى الأساقفة ورؤساء الأديار ليستقبلوا الأب إليانو بإكرام ويُطلعوه على ما يجب، كما أرسلَ معه أخاه المطران سركيس الرزّيّ والقسّ جرجس يونان للمُرافقة(٢٠). استمرّ الأب إليانو في جولته حوالى سنة كاملة، مُتفقِّدًا الأديار والكنائس، وفاحِصًا الكتب الليتورجيّة، حيثُ صحَّحَ بعضًا منها وأحرقَ بعضَها الآخر في السّاحات العامّة بحجّة احتوائها على الهرطقة(٢١)، كما صنعَ لنفسه ثلاثة دفاتر يكتب في الأوّل ما يراه من أخطاء، وفي الثّاني ما تَلزم استشارةُ البابا فيه، وفي الثّالث ما يلزم الكهنة والشّعب التنبيه إلى حفظه(٢٢). وفي أوقات فراغه، عرَّبَ الأب إليانو رتبة الميرون، وقوانين المجمع التريدنتينيّ، والتّعليم الصّغير، وكتاب الاعتراف والمناولة، وحاولَ التّوفيق بين السيِّد البطريرك وبعض الأساقفة والرّهبان، وفكَّرَ في عقدِ مجمع ملّيّ لإصلاح شؤون الكنيسة المارونيّة وأنظمتها(٢٣). لكن، بسبب تفشّي الطّاعون في سواحلِ الشّام(٢٤) ، وبطلبٍ من الرئيس العامّ للرهبانيّة اليسوعيّة، غادر المُرسلان مع الأخ المُساعد إلى روما في ٢٥ شباط سنة ١٥٧٩، وأرسلَ البطريرك معهم عريضة إلى البابا ورسالة إلى الكاردينال كارفا، كما أرسل معهم شابّين هُما جبرائيل الأدنيتي وكسبر القبرصيّ ليقتبسا العلوم في روما.(٢٥)

القصادَةُ الثّانية

فورَ وصوله إلى روما، عرضَ الأب إليانو تقريره على قداسة البابا، مُخبِرًا إيّاه عن تعلُّق الموارنة بالكرسيّ الرسوليّ والتزامهم بالايمان، وعن انتشار بعض العقائد غير الممدوحة بينهم بسبب مُخالطتهم للأمم الغريبة...(٢٦). وشرعَ يُعِدُّ لجولته الثانية، بتحضير كتب التعليم المسيحيّ، ورتبة القدّاس اللاتينيّ، وكتب روحيّة أُخرى، كما سلّمه الكاردينال كارفا عددًا وافرًا من كؤوس القدّاس والحلل البيعيّة والأواني الكنسيّة(٢٧)، وأرسل البابا معه للبطريرك درع التثبيت ورسالة(٢٨)، يُشدِّدُ فيها على حذف عبارة «يا من صُلِبتَ لأجلنا» على التّقدّيسات الثلاثة، وعلى ضرورة تجديد الميرون وتكريسه كلّ عام يوم خميس الأسرار، وعلى حصر سرّ التثبيت بالأسقف، وعدم مناولة الأطفال، وعدم تحليل الزّيجات إلاّ فوق الأربعة أقانيم.(٢٩)

استمرّ الأب إليانو في جولته حوالى سنة كاملة، مُتفقّدًا الأديار والكنائس، وفاحِصًا الكتب الليتورجيّة، حيث صحّحَ بعضًا منها وأحرقَ بعضَها الآخر في السّاحات العامّة بحجّة احتوائها على الهرطقة

بعدَ زيارةٍ تفقّديّة سريعة لجزيرة قبرص وموارنتها، وصل الأب إليانو مع رفيقه الجديد الأب يوحنّا بْرونو (Jean Bruno) والأخ المُساعد إلى مرفأ طرابلس في ٢٩ حزيران سنة ١٥٨٠، بعد تبلّغهم خبر انقطاع الاصابات بمرض الطّاعون في مصر ولبنان وسوريا(٣٠). وقد ساعدهم في المرفأ، وجيهٌ مارونيّ يُدعى الشيخ يوسف حبيش، الذي سهّل أمورهم، وأبعد عنهم عمّال الدّيوان من يهود وأتراك وغيرهم الذين تهافتوا على الأمتعة للتّفتيش، ولم يُفقَدُ منها إلاّ كأسٌ مُذهَّبةً أخذها أحد الأتراك(٣١). وكان الأب إليانو قد أرسلَ ساعيًا إلى البطريرك لابلاغه خبر قدوم البعثة، فأوفد غبطته المطران جرجس البسلوقيتي مع أحد الرّهبان إلى طرابلس لاستقبال الوفد ومرافقته إلى قنّوبين. وفي الطريق استقبله الأهالي بالتهليل للحبر الأعظم، كما ذكرَ الأب إليانو في رسالة إلى رؤسائه(٣٢)؛ ووصل الوفد إلى قنّوبين يوم الثلاثاء ٩ تمّوز ١٥٨٠، وتمّ تعيين يوم الخميس ٢١ تمّوز موعدًا لإجتماع الإكليروس وأعيان الطّائفة(٣٣). وفي اليوم المذكور، دخلَ الأب إليانو مع مساعده إلى غرفة البطريرك حيثُ اجتمعَ بعض رجال الدّين وأعيان الطّائفة، وشرحَ لهم أسباب البعثة وخلاصة رسالة قداسته إلى البطريرك، وسلّمهم كميّة من البلسم لتحضير الميرون مع الآنية اللازمة لحفظه وحفظ الزّيت المُقدّس، وكميّة من الكؤوس والحلل الكهنوتيّة وقوالبِ البرشان وألف مسبحة ورديّة(٣٤). وفي ١٥ آب ١٥٨٠ يوم عيد انتقال مريم العذراء، أُلبِسَ البطريرك درع التثبيت في احتفالٍ مهيب أُقيمَ في كنيسة الكرسيّ البطريركيّ في قنّوبين(٣٥). أمّا بشان صحّة المجمع المنعقد سنة ١٥٨٠، فالبعض اعتبره مجمعًا رسميًّا في الكنيسة المارونيّة والبعض الآخر نفاه مُعتبِرًا إيّاه مُجرّد اجتماع، إذ لا صلاحيّة مُعطاة حينها للأب إليانو لعقد مجمعٍ، كما غابَ عنه الكثير من الأساقفة، ورفض آخرون توقيع المُقرّرات، وعلى رأسهم شقيق البطريرك المطران سركيس الرزّي.(٣٦)

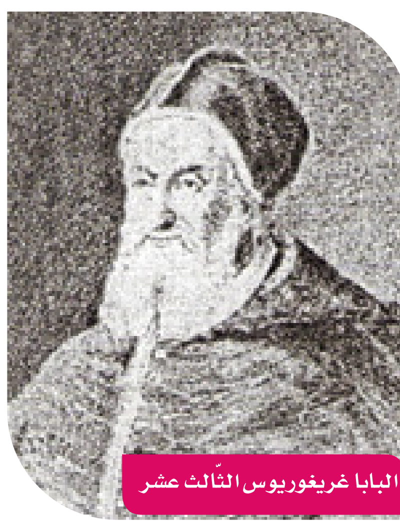
تابعَ بعدها الأب إليانو زيارته للقرى المارونيّة، فاحِصًا الكتب، حارقًا الكثير منها خصوصًا تلك التي يراها غير منسجمة مع التعاليم الكاثوليكيّة، ومُشجِّعًا الكهنة على تعليم الأولاد وفتح المدارس الخاصّة مجّانًا، وقد استمرَّ في زيارته نحو سنة(٣٧). وفي ٢١ أيلول ١٥٨١ توفّي البطريرك ميخائيل الرزّي، ووصفه الدّويهي بأنّهُ كانَ فصيح القلم، حسن الخطّ، ليّن العريكة، كثير المبرّات... وفي عهده فُحِصَت عقائد الكنيسة المارونيّة ورتبها، على يد جيرونيموس من فوساتوس ورديان القدس، وجوان باطيشتا إليانو اليسوعيّ، «وانشهر الصدق من الكذب»(٣٨). وفي اليوم التّاسع بعد وفاة البطريرك الرزّي، اجتمعَ الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان وانتخبوا المطران سركيس الرزّي (شقيق البطريرك المتوفّى) بطريركًا بحضرة قاصدَي البابا جوان باطيشتا اليانو ورفيقه جون بْرون(٣٩). وحاول الأب إليانو إقناع رؤساء الكنيسة المارونيّة بضرورةِ إصلاح تقويمهم السنويّ طبقًا لقواعد التقويم الغربيّ الجديد الذي قرّره البابا غريغوريوس الثّالث عشر، وذلكَ بناءً على طلبٍ من الكاردينال كارفا، لكنّ البطريرك لم يوافق خوفًا من إثارة نيران الاضطهاد، فيدّعي خصوم الموارنة عليهم بأنّهم تبعوا الإفرنج، وتآمروا على الدولة العثمانيّة، ولم يدخل هذا التقويم الغربيّ إلى لبنان إلاّ في سنة ١٦٠٦(٤٠)؛ وفي سنة ١٥٨٢، غادرَ الأب إليانو ورفقاؤه نهائيًّا لبنان.(٤١)

فوضى واندثار

تمّت القصادة الاليانيّة، مُخلِّفَةً السّاحة المارونيّة في بلبلةٍ وفوضى. البطريرك والأساقفة امتعضوا. طُلاّب المدرسة المارونيّة اليافعون في روما احتجّوا بعد وصول الخبر إليهم. الكتب والمخطوطات الأصليّة أُتلِفَت بِرمّتها. البابا إقليمنضوس الثّامن اضطربَ، فأرسلَ موفدًا يسوعيًّا آخر هوَ الأب إيرونيموس الدندينيّ ليُحقِّق من جديد في إيمان الجبليّين وعاداتهم، ولتسليمِ بطريركهم نسخَ كتاب القدّاس المطبوع حديثًا(٤٢). أمّا القاصد الجديد، فأعاد فحص ما تبقّى من الكتب لينفي الأخطاء التي نسبها الأب



مار يوحنّا مارون



البابا غريغوريوس الثّالث عشر

نعم! ثمّةَ مخطوطاتٌ ليتورجيّة قديمة جدًا أُتلِفَت، وجعلت كتابة التّاريخ الصّحيح للطّقس المارونيّ وتدوين مراحل تطوّره معقّدة وشبه مُستحيلة


المدرسة الرومانيّة

أعمال الأب إليانو شوّهت قصادته وحرمته الذكر الطيّب لدى الموارنة

إليانو إلى الموارنة(٤٣)؛ والبطريرك الدّويهيّ ردَّ على المزاعم في كتابٍ دفاعيٍّ خاصّ «الاحتجاج»(٤٤)، وكلّ المُفكّرين والباحثين ماضيًا وحاضرًا نفوا تلك التُّهم المنسوبة، واعتبروا أنَّ الأب إليانو قد تجاوزَ الحدود التي رسمتها تعليمات الكاردينالين كارفا وسِرفيني، فجابَ الكنائس المارونيّة في لبنان وحلب، وحرقَ كلَّ الكتب التي بدت متَّهمةً بالهرطقة(٤٥)، كما اشترى، أحيانًا، بالمال الكتب من الذينَ يقتنونها، وحرقها أمام أعينهم، واعدًا بأن يُرسل لهم كُتُبًا أُخرى مطبوعة.(٤٦)

أعمال الأب إليانو شوّهت قصادته وحرمته الذكر الطيِّب لدى الموارنة؛ فنسب البعض سوء عمله إلى أصوله اليهوديّة قبلَ ارتداده إلى المسيحيّة(٤٧)، وسلّم بعضهم أنَّ الأب إليانو تعلّم حرق الكتب من أخيه الذي أحرق كتب التلمود في روما(٤٨)... لتبقى قصادته في جدليّةٍ، فهل هيَ مهمّةٌ رسوليّة أم جريمةٌ سياسيّة؟

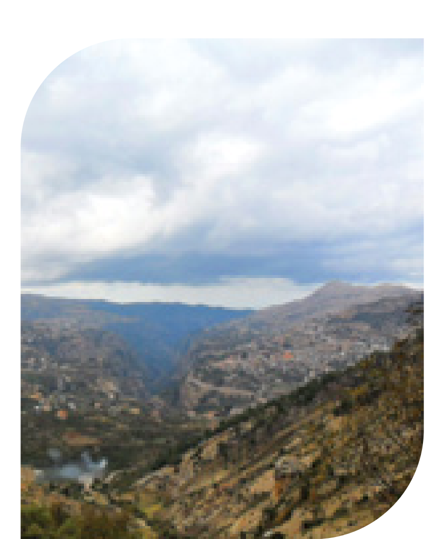
لا ننفي عن قصادة الأب إليانو الروح الايمانيّة والغيرة الرسوليّة لإخوةٍ بالمسيح، كما لا ننفي عنها الصبغة السياسيّة، إذ نستطيع تحديد المهمّة الاليانيّة انطلاقًا من أعمال اجتماع أو مجمع ١٥٨٠ الحاوية لمجموعةٍ من القرارات الهادفة إلى ليتنة(٤٩) الطقس المارونيّ وإلى إفقاده خصائصه التقليديّة، كمنح العماد في اليوم السّابع بعد الولادة لا في تمام الأربعين؛ ومنح الأسقف أو البطريرك، لا الكاهن العاديّ، التّثبيت بين عمر ثماني أو عشر سنوات؛ وصنع الميرون المُقدّس من الزّيت والبلسم فقط؛ وإرجاء مناولة الأطفال إلى ما بعد سنّ الرّشد...(٥٠). فلو كانَ القاصدُ إليانو أو غيره، فالمنحى سيكون نفسه، لأنَّ الموفَد الثّاني، الدنديني، حصل على مُبتغى إليانو بلطفٍ ومحبّة، ليتّضح أنّنا كنّا ضحيّة صدامٍ مزدوج، حضاريّ وثقافيّ، صدام العلاقات بين الشّرق والغرب، حتّى ضمن أبناء العقيدة الواحدة والكنيسة الجامعة، فدفعنا ثمن هويّتنا المارونيّة بلاهوتها وليتورجيّاتها وتراثاتها العتيقة المُتأصّلة في روحانيّة الكنيسة الأورشليميّة والكنيسة الأنطاكيّة السريانيّة.

كنيسة روما حيث خليفة القدّيس بطرس، ما انفكّت مهمّتها عبر العصور، السّهر على «القطيع الصّغير وسط الذئاب» وحماية «الوردة بين الأشواك»، وتثبيت هذه الحفنة من الرّجال «الأمناء الذين رفضوا أن ينحنوا قُدّام آلهة الأوثان (البعل)»(٥١)...

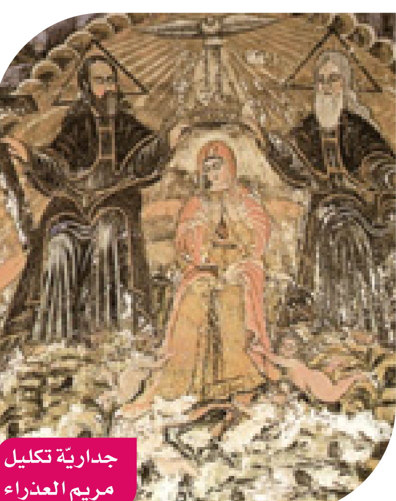
لكنّنا نتبيّن في عملها الرسوليّ مع الموارنة أو غيرهم من المسيحيّين المشرقيّين، صورة الأُمّ الحنون والمُعلّمة القاسية، يُقابلهما حرد الابنة وانقيادها.

ما حصلَ مع الموارنة على يد الأب اليانو، قابله عملٌ موازٍ مع عمل البرتغاليّين الذين في الفترة عينها، وعلى أثر مجمَعي غُوا (Goa) في العام ١٥٨٥ وديانبِر (Diamper) في العام ١٥٩٩، أَتلفوا الكتب الليتورجيّة القديمة للمسيحيّين السُّريان الملبار على شاطئ الهند(٥٢). هناكَ إذًا زمنٌ غابر وفكرٌ سابق تجلّى بأوّليّة وأسبقيّة وتفوّق كلِّ ما هو لاتينيّ (عملاً بالمثل «من ليسَ معي أو مثلي فهو ضدّي»)، وبغَيرَةٍ ينقصها التمييز، من أجل وحدة الكنائس، تزيد انقساماتها، كما عدم التنبّه لمفاهيم الاختلاف والتعدّديّة والتنوّع والتمايز في الثّقافات واللغة والألفاظ والتعابير والتقاليد والممارسات والعادات المحليّة، التي اعتُبِرَت موضوع شُبهَةٍ أكثر منها موضوع احترام.

نعم! ثمّةَ مخطوطاتٌ ليتورجيّة قديمة جدًّا أُتلِفَت، وجعلت كتابة التّاريخ الصّحيح للطّقس المارونيّ وتدوين مراحل تطوّره معقّدة وشبه مُستحيلة (إلاّ باعتماد الدّراسات الليتورجيّة المُقارنة). لكنَّ هذا الاندثار أو التّلف الذي حصل على يدِ موفَدي الكنيسة الجامعة، يُذكّرنا بأنَّ الفكر الانسانيّ هوَ واحِدٌ، في الدّين والدُّنيا، وفي أقاصي المسكونة: هناك دومًا نظرة قوّةٍ وضعفٍ، غرابة وجهالة، الأنا السّليم والآخر المُختلف... لربّما قدّمت الكنيسة المارونيّة مخطوطاتها قُربانًا على مذبحِ نضجِ هذا الوعي وتطوّره مع تقدّم الزّمن، والبالغ رقيّه في مُقرّرات المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثّاني سنة ١٩٦٥ المُولي كلّ التقدير للكنائس الشرقيّة بمؤسّساتها وطقوسها وليتورجيّتها وتقاليدها ونظامها.(٥٣)




الكرسي البطريركيّ في قنّوبين


جداريّة تكليل مريم العذراء

المصادر والمراجع

١. باحث في التّاريخ والليتورجيّا والعلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة. مُعِدّ لأطروحة دكتوراه في العلاقات المارونيّة- الدرزيّة في جامعة القدّيس يوسف- بيروت.
٢. كلمةٌ يونانيّة الأصل، من اليوناني «واحد» (monos)، و«طبيعة» (phusis). كان المذهب المونوفيزيّ (القائل بالطبيعة الواحدة) أعظم انشقاقٍ تعرّضت له الكنيسة الشرقيّة بعد النسطوريّة. فأصحاب مذهب الطّبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا بمبدأ الطّبيعتين الإلهيّة والبشريّة في الشّخص الواحد للمسيح. وقد نُظِّمَت المونوفيزيّة في سوريا من قبل يعقوب البرادعي، لذلِكَ سُمِّيَ أصحاب مذهب الطّبيعة الواحدة السوريّين اليعاقبة (ويُعرَفون اليوم بالسّريان الأرثوذكس). راجع: حتّي، فيليب، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حدّاد وعبد الكريم رافق، طبعة ثالثة، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص ص.٤١٢-٤١٣.
٣. نعمان، بولس، «**نشأة الكنيسة المارونيّة وعلاقتها بالقدّيس مارون وبالوطن اللبنانيّ**»، المارونيّة في أمسها وغدها، دير سيّدة النّصر، نسبيه- غوسطا، ١٩٩٦، ص ٢٥.
٤. «هوَ قماش من الصوف تزيّنه ستّة صلبان من حرير أسود مثبّتة على الغفّارة بثلاثة دبابيس من ذهب. والصوف الذي منه يصنع قماش الباليوم هوَ من الحملان تقدِّمه كنيسة القدّيسة أنييس (Agnès)، وتتولّى راهبات القدّيسة سيسيليا من تراستيفيري خياطته. يلبسه البطاركة الشرقيّون، ومنذ العام ١٩٧٨، أجازَ البابا بولس السّادس أن يرتديهِ أيضًا أساقفة المدن الكبرى». راجع: الجميّل، ناصر، الرّموز المسيحيّة، د.ن، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٦٦.
٥. هاشم، ريمون، **دراسة تحليليّة في تاريخ الموارنة في لبنان من النّشأة حتّى الانتداب الفرنسيّ**، الجامعة الأنطونيّة، بعبدا، ٢٠٠٨، ص ٣٠١.
٦. المرجع نفسه.
٧. حول وجود اليعاقبة أو السريان الأرثوذكس في لبنان وعلاقتهم بالموارنة، يُمكن مراجعة: **زجليّات جبرائيل ابن القلاعي**، دراسة وتحقيق بطرس الجميّل، أصول ومراجع تاريخيّة ٢، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٧- ٢١.
٨. الدّويهي، اسطفان، **تاريخ الأزمنة**، تحقيق الأباتي بطرس فهد، الخزانة التاريخيّة ٣، دار لحد خاطر، بيروت، د.ت، ص ٤٢٩-٤٣٥.
٩. المرجع نفسه، ٤٤١-٤٤٢.
١٠. من دون أن يُرسِل معهما درع التثبيت أو «الباليوم» للبطريرك ميخائيل.
١١. هو النّشيد المُشترك بين الكنائس الشرقيّة: «قدّوسُ الله، قدّوسُ القويّ، قدّوسُ الذي لا يموت... إرحمنا».
١٢. الدّويهي، اسطفان، مرجع سابق، ص ٤٤٣- ٤٤٤.
١٣. المرجع نفسه، ص ٤٤٤.
١٤. فهد، بطرس، **علاقات الطّائفة المارونيّة بالكرسيّ الرسوليّ المُقدّس**، مطبعة الكريم، جونيه، ١٩٦١، ص ٣٦.
١٥. المرجع نفسه.
١٦. المرجع نفسه.
١٧. المرجع نفسه، ص ٣٧.
١٨. المرجع نفسه.
١٩. المرجع نفسه.
٢٠. الدّبس، يوسف، **الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل**، تقديم الأب ميشال الحايك، طبعة رابعة، ١٩٨٧، ص ١٨٩.
٢١. الحايك، ميشال، مرجع سابق، ص٩٧.
٢٢. الدبس، يوسف، مرجع سابق.
٢٣. فهد، بطرس، مرجع سابق.
٢٤. المرجع نفسه، ص٤٠.
٢٥. الدّبس، يوسف، مرجع سابق.
٢٦. الدّويهي، اسطفان، مرجع سابق.
٢٧. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ٩١.
٢٨. الدّبس، يوسف، مرجع سابق.
٢٩. المرجع نفسه، ص ١٩٠.
٣٠. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ٩٣.
٣١. المرجع نفسه.
٣٢. المرجع نفسه، ص ٩٥.
٣٣. المرجع نفسه، ص ٩٦.
٣٤. المرجع نفسه.
٣٥. المرجع نفسه، ص ٩٩.
٣٦. المرجع نفسه، ص ص ١٠١- ١٠٣. وحولَ هذا المجمع أو الاجتماع يُمكن مراجعة: ديب، بطرس، «المجمع المارونيّ المُلتئم سنة ١٥٨٠»، **في المنارة**، عدد ٢، ١٩٣١، ص ٤٢٦- ٤٣٣، ٥٣٠- ٥٣٧، ٦٧٣- ٦٨٠.
٣٧. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ١٢٦.
٣٨. الدّويهي، اسطفان، مرجع سابق، ص ٤٤٦.
٣٩. المرجع نفسه.
٤٠. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ١٣٦.
٤١. المرجع نفسه، ص ١٣٧.
٤٢. الحايك، ميشال، **كتابات في تاريخ الكنيسة المارونيّة وروحانيّتها**، ترجمة وإعداد الخوري دانيال زغيب، المطبعة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٩، ص ٩٩.
٤٣. المرجع نفسه، ص ١٠٠.
٤٤. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ٥٢.
٤٥. الحايك، ميشال، مرجع سابق، ص ٩٧.
٤٦. المرجع نفسه، ص ٩٧- ٩٨.
٤٧. فهد، بطرس، مرجع سابق، ص ٢٦.
٤٨. المرجع نفسه، ص ٧٦.
٤٩. أي إلحاق الطقس المارونيّ بالطقس اللاتينيّ الذي هوَ طقس كنيسة روما.
٥٠. ديب، بطرس، مرجع سابق.
٥١. عبارات دوّنها بعض البابوات في رسائلهم واصفينَ بها الجماعة أو الكنيسة المارونيّة.
٥٢. الحايك، ميشال، مرجع سابق، ص ٩٧.
٥٣. المجمع الفاتيكانيّ الثّاني: قرار في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، الرقم ١.

دفاعًا عن الاقتصاد الحرّ

د. لويس حبيقة

ليس من المستغرب أن نقرأ ونسمع في الإعلام انتقادات لاذعة للنظام الاقتصاديّ الحرّ بسبب النتائج السلبيّة المحقّقة من أزمات وفساد وإفلاسات وغيرها. إذا راجعنا الماضي القريب، نرى أن الإعلام الدوليّ حتّى المتخصّص منه، ركّز على أزمات النظام، ومنها: سقوط شركات التكنولوجيا والإنترنت، فضيحة «انرون»، سرقات «مادوف» المسجون، هبوط العقارات وسقوط البورصات في سنة ٢٠٠٨ وما بعد؛ وها هو المشهد يتكرّر جزئيًّا اليوم في بعض الأسواق: ارتفاع البطالة بسبب طرد موظّفين مع إفلاسات شركاتهم، بالإضافة إلى ارتفاع فجوة الدخل بين الطبقات الشعبيّة.

هل هذا هو النظام الاقتصاديّ الحرّ المعتمد اليوم في الأكثريّة الساحقة من دول العالم؟ لماذا تحصل هذه الخضّات الخطيرة التي تصيب الفقراء كما الأغنياء؟ لماذا تعتمد الدول هذا النظام إذا كانت سلبيّاته كبيرة وخطيرة بهذا الشكل؟ هل تبقى إيجابيّاته أكبر من سلبيّاته، بالرّغم من الكوارث التي حصلت، والتي من المرجّح أن تتكرّر؟ ما هي الجاذبيّة الحقيقيّة لهذا النظام؟ لماذا يسيطر هذا النظام على قواعد الانتاج والاستهلاك العالميين اليوم أكثر من أيّ وقت مضى؟

لا يمكن لأيّ شخص أن ينكر هذه النتائج السلبيّة. إلاّ أنّ النتائج الإيجابيّة تبقى كبيرة جدًّا. يقول «ألان ملتزر» في كتابه «لماذا الرأسماليّة؟»: إنّه النظام الاقتصاديّ الوحيد الذي يحقّق، بل يعزّز في نفس الوقت، النموّ والحريّات الفرديّة. على عكس الاشتراكيّة، يتأقلم النظام الرأسماليّ مع أوضاع الدول، وبالتالي هو غير جامد. النظام الأميركيّ مختلف عن الأوروبيّ والآسيويّ وغيرهما، لكنّ قواعدهم الأساسيّة موجودة في كلّ منها. القاعدة الأساسيّة هي ملكيّة وسائل الانتاج التي تحرّمها الشيوعيّة وتعتمدها الرأسماليّة في كلّ أنواع أنظمتها. معظم القوانين والإجراءات والقواعد التي تحاول عرقلة عمليّات العرض والطلب الحرّة، حتّى الاجتماعيّة والمعيشيّة منها، تفشل في تحقيق النتائج المرجوّة، بل تخفّف الفوائد من دون أن تعالج المشاكل.

إذا قارنّا مثلاً النتائج المحقّقة عبر العقود الماضية بين الاقتصاد الأميركيّ الأكثر حريّة والاقتصاد الأوروبيّ المقيّد أكثر، نرى أنّ الأميركيّين نجحوا عمومًا أكثر في النموّ ومستوى المعيشة وتنويع الانتاج بالرّغم من الأزمات القاسية التي أصابت بلادهم. الأنظمة الأوروبيّة سخيّة أكثر في رعايتها للمواطن والعاطل عن العمل، لكنّها في نفس الوقت تقيّد الشركات كثيرًا في أنظمتها وقواعدها وإجراءاتها فيما يخصّ العمل والاستثمار والضرائب وغيرها. من ناحية أخرى، وبالرّغم من أنّ الإطار الذي يحيط بالنظام الاقتصاديّ الحرّ ليس جامدًا وقاسيًا، إلاّ أنّه من المؤكّد أنّ النظام بحدّ ذاته لا يمكن أن يعالج كلّ المشاكل والمساوئ التي تنتج عنه بشكل فاعل ومرض. من أين تأتي هذه المساوئ وما هي مصادرها الحقيقيّة؟ هل المسؤول هو النظام أم المواطن، أي الانسان الذي يعمل داخله؟ معظم مساوئ النظام ناتجة عن الطبيعة الانسانيّة لأقليّة جشعة تمارس الرشوة والفساد لتحقيق نتائج ماليّة كبيرة سريعة على حساب المجتمع والاقتصاد والأخلاق.

في الحقيقة يكمن أساس المشكلة ليس في النظام نفسه، وإنّما للأسف وتأكيدًا في وجود أقليّة جشعة غير أخلاقيّة تسيء إلى الجميع والتي تكون موجودة في كلّ أنواع الأنظمة وليس الرأسماليّ فقط.



وتكمن المشكلة الثانية في أنّ قواعد النظام جامدة، أي مكتوبة، لتغطّي حالات عامّة عديدة، وليس فرديّة. لا يمكن تغيير القوانين والقواعد كلّ يوم، لكنّ الأسواق تتغيّر كلّ دقيقة بل كلّ ثانية ممّا يسمح للراغبين في خرق النظام بالنجاح في أعمالهم على حساب المجتمع والاقتصاد. يضع مجلس النوّاب القوانين وتقوم الحكومات بوضع القواعد والإجراءات، هذه المؤسّسات الدستوريّة لكنّ تحتاج إلى الكثير من الوقت حتّى تشعر بضرورة التغيير، بل لتقرّر هويّة واتجاه التعديلات المطلوبة. من ناحية أخرى، تنجح القواعد والاجراءات والقوانين إذا استطاعت تقريب المصالح الشخصيّة من العامّة. بمعنى آخر تكون القواعد مفيدة اجتماعيًّا، وهذا هو المطلوب أصلاً من كلّ قاعدة، إذا استطاعت تقريب التكلفة الخاصّة من العامّة. مثلاً، مقارنة حجم الجباية الضرائبيّة لتمويل الشرطة أو أجهزة الأمن بنتائج الجرائم التي تحصل إذا لم يتمّ هذا التمويل. إذا لم تتمّ هذه المقارنة، لن يقتنع المواطنون بجدواها بل سيحاول حكمًا دافعو الضرائب التهرّب من تسديدها بمختلف الوسائل القانونيّة أو الممكنة.

هنالك حقائق مهمّة يجب التنبّه لها عند معالجة واقع النظام الاقتصاديّ الحرّ:

أوّلاً: كلّما زادت القيود وتدخّل القطاع العامّ أكثر في الاقتصاد، تعرقلت عمليّة العرض والطلب الحرّة التي يسمّيها علم الاقتصاد «قانون العرض والطلب». وكلّما زادت القيود، كلّما تعثّر النموّ وارتفعت البطالة، خاصّة الهيكليّة منها التي تصعب معالجتها.

ثانيًا: نجح النظام الاقتصاديّ الحرّ بتفوّق، مقارنةً مع البدائل أي الشيوعيّة والديكتاتوريّة والدينيّة المتطرّفة بشكل خاصّ التي تقيّد الحريّات حتّى لو استطاعت تاريخيًّا تحقيق نسب نموّ عالية في بعض الأحيان. ما هي جدوى النموّ إذا ترافقت مع قمع لحقوق الانسان، وهذا ما مارسته الشيوعيّة والفاشيّة في الدول التي طبّقت فيها؟ مشكلة الأنظمة الشموليّة أنّها تفرض نظرة واحدة للواقع والمستقبل، يستحيل على الفرد معارضتها أو الخروج عنها. أحيانًا تكون هذه النظرة خياليّة تُفرض على الجميع، بحيث يجب اعتبارها النظرة الوحيدة الحقيقيّة بل الفاضلة. يترافق مع هذه النظرة وجود قوّة أمنيّة تفرضها على الجميع. في الواقع لم تستطع هذه الأنظمة، عبر العقود الطويلة المتتالية، التفوّق على النظام الاقتصاديّ الحرّ. وإذا استطاعت فلمدىً قصيرة، فكانت على حساب الحريّات الشخصيّة. حتّى الصين الشيوعيّة اعتمدت النظام الاقتصاديّ الحرّ؛ علمًا أنّ نموّها القويّ أتى من انتقال ركائز الاقتصاد من الزراعة إلى الصناعة، أي من القطاعات ذات الإنتاجيّة المنخفضة إلى الأخرى ذات الإنتاجيّة العالية. عندما ينتهي هذا التحوّل ستنخفض أكثر نسبة النموّ.

ثالثًا: هنالك مزايا قويّة ثلاث للنظام الاقتصاديّ الحرّ هي محافظته على الديموقراطيّة والحريّات الشخصيّة بالاضافة إلى تحقيق النموّ. يتأقلم النظام مع الثقافة والتاريخ والعقليّة، إذ أنّ ما يعتمد في السويد مثلاً غير الذي يطبّق في الولايات المتحدة أو في أستراليا وبريطانيا وغيرها. أمّا الميزة الثالثة فتكمن في إمكانيّة معالجة سوء توزّع الدخل ضمن الديموقراطيّة عبر نظام ضرائبيّ ونسب مقبولة لا تقتل المصدر وتعالج أوجاع الضعفاء.

رابعًا: هنالك العديد من قيادات دول اليوم ما زال يعتقد أنّ تحقيق العدالة الاجتماعيّة يتوقّف على فرض قيود على رأس المال وعلى حريّة النظام الاقتصاديّ. يقول «جون لوك» إنّ العمل الجَماعيّ هو الجواب الفاعل للمشاكل الاجتماعيّة، بحيث يتمّ تصحيح خلل الأسواق عبر الاقتراع الذي يؤدّي إلى التوزيع الأفضل للدخل وإلى الرقابة العادلة.



خامسًا: مشكلة الرقابة القاسية أنّها تشجّع البعض على مخالفتها لغاية الربح والاستفادة الشخصيّة. كلّما كانت الرقابة صارمة، كلّما أصبحت الاستفادة المحتملة من مخالفتها أكبر. فالمصارف العالميّة الكبيرة خالفت أكثر عندما أصبحت رقابة الدولة عليها أقسى، وعندما قرّرت المصارف المركزيّة منع المصارف الكبيرة من الإفلاس فأضرّت بالصغيرة والمتوسّطة. مشكلة النظام الاقتصاديّ الحرّ ليست في المبادئ، وإنّما في ممارسة البعض بصورة غير أخلاقيّة. يقول «إيمانويل كانت» إنّ البعض ليس شريفًا ويخالف القانون ويمارس الرشوة والفساد، وهذا لا يعني أنّ النظام سيّئ، بل هنالك أشخاص سيّئون. تحصل الأزمات ليس بسبب النظام، وإنّما بسبب القواعد السيّئة الموضوعة، وبسبب ممارسة البعض بشكل سيّئ.

سادسًا: من المزايا الأساسيّة للنظام الحرّ رعايته للابداع بحيث يستفيد المبدعون من أعمالهم. فالاستثمار في الأفكار الجديدة هو من الركائز الأساسيّة للنظام. يقول «ملتزر» أنّ «النظام الرأسماليّ من دون فشل» هو كـ«الدِّين من دون خطايا» وهذا مستحيل وغير إنسانيّ.

حوار طرشان

شربل شربل

– لو امتلك هتلر أسلحة دمار شامل لألقى بها فوق رؤوس معارضيه، ولقضت مكوّناتها غير المنضبطة على الكثيرين من مؤيّديه...

– مهلاً، مهلاً. «لا افتراض في التاريخ». جاء هتلر وذهب، ولم يفعل ذلك. ولم يقل يومًا: عليّ وعلى أعدائي.

– لم يوفّر المسكين جهدًا، ولم يتقيّد بأيّ سقف. ولو كانت لديه أسلحة أكثر فتكًا ممّا كان لديه، لما تورّع عن استخدامها؛ ولو أمهلته الأيّام لأتى العجائب؛ ألا تبرّر الغاية الوسيلة؟

– أصبح هتلر من الماضي، من التاريخ. فلماذا استحضاره الآن؟

– لأنّ أرحام النساء قد تجود علينا بهتالرة (أو بهتلرات؛ وأفضّل استخدام الجمع الأقرب إلى الحوشيّة منه إلى السلاسة)، أو قد يتقمّص هتلر ويعود إلينا...

– ولكن، ما الذي يوحي إليك بكلّ هذا السوء والابتعاد عن الواقعيّة؟

– لا. ليس في ذلك أيُّ ابتعاد. ألا يؤمن عدد هائل من سكّان الأرض بالتقمّص؟!

– بلى، ويجب أن أتصوّر أنّ هتلر قد يتقمّص، وقد تتشعّب روحه وتتوزّع على عدد كبير من الشخصيّات، نظرًا للكفاءات العالية التي كان يتمتّع بها...

– وتصوّر أنّ عددًا من هؤلاء سيكون لهم صفات قياديّة، وسيصلون إلى أعلى المراكز في دولهم، وستكون في أيديهم الحقائب النوويّة، وسيكون مصير العالم رهن هوسهم...

– أو هلوساتهم وعُصابهم...

– وسيضطرّون إلى فشّ خلقهم، ولن يردعهم رادع عن الضغط على الأزرار الفتّاكة، و«باي باي» بشر، وبقر، وحضارة، وموناليزا...

– وستكون الضربة لمن سبق، كما تقول القاعدة.

– لا تصحّ هذه القاعدة إلاّ إذا كانت الضربة قاضية. وإلاّ، فقد يستوعبها الخصم ويردّ الصاع صاعين...

– نحن نتحدّث عن أسلحة دمار شامل، لا عن قذائف وصواريخ سخيفة وصاع وصاعين.

– أنا أحترم جميع أنواع الأسلحة، ولا أرى أسخف من حياة الإنسان إذا ما قورنت بها.

– الإنسان هشّ، سريع العطب، ناقص، ولم يُخلق للمواجهة الجدّيّة.

– تقصد الشاملة؟

– صحيح.

– أوافقك الرأي. ولكن، لمَ السوداويّة وتذكّر هتلر و... ما دامت العلّة في داخلنا، في ضعفنا وانهزامنا، في معطوبيّتنا، نحن المخلوقات الركيكة التي لا تستطيع الوقوف في وجه ما صنعت أيديها؟

– هتلر رمز، وليس شخصًا. ألم تسمع تهديدات حفيد كيم إيل سونغ باستخدام النوويّ ضدّ الولايات المتّحدة؟ ألم يسعَ القذّافي لامتلاك قنبلة نوويّة؟

– يُقال إنّ القذّافي طلب شراء واحدة من الصين، فأفهمه المسؤولون فيها أنّ القنبلة هذه تُصنّع محلّيًّا نتيجة تطوّر علميّ، ولا تُباع في الأسواق.

– هذا كلام إعلاميّ. ولكن، هنالك أعمال إرهابيّة نُفّذت من غير حاجة





هتلر رمز المخيفين جميعًا. إنّه ستالين ونيرون وعبد الحميد وجزّارو التاريخ كلّهم

إلى السلاح. أليس عبقريًّا الذي خطّط لتفجيرات الحادي عشر من أيلول، في نيويورك، من غير سلاح؟

– بلى، عبقريّ! وقد يكون أنشتين نفسه، وقد تقمّص في السعوديّة أو لبنان لتوريطنا؛ فاليهود في العادة يقفون وراء عمليّات كهذه... ولكن، أرجو ألاّ تقترح منحه جائزة نوبل بعد الوفاة.

– إلى أين تريد أن تصل من خلال هذه المناقشة، كي لا تكون عبثيّة؟

– عبثيّة؟ مطلقًا. ألا تشعر معي أنّنا نعيش على حافّة الهاوية؟

– غالبًا ما كان البشر على حافّة الهاوية.

– لا. ليس صحيحًا. لقد نعمت البشريّة بفترات طويلة من

– السلم، ألا تذكر مرحلة «السلم الرومانيّ»؟

– أذكرها، وأذكر أنّها جاءت بعد ضربات قاضية. بعد اجتياحات حطّمت بشكل شامل قدرات الشعوب على الانتفاض المفيد والمقاومة الفعّالة. أنا مع القائلين بأنّ السلم هو استراحة بين حربين.

– إستراحة دامت مئات السنين. أليس ذلك رائعًا؟

– نعم ولا. فلقد بنيت على قهر الشعوب واستعبادها.

– مقابل تمتّعها بالأمن والخبز.

– ومقابل التخلّي عن حرّيّاتها، وكرامتها الوطنيّة، وتمتّعها بمواردها الطبيعيّة...

– وهل كان الحكّام المحلّيّون يعطونها الحرّيّة، ويُشعرونها بالكرامة، ويمتّعونها بالموارد الطبيعيّة؟

– لا أعرف.

– الدنيا فريسة القويّ. والرومان كانوا أقوياء

– فافترسوا النعاج الضعيفة.

– للحرّيّة مفهوم مطّاط، يا صديقي. فالناس غالبًا ما يفضّلون الأمن والبحبوحة على الحرّيّة التي لا تطعم خبزًا. والرومان، كما تعلم، فرضوا الأمن، وأقاموا شبكة مواصلات هامّة جدًّا طوّرت الاقتصاد العالميّ.

– صحيح، وقد ورثنا التعبير «كلّ الطرق توصل إلى روما» نتيجة ذلك. ولقد ترك الرومان في بلادنا آثارًا ما زلنا نستثمرها ونفاخر بها، وهي تدلّ على مدى عبقريّتهم.

– وتدلّ على عظمتهم مقابل ضعفنا. وتدلّ على ثمرة تعب العبيد وتضحياتهم ليفخر القادة ويتقرّبوا إلى آلهتهم و... ألا تذكر ما أثاره خليل مطران في قصيدته التي يتأمّل فيها قلعة بعلبك؟

– أذكر أنّها قصيدة رائعة، تعلّمناها في المدارس، وكان جيلنا يحفظها، أمّا أولادي فلا يعرفونها.

– لقد توقّفت الكتب المدرسيّة عن استثمارها إلاّ أبياتًا قليلة...

– ولماذا؟

– لأنّ فيها كلمات صعبة... من يعرف اليوم معنى «إيهِ» التي يبدأ بها؟ وما معنى: ووقيت العفاء من عَرَصات...؟

– هذا استطراد يبعدنا عن موضوعنا.

– ذكّرني بالموضوع، لو سمحت.

– أعتقد أنّ الموضوع هو «الهتلروفوبيا» التي تتملّكك.

– أقبل هذا التشخيص على سبيل تسهيل البحث، ليس إلاّ. فالمسألة ليست شخصيّة، وليست خوفًا غير مبرَّر.

– أنا لا أقصد حصر التشخيص بشخصك، فأنت رمز الخائفين جميعًا الذين يعتقدون أنّ البشريّة تحفر قبرها بعقلها. الذين يرون أنّ الإنسان الذي يستطيع أن يكون أعظم من الملاك رحمة وتجرّدًا ومحبّة، وأدنى من الحيوان التصاقًا بالمادّة وإضمارًا لروح الشرّ، اختار أن يكون ذئبًا لأخيه الإنسان. ولا أقصد حصر الترهيب بهتلر، هتلر رمز المخيفين جميعًا. إنّه ستالين ونيرون وعبد الحميد وجزّارو التاريخ كلّهم، وكسرى الذي قتل بزرجمهر وأوحى لخليل مطران بتلك القصيدة الرائعة...

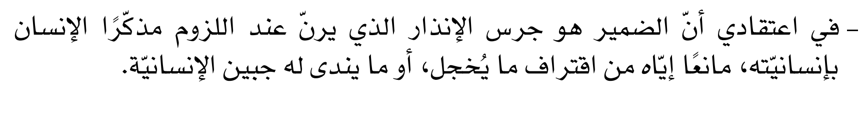
– إسمح لي أن أوضّح بعض الجوانب التي يُخيّل إليّ أنّها غير واضحة لديك. أنا من أشدّ الناس طلبًا للعلم والمعرفة، ومن أكثرهم دعوة إلى تطوير البحث العلميّ. وأنظر بعين التقدير والإعجاب إلى الدول التي تصرف أموالاً طائلة لهذه الغاية. وقد لفتتني الأرقام هذه السنة، ٢٠١٣، التي أذيعت أخيرًا: الولايات المتّحدة خصّصت ١٠٠ مليون دولار للأبحاث حول الدماغ.

– وما شأنك أنت؟

– في حين خصّص الاتّحاد الأوروبيّ ٥٠٠ مليون يورو، تُصرف خلال خمس سنوات للغاية نفسها. ولكن، أريد في الوقت نفسه ألاّ ينسى الإنسان جوهره الذي يميّز إنسانيّته. أرفض أن يتحوّل الإنسان إلى روبوت يُبرمج ويعمل وفقًا لتعليمات محدّدة، غير آخذ بعين الاعتبار إلاّ أنانيّته التي تُبيح له كلّ شيء ليتمكّن من تجسيد جشعه. أرفض أن يوضع الضمير جانبًا، أو أن يُصوّر الضمير على أنّه مجرّد اعتقاد وهميّ خلقه الضعفاء لتبرير جُبنهم.

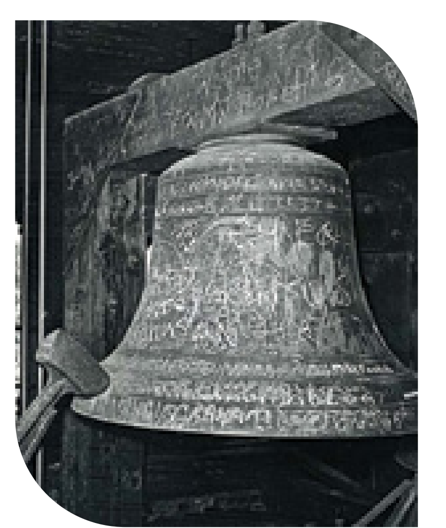
– الضمير؟ ما الضمير؟ إنّه أشبه ببوليس البلديّة عندنا. لا يُقدّم ولا يُؤخّر. وأكثر من ذلك، إنّه أشبه بالبوليس الذي لدغته التسي تسي، فغفا وهيهات أن يصحو. لذلك يندر ما يُسمّى بصحوة الضمير.





– في اعتقادي أنّ الضمير هو جرس الإنذار الذي يرنّ عند اللزوم مذكّرًا الإنسان بإنسانيّته، مانعًا إيّاه من اقتراف ما يُخجل، أو ما يندى له جبين الإنسانيّة.

– يرنّ عند اللزوم؟ وما الذي يُحدّد له وقت اللزوم هذا؟ ما الأسباب الموجبة التي يأخذها بعين الاعتبار؟ المسألة غامضة على ما يبدو، وشخصيّة. وأنا أفضّل ما جاء به مارك توين (أو جورج برنارد شو؟) الذي قال:» الضمير لا يمنع الإنسان من ارتكاب ما هو غير أخلاقيّ، ولكنّه يمنعه من التلذّذ بفعل كهذا». فالمسألة، إذًا، مسألة تلذّذ بمخالفة الأخلاق، وأنت تريد منه أن يقف حائلاً دون انتهاك الأخلاق.



– هذا ما أريده بالضبط. لأنّ فيه منفعةً عموميّة، وارتقاءً بالإنسان، واطمئنانًا إلى المستقبل. أنسيت الحكمة التي قالها أمير الشعراء

وإنّمـــا الأمـمُ الأخـلاقُ، مــــا بــــقـيت   فـإن هــمُ ذهــبـــت أخلاقُـهـم ذهـبــوا؟

– ذهبوا؟ إلى أين؟

– ماذا؟

– لا شيء. لا شيء. لم أنسَ. ولكن، أصحيح أنّ في هذا الكلام حكمة؟

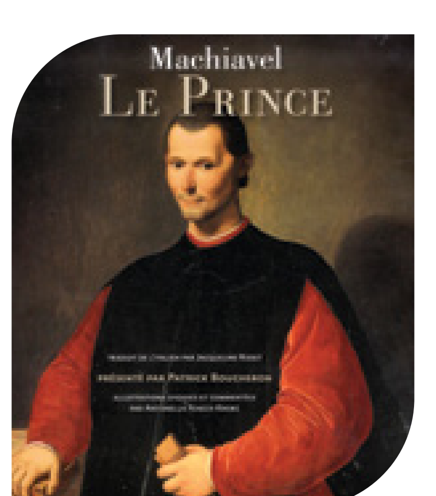
– بالتأكيد.

– مهلاً. لم أقع في كتب التاريخ، والحضارة، والاجتماع، والسياسة، على نظريّة تعتبر الأخلاق مُكوِّنًا من مكوّنات الأمّة. ولم أقع على نظريّة تعزو ذهاب الأمم إلى ذهاب الأخلاق. أمّا إذا كنت تصدّق ما جاء في فيلم «ساتيريكون» لفلليني عن آخر أيّام الأمبراطوريّة الرومانيّة، فتلك مسألة أخرى.

– يبدو أنّه من الضروريّ أن نتّفق على تحديد مفهوم الأخلاق.

– دعني أضيف أنّ الأخلاق التي تتحدّث عنها قد تقف عائقًا دون تقدّم الأفراد والأمم.

– يبدو أنّه من الضروريّ أن نتّفق على تحديد مفهوم التقدّم، والمدنيّة والحضارة، أيضًا.



– دعني أضيف أنّ المكيافيليّة التي يجسّدها كتاب الأمير، كما تعلم، قد تكون من أكثر النظريّات قدرة على توصيف أوضاع الأمم وشخصيّات المسؤولين المحترمين.

– إنطلاقًا من القاعدة التي تقول: قد يضطرّ بعضهم إلى القيام بأشياء غير محترمة حتّى يصبحوا محترَمين؟

– وقد يضطرّ بعضهم إلى السخرية من أمور لا تدعو إلى السخرية حتّى يصبحوا ساخرين.

– بئس المقارنة! «المقارنة ليست حجّة». ولكن، أليس من حقّي أن أجادلك بمثل طريقتك؟

– أنا جادّ في ما أقوله، ولست عابثًا.

– لماذا، إذًا، يبدو نقاشنا عبثيًّا؟

– لأنّك تقيس السياسة بغير مقاييسها.

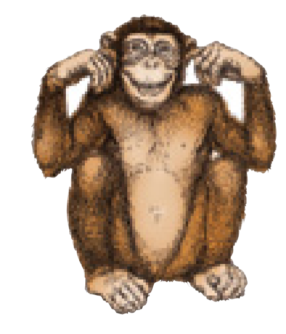
– يبدو أنّه من الضروريّ أن نتّفق على تحديد مفهوم السياسة.

– موافق.

– ويبدو أنّه من الضروريّ أن نتّفق على أن نتّفق.

– ما رأيك في العودة إلى طاولة الحوار، ومن دون شروط تعجيزيّة؟

– موافق، بشرط ألاّ تشترط عليّ مسبقًا بحث الاستراتيجّة الدفاعيّة.



قصّة

سوزي

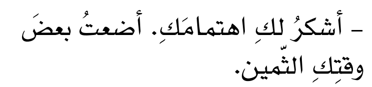
إيلي مارون خليل



ونجحتُ!

أَحْبَبْتُ الكتابَ. كيف لا، وهو جديدٌ مميَّزٌ في نوعه. عنوانُه طريفٌ. أسلوبُه لافتٌ: تراكيبَ وبَيانًا وبؤَرًا وأمواجًا وتوازياتٍ وتوازناتٍ وإيجازًا وإيحاءً وتأثيرًا. معانيه عميقةٌ، بعيدةُ الآفاق. كتابٌ روائيٌّ فصيحٌ، بليغٌ، يمزجُ النّثرَ بالشّعر. وكانت، هذه، نَدْوَتي الأولى. أريدُ النّجاحَ لأبرزَ وأستمرَّ في عالم الأدبِ، عالمي الأحَبِّ. ألرّجلُ، صاحبُ الكتاب؟ ما بِه؟ أَحْبَبْتُ إرضاءَه، أم إرضاءَ نفسي؟ لكنّي سوزي! أردتُ إرضاءَ ذاتي، أوّلاً، قَبْلَ أيِّ آخَرَ! أُثبِتُ قدرتي وثقافتي وموهبتي. أريد الزَّهْوَ بالذّات! نوعٌ من الغرور؟ لكنّه إيجابيٌّ غيرُ مؤذٍ.

هذا هو! هذا هو! الكاتبُ يبدو يقتربُ منّي، مُحاذِرًا. ماذا يَحْذَرُ؟ كتابُه مُميَّزٌ: موضوعًا ومضمونًا وأسلوبًا، من الجوانبِ كلِّها. هنّأتُه قبْلَ أن يَشكرَ اهتمامي. قال:



- أشكرُ لكِ اهتمامَكِ. أضعتُ بعضَ وقتِكِ الثّمين.

- لا شُكْرَ على ما نُحِبّ. أَحْبَبْتُ روايتَك. جديدةٌ بنيةً وأسلوبًا!

- رأيُكِ يُسعِدُني!

- ليس رأيي وحدي! ألَم يكن رأيَ الجميع، بخاصّةٍ الرّوائيِّ الشّهير؟ مُداخَلَتُه قيّمةٌ جدًّا.

إعملْ على أن تحصلَ على المُداخَلات.

- لقد فعلتُ، وها هي! أجعلُها ضمن ملفٍّ خاصٍّ أجمعُ فيه ما يُكتَبُ عن الكتاب!

أراد يقولُ شيئًا آخَرَ، أم تراءى لي؟ وَدِدْتُ لو يُطيلُ الحديثَ، لكنَّ كثيرين اقتربوا. كأنّي رأيتُ امتعاضَه. إنسحبَ مُلَوِّحًا بأحلامِه وقلبِه.

تَصَوَّرْتُني في البيت، زوجي أمام التّلفزيون، وأنا، في مكتبي، أُقلِّبُ الرّوايةَ بين عَينيَّ، أمام قلبي وأحاسيسي. تعابيرُ قصيرة. غاية في القِصَر، أحيانًا. صُوَرٌ شِعريّةٌ خَلّاقة. تراكيبُ جديدة، تبدو فيها الكلماتُ جديدة.

لكنّي، وأنا سوزي، أعرفُ نفسي! ما كان هذا، وحدَه، مِحْوَرَ اهتمامي. كنتُ لأفكّرَ في بطلةِ الرّوايةِ. أهي واقعيّة، من صميمِ الحياة، حياةِ الكاتبِ، أم من نَسْجِ الخيال؟ فالكاتبُ النّاجحُ، مَن جعلَ القارئَ يَشُكُّ بين الواقعيّةِ والخَيال.

- غيرُ صحيح، سوزي. كان الأمر لا يزالُ مُبكِرًا جدًّا!

- لا، يا! لم تلحظي سعادتَك وأنتِ تقرئين ما كتبتِ حول المؤلِّف وروايتِه هذه! كنتِ في غاية النّشوة. بدوتِ ممتلئةً بهما!

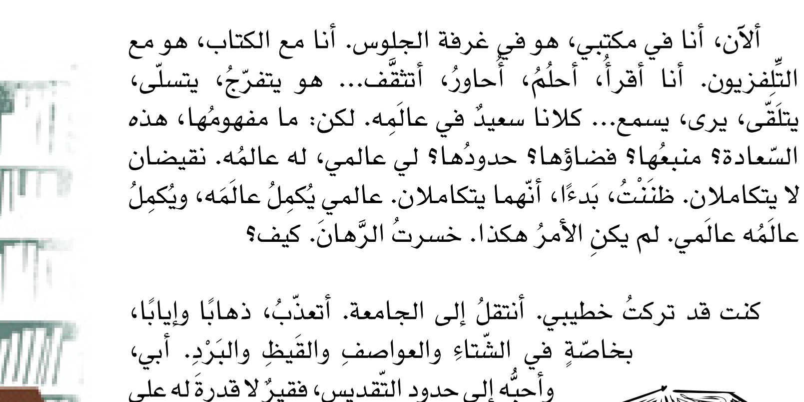
- إلى هذا الحدّ؟!

- أنا سعيدةٌ لأجلكِ. تستأهلين السّعادةَ، السّعادةَ كلَّها.

سكتتُ، فماذا تقول؟ ألأمرُ صحيح. زوجي لا يهتمّ بالأدب، ولا بأيٍّ من الفنون! على النّقيض منّي.

وهو، الليلةَ، لم يُهنِّئْني! ألجميعُ فعلوا، إلاّ هو. ألأمرُ لا يَعنيه. إمْتَدَحْتُ الكتابَ والكاتب، فلم يتأثّر. لثقة، أم لإهمال؟ كيف دارَ الأمرُ، فهذا غيرُ لائق.





ألآن، أنا في مكتبي، هو في غرفة الجلوس. أنا مع الكتاب، هو مع التّلفزيون. أنا أقرأُ، أحلمُ، أحاورُ، أتثقّف... هو يتفرّجُ، يتسلّى، يتلقّى، يرى، يسمع... كلانا سعيدٌ في عالمِه. لكن: ما مفهومُها، هذه السّعادة؟ منبعُها؟ فضاؤها؟ حدودُها؟ لي عالمي، له عالمُه. نقيضان لا يتكاملان. ظنَنْتُ، بَدءًا، أنّهما يتكاملان. عالمي يُكمِلُ عالمَه، ويُكمِلُ عالمُه عالمي. لم يكنِ الأمرُ هكذا. خسرتُ الرِّهانَ. كيف؟

كنت قد تركتُ خطيبي. أنتقلُ إلى الجامعة. أتعذّبُ، ذهابًا وإيابًا، بخاصّةٍ في الشّتاءِ والعواصفِ والقَيظِ والبَرْد. أبي، وأحبُّه إلى حدود التّقديس، فقيرٌ لا قدرةَ له على تأمين سيّارةٍ تُقِلُّني وتُعيدُني، ولا على شراءِ واحدةٍ، مهما كان نوعُها وسنةُ صِناعتِها! ومَرَّ، ذاتَ يومٍ مُمطِرٍ وعاصفٍ، عصام. أوقف سيّارتَه الجديدةَ. حيّاني بتهذيبِ وَلِيٍّ، وأناقةِ مَلِكة. طلبَ أن أصعدَ في ذلك الطّقْسِ، فأنجو من البرد والمطر والرّياح. غامرتُ وصعدتُ. أَسَرَني حديثُه. أصَرَّ على أن يُعيدَني مساءً. وافقتُ بعد جِدال. أقنَعَني: في هذا الجوّ العاصفِ، أفضّلُ أن أحميَكِ! ويومًا بعد يوم، بعد استمرارِ العاصفةِ لأسبوعٍ طويلٍ، واستمرارِه في إيصالي وإعادتي، أُعْجِبْتُ به. قالت لي نجوى: ما لك وله! إنّه من عُمرِ أبيكِ! ويكونُ قد عاش عمرَه طولاً وعرضًا. دعيه. إقتنعي منّي. لكنّي... لم! وكان لا يزالُ عازبًا. وقد أظهرَ كلَّ عَطفٍ وعناية. ولا أنسى أنّي كنتُ مُعجَبةً بأبي. فربّما، أنّي، وفي لاوَعْيي، رأيتُ فيه صورتَه. ألمُهِمّ: خالفتُ الجميعَ، ورحتُ معه «خطيفة». غضِبَ الأهلُ، وبخاصّةٍ أمّي وأبي، حاولا إعادتي، ما اقتنعتُ بحُجَجِهما. فوجِئَ الأصحابُ، خُذِلوا.

أكملتُ اختصاصي. تَخلّيتُ عن الرّسم، وعن جزءٍ من نشاطاتي الأدبيّة، خلا بعضَ ندواتٍ مهمّة، وأمسياتٍ لشُعَراءَ كبار. عصام؟ كان يؤمُّ معي هذه الأمكنةَ بفرح. بعد سنواتٍ ثلاث، بردتْ هِمّتُه، في هذا المجال. لكنّه لم يمنعْني. إستمرّي في عالمِك. عالمُكِ جميلٌ. لا أمانعُ مطلقًا. بقيتُ أكتبُ الشِّعرَ، ويُسَرُّ بي. يُشجِّعُني. يستمع إليّ. يرتادُ المنابرَ التّي أرتاد، ويفرح. لكنّه، بعد أربع، امتنع، نهائيًّا. بَهُتَ تشجيعُه، كأنْ لم يكن. لكنّه، هنا أيضًا، لم يَرْدَعْني. ظللتُ، إلى حدٍّ ما، أكتبُ الشِّعرَ، من دون الاشتراك بأمسيات. أكتبُ لنفسي، وأُخَبِّئُ ما أكتبُه. كاد يموتُ ما كتبتُ. ألكتابةُ للنّشْر. «ألنَّشْرُ، (كما يقولُ أديبيَ الأقربُ إلى قلبي) إحياءٌ للكلمات!» كدتُ أختنِقُ، فالكلماتُ غيرُ المنشورةِ لا تتنفّس، تَخنُقُ كاتبَها. فكيف بالشِّعرِ الحيِّ المُحيي!؟

عدتُ إلى المؤسَّسةِ الأحَبِّ، سعيدةً مَزهوَّة. أُحبُّ عملي. أُحِبُّ مؤسّستي، كما يُحِبُّني مَن فيها.

أتذكّر، الآنَ، حين أتاني زميلي روني، وقد أسّس مكتبةً ناجحة، بنسخةٍ أوّليّةٍ (أوزاليت) من رواية للأستاذ طارق، طالبًا قراءتَها والمُشاركةَ في إدارة ندوةٍ، تكون، هي موضوعَها، فوجِئتُ، فرحتُ، خفتُ. لكنّي لم أرفض. قلتُ له إنّي موافقة. وسألتُه عن المشاركين، فوقعتُ في الرَّهْبة. أسماءٌ كبيرةٌ! تحدّيتُ نفسي. أنا لا أتراجعُ عن شيءٍ اتّخذتُ فيه قرارًا. أنا أقتحِم!

ونجحتِ النَّدوة. ألدّراساتُ إيجابيّةٌ ومُعمّقة. ألحضورُ كثيفٌ ومُستمع. ونجحتُ أنا.

هنّأني كثيرون ممّن يعرفونني، وممّن لا يعرفونني. سُرِرتُ. إنّها إطلالةٌ أولى، بعد زمن الشِّعر البعيد، قد تُمَهِّدُ لإطلالاتٍ تالية. وأتمنّى ذلك.

أمّا الكاتبُ، الأستاذ طارق، فرأيتُه يتقبَّلُ تهانئَ كثيرين، وبعضُهنَّ يُعانِقْنَه بحرارة، قبل تَوَجُّهِه إلى حيث سيوقِّعُ روايتَه. لم يكن يركِّزُ في الوجوه. كأنّه لا يَنتظرُ وجهًا مُحدَّدًا. وإذ استطاع التَّخَلُّصَ من المهنّئين، أسرع إلى شكرِ المشاركين، وشكري. قال: لا تزالين شاعرة! متى جديدُكِ!؟

تَمَلَّصْتُ من السّؤال. «متى جديدُكِ؟» هل لي جديد؟ أثارَ سؤالُه أعماقَ نفسي. غَصَصْتُ. كيف يكونُ لي أيُّ جديدٍ، ولا حَضَّ من أقربِ النّاسِ إليّ! كيف يكونُ لي أيُّ جديدٍ، ولا وقتَ، حُرًّا، لي، لأحلُمَ وأكتبَ وأنشرَ و...أحيا! روني، النّاشرُ الجديدُ السّعيدُ بتجربتِه الأولى، سألني بدوره: متى أنشر لك شِعرًا؟ ألسّؤالُ مشروع.

لكنّي بماذا أُجيب؟ أأعترفُ بأنّني، ومن زمان، لم أكتبْ قصيدة؟ وإنْ فعلتُ، فمَن يتأثّر؟ أحزنُ وحدي! فَلأَطْمُرْ أحزاني، بي، وأوجاعي، فلن يشعُرَ أحدٌ! «هَمٌّ بالنّاقص»! هُمُ النّاسُ! هُمُ الآخَرون! ألأولئك! فلِمَ الإجابةُ، ولِمَ الشّكوى؟ للتّشَفّي؟ لا زالت كلماتُ أُمّي تتردّدُ في كِياني كلِّه: «إيّاك أن تَشْكي! أنتِ اخترتِ مصيرَكِ. لن أستمعَ إليكِ». وأضافتِ المَثَلَ الشّائعَ: «خلاصُك بيدك يا...»!

إنسحبْتُ حيث نَخْبُ المناسبةِ. ألصّالةُ التّاريخيّةُ فسيحةٌ، جميلةٌ، مرتَّبةٌ، تكثرُ فيها المرايا، وقد اختلط فيها الجمهورُ

شعريّات

يتبادلون الأحاديثَ، منتظِرين دورَهم لتوقيع كتابهم. بعضُهم مستعجِلٌ، وبعضُهم لا. لَمَحْتُ كثيرين ممَّن أعرفُ. أيعرفُهم هو، أم النّاشر؟ أم حضروا ليسمعوا الأدباءَ الكبار؟ كيف دار الأمرُ، فالجوُّ حلوٌ، بهِج.

كان الكاتبُ يوقِّع كتابَه بسرعةٍ. ما تأخّر لحظة. ما ارتبكَ مرّة. ما رأيتُه مُحْرَجًا مرّةً. ولكن: أيكتبُ التّعبيرَ عينَه للجميع، أم لكلّ إنسانٍ ما يناسبُه؟ إقتربتُ، لفُضولٍ أخذَ بي. أريدُ أن أرى لأعرفَ! إقتربتُ أكثر. كانت، إلى جانبه، امرأةٌ سمراءُ جميلةُ الوجهِ والقوام. وبدت سعيدةً، ومهتمّة. أهي امرأتُه؟ صديقتُه؟ أم مجرَّدُ معجَبة! شعرتُ بأنْ تحرّكَ بي شيءٌ ما! وما كان يكتبُ الإهداءَ نفسَه، ولا العاديَّ! يَستوحي، من كلّ شخصٍ، ما يُناسِبُ شخصيّتَه، أو اسمَه، مَقرونًا بعنوان الكتاب. ما زادَني تأثُّرًا. ولأقُلْ: احترامًا وإعجابًا. لِمَ الإخفاء!؟

بصمتٍ كثيفٍ، عدتُ. بفكرٍ مُشَوَّش. بفُتاتِ أحلامٍ تتناثرُ، لا تتكاملُ... تساءلتُ: ماذا يَحُلُّ بي!؟

أمّا عصام، فلم يتفوَّه بكلمة! فيمَ كان يفكّر؟ أم كان يَهجِسُ بما لستُ أدري!؟

غريبٌ أمرُك، يا عصام! كيف يتحوّلُ الإنسان! كيف أصبحَ، وكيف كان! لِمَ تَحَوُّلُك، هذا!؟ هل أنا السّبب؟

راجعتُ حياتَنا معًا. لا شيء يُنَغِّص. لا شيء يُنَكِّد. لا ضبابيّة فيها. وضوحٌ تامٌّ. وفاءٌ، منّي، كاملٌ، كلّيٌّ، مُطلَق، على الرَّغم من محاولات كثيرين، وفي غير مَحفِل. مُقَرَّبون منّي؟ مُقَرَّبون منّا، في آنٍ! يعرفونه من قبل. حتّى ذاك! هو يعرفُه، فقد كان صديقَ صديقِه. وهو مَن قدّمه إليّ. أُعجِبُه!؟ أعرفُ. ما ذنْبي، أنا!؟ ما أمّلتُه، مرّةً! ولن. لا هو ولا سِواه. كرامتي أوّلاً! وأظنُّ أنّ عصامًا لا يختلفُ عنّي، في هذا المجال! هل السّببُ مَلَل؟ هل كان تشجيعُه لي، وحضورُه المحاضراتِ والنَّدَواتِ والأمسياتِ من باب المُسايَرة فقط!؟ مَن كان يُلْزِمُك، يا عصام؟

– عصام!

– نعم!

– كيف كنتُ في هذه النَّدوة؟ أتعتبرُ أنّي نجحتُ؟

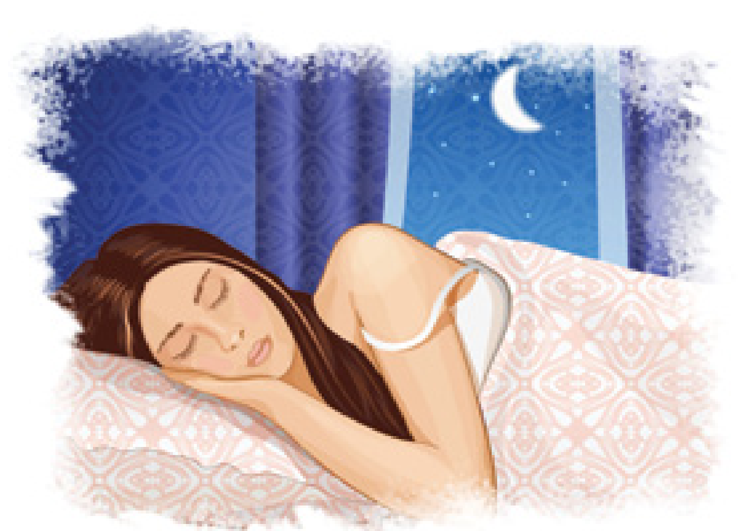
– نجحتِ، بالطَّبع، نجحتِ!

– لم تقلْ لي! ألا تُهنِّئُني؟

– ألستِ واثقة؟ ألواثقُ لا يحتاجُ إلى إطراء!

– أُحِبُّكَ تُشيرُ إلى ذلك. شهادتُك تاج، ملاحظاتُك تَسديدُ خُطى.

– لستِ في حاجةٍ إلى رأيي! أنتِ أدرى. إنّه عالَمُكِ... الجميل.



– ألا زلتَ تُحِبُّه؟
– طالما أنّه يُرضيكِ...

– فلِمَ لا تُرافِقُني دائمًا؟

– كَسَل...

صمتٌّ. فوجِئتُ. يَكْسَلُ، فلا يُرافِقُني! كلُّ حَماسةٍ تَخبو. كلُّ عطرٍ يَنفدُ. كلُّ نبعٍ يَجِفُّ.

صحيحٌ! لكلِّ شيءٍ نهاية. حتّى الحُبّ؟ سألْتُ نفسي، ولم أبحث عن جواب. خِفْتُ. لم أُرِدْ جوابًا.

طلبْنا المِصعدَ، من دونِ أن نَتَمَرْأى بعينَي بعضِنا. دخلنا البيتَ صامتَين. بدا البيتُ بارِدًا. شعرتُني بدأتُ أبْرُدُ!..

أخذتْني أمواجٌ من الحزن، من الكآبة... جَفَّ حَلقي. إستحمَمْتُ. فإلى مكتبي. تناولْتُ، بعنايةٍ وحُنُوٍّ، روايةَ اللّيلة. إنتبهْتُ إلى خطوطٍ كنتُ جعلتُها تحتَ تعابيرَ رأيتُ أنّها لافتةٌ. بَدا مُعظمُها يتعلّقُ بالبطلة. أحببْتُها، أم أصابتْني الغَيرة؟ أهي واقعيّة، حقيقيّة، أم مُتَخَيَّلة؟ أكَتَبَ سيرتَه، أم «حَكى حِكاية»؟ قرّرتُ إعادةَ قراءتِها. لكنّني قلتُ: أستطلِع سارة ثمّ أعود.

وإذ دخلتُ غرفتَها، حَذِرةً، بَدَتْ نائمة، قلتُ: إنّها تغفو مطمئنّة. إقتربتُ، فعدّلتُ لِحافَها. إنسحبتُ كما دخلْتُ.

طويلاً، سهرتُ تلك اللّيلة. أعدتُ قراءةَ الرِّوايةِ بكاملِها. لم أنتبه، إلاّ في صفحتِها الأخيرة.

نمتُ أحلُمُ... على أمل أن أستمرَّ في الأحلام... هو؟ أمام التِّلفزيون، تركتُه لا أدري ماذا يُشاهِدُ، أو إن كان يُشاهِدُ! فقد يكونُ غَفا، كما يحدثُ له غالِبًا.

وقَبْلَ أن أَغْفُوَ، كنتُ قدِ امتلأتُ من قَراري، فاشتعلْتُ به!.. ولْيَكنْ ما لا بُدَّ من أن يَكون!

وحلُمتُ... أنّه أحَبَّني، أنّي أحببتُه. نقضي أوقاتَنا، سعيدَين. أعادَ، إليَّ، حُبَّ الأدبِ. أعادَني أكتبُ الشِّعرَ. أُشارِكُ في أمسياتٍ ومناسَباتٍ ونَدَوات. أعادَني إلى الحياةِ الأحَبِّ.

قَرّرْتُ أن...

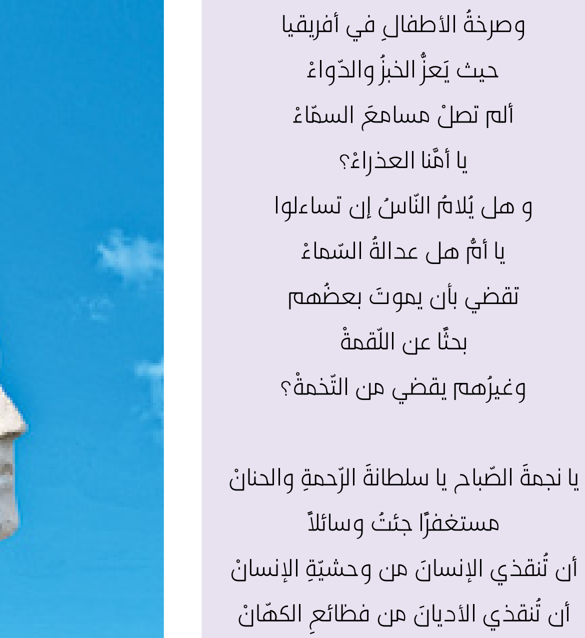
من رواية معدّة للنشر عنوانها «**عشيق أمّي**».

شعريّات

وردة وشمعتان

أنطوان رعد


أنطوان رعد



في هذه العشيّةْ
جئتُكِ يا سيّدة الورديّةْ
أحملُ قلبي وردةً جوريّةْ
جئتُكِ كي أضيءَ شمعتين
واحدةً عن نيّةِ الشّعوبِ في مختلفِ البلدانْ
و شمعةً عن وطني لبنانْ
فموطني يُذبحُ مرّتين
واحدةً بخنجرِ الأعداءْ
و مرّة بخنجرِ الأبناءْ

يا أمَّنا العذرا
مَن يسحقُ الأفعى
التي تدعى الدّولَ الكبرى
فالسّمُّ في الكوبرا
شَهدٌ شهيٌّ طيّبُ المذاقْ
وهو إزاءَ سُمّها البلسمُ والتّرياقْ

يا أمَةَ اللهِ ويا أُمَّه
جَرّاءَ ما يشهدُه العالمُ من مجازرْ
أُتخمتِ المقابرْ
حُنّطتِ الضّمائرْ
تُرى تُرى من يحملُ البشائرْ؟
مَن يُرجِعُ اللهَ إلى الكنائسِ- القبورْ
حيث قضى ضحيّةَ الطّقوسِ والشّعائرْ
مختنقًا بريحةِ البخورْ؟

با أمَّنا العذراء، يا والدةَ المسيحْ
في غزّةَ الجريحْ
في كلِّ يومٍ يُصلبُ المسيحْ
وأنّةُ المسمارِ في كفّيهْ
لم تحرّكِ المشاعرْ
وطعنةُ الحربةِ في جنبيهْ

لم تزلزلِ الضّمائرْ
والعالمُ الغربيُّ يا للعارْ
ما بلغت أسماعَه الأخبارْ
عن محنةِ النّساءِ والشّيوخِ والصّغارْ
في حمصَ في يبرودَ في الموصلِ في سِنجارْ
و العالمُ الزّنديقُ لم يشاهدْ
ما صنعَ الأبالسْ
إذ أضرموا النّيرانَ في المساجدْ
ودمّروا الكنائسْ
ودنّسوا الصلبانْ
وانتهكوا كرامةَ الإنسانْ

وصرخةُ الأطفالِ في أفريقيا
حيث يَعزُّ الخبزُ والدّواءْ
ألم تصلْ مسامعَ السمّاءْ
يا أمَّنا العذراءْ؟
و هل يُلامُ النّاسُ إن تساءلوا
يا أمُّ هل عدالةُ السّماءْ
تقضي بأن يموتَ بعضُهم
بحثًا عن اللّقمةْ
وغيرُهم يقضي من التّخمةْ؟

يا نجمةَ الصّباح يا سلطانةَ الرّحمةِ والحنانْ
مستغفرًا جئتُ وسائلاً
أن تُنقذي الإنسانَ من وحشيّةِ الإنسانْ
أن تُنقذي الأديانَ من فظائعِ الكهّانْ
أن تَحملي إلى الورى غصنًا من الزّيتونْ
أن تُطلقي الأحرارَ من غياهبِ السّجونْ
وتُطلقي في جوِّنا المشحونْ
بالحقدِ والإجرامْ
سربًا من الحمامْ
يا أمَّنا العذراء يا سيّدةَ السّلامْ.



جديد منشوراتنا



